المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا

أسلوب القسم في القرآن الكريم
دراسة بلاغية

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في البلاغة والنقد

إعـــداد

الطالب / علي بن محمد بن عبدالمحسن الحارثي

إشراف

الأستاذ الدكتور / فتحي عبدالقادر فريد

المجلد الثاني

١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

ثانياً - القسم بـ (تالله) في سياق سورة يوسف :

اشتملت سورة يوسف عليه السلام على أربعة مواضع من مواضع القسم باسم الجلالة مع التاء (تالله) ، وقد أشرت إلى هذه المواضع في صدر الحديث عن القسم باسم الجلالة ، ولكن ماسيأتي من الحديث عن عناصر القسم فيها يقتضي إعادة ذكرها ؛ وقد جاءت - وفق ترتيبها في السورة - على النحو التالي :

١ - قوله تعالى : ﴿ **قالوا تالله لقد علمتم ماجئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين** ﴾ (١) .

٢ - قوله تعالى : ﴿ **قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين** ﴾ (٢) .

٣ - قوله تعالى : ﴿ **قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين**) (٣)

٤ - قوله تعالى : ﴿ **قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم** ﴾ (٤) .

وهذه المواضع الأربعة تتفق - بالإضافة إلى صورة القسم - في مصدر القسم ؛ فهي محكية عن إخوة يوسف عليه السلام . أما المقسم له المخاطب بالقسم ؛ فقد تنوع في هذه المواضع ، ففي الموضع الأول وجه الإخوة القسم إلى القائمين على خزائن مصر ، وفي الموضعين الثاني والرابع وجهوا القسم إلى أبيهم يعقوب عليه السلام ، وفي الموضع الثالث وجهوه إلى أخيهم يوسف عليه السلام .

وقد تنوع المقسم عليه - أيضاً - في هذه المواضع ، فالموضع الأول - كما يقول الكرماني - « يمين منهم أنهم ليسوا سارقين ، وأن أهل مصر بذلك عالمون . والثاني

---

(١) سورة يوسف ، الآية ٧٣ .

(٢) سورة يوسف ، الآية ٨٥ .

(٣) سورة يوسف ، الآية ٩١ .

(٤) سورة يوسف ، الآية ٩٥ .

يمين منهم أنك لو واظبت على الحزن تصير حرضاً ، أو تكون من الهالكين . والثالث يمين منهم أن الله فضله عليهم ، وأنهم كانوا خاطئين . والرابع ... يمين من أولاده على أنه لم يزل على محبة يوسف » [١] .

وسنتناول - فيما يأتي - هذه المواضع الأربعة موضعاً موضعاً ؛ لنتأمل في كل منها وجه اختيار صورة القسم ، وعلاقتها بالمقسم عليه ، والمقسم له ، والمقام ، والسياق الخاص والعام ، وسائر أحوال التركيب ذات العلاقة ببناء القسم ودلالته .

---

(١) البرهان في توجيه متشابه القرآن ص ١٠٢ .

الموضع الأول :

قوله تعالى : ﴿ **قالوا تالله لقد علمتم ماجئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين** ﴾ (١) .

هذا أول قسم يرد محكياً عن إخوة يوسف عليه السلام في السورة التي ضمت أقسامهم الأربعة التي سبقت الإشارة إليها ، وهي سورة يوسف . ويصدر هذا القسم منها في سياق حكاية المكيدة التي دبرها يوسف - بتوفيق من الله تعالى - لاستبقاء أخيه بنيامين عنده ، في الرحلة الثانية التي قام بها الإخوة إلى مصر ، بعد أن استدرجهم يوسف إلى إحضار أخيه ، ﴿ **ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون * فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون * قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون * قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنابه زعيم * قالوا تالله لقد علمتم ماجئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين * قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين * قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين * فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم** ﴾ (٢) .

وواضح من الآيات أن إخوة يوسف يوجهون هذا القسم إلى المؤذن ومن معه من القائمين على خزائن مصر ، بعد أن اتهموهم بالسرقة ؛ فالقسم وارد في مجابهة اتهام لم يكن يتوقع الإخوة أن يوجه إليهم ، وهم من هم في التقوى والصلاح ، ولم يصدر هذا القسم منهم إلا بعد أن تأكد لهم أن أولئك الفتيان يقصدونهم هم لا غيرهم بما جاء

---

(١) سورة يوسف ، الآية ٧٣ .

(٢) سورة يوسف ، الآيات ٦٩ - ٧٥ .

على لسان المؤذن في قوله : (أيتها العير إنكم لسارقون) .

ولما كان هذا هو موقف الإخوة من المؤذن وأصحابه ؛ ظهر في سلوكهم وكلامهم منذ اللحظة الأولى ماينبىء عن الثقة في سلامتهم من تلك التهمة ، والحرص على دفعها ، والاحتفاء بذلك والاهتمام به ، مع إظهار الدهشة والاستغراب ؛ فأول ذلك أنهم حين اتهموا بالسرقة صراحة : (قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون) ؟ ففي ورود السؤال عن المفقود ، وهم مقبلون على الفتيان ، تعبير عن ثقتهم في أنفسهم ؛ لأن السارق قد يتردد في موقف كهذا ، بل قد يصحب تردده استدبار لطالب المسروق ليواري ماقد يكشف من أمره . كما أن في الإقبال على الفتيان التفات يدل على الاهتمام بالأمر .

ومما يزيد تأكيد ثقة هؤلاء الإخوة في أنفسهم أنهم لايبادرون إلى نفي السرقة بمجرد اتهامهم بها ، بل يبادرون إلى السؤال عن المفقود ؛ كأنهم لايستبعدون أن يكون قد فقد شيء ، ولكنهم على يقين من أن آخذه ليس منهم ، وهذا مخالف لسلوك من يسرق فإنه يحرص - غالباً - على ألا يثبت مفقوداً ، ليبعد التهمة من أصلها . وفي السؤال عن ذلك بلفظ الفقد في قولهم : ماذا تفقدون ؟ تأكيد - من جهة أخرى - لبراءتهم من الاتهام ؛ وذلك - كما يقول أبو السعود - أنهم قد عدلوا « عما يقتضيه الظاهر من قولهم : ماذا سرق منكم ؟ لبيان كمال نزاهتهم بإظهار أنه لم يسرق منهم شيء فضلاً عن أن يكونوا هم السارقين له ، وإنما الممكن أن يضيع منهم شيء فيسألونهم أنه ماذا » (١) .

وقد هيأت هذه الثقة - مع مايقابلها من ثقة المؤذن في كون السارق منهم - هيأت لصدور القسم منهم احتفاءً واهتماماً بالأمر ، وإظهاراً لقوة الرغبة في نفي مانسب إليهم ، ووطأ ذلك أيضاً للقسم على علم أولئك الفتيان بأنهم لم يأتوا للإفساد

---

(١) تفسير أبي السعود ٢٩٥/٤ ، وانظر : روح المعاني ٢٥/١٣ .

في الأرض وما كانوا سارقين ، ولهذا قالوا مقسمين باسم الجلالة مقروناً بالتاء : (تالله لقد علمتم ماجئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين) .

وتفسير ذلك أن في قسمهم على علم المخاطبين بذلك إشارة إلى أن عندهم من الدلائل الواضحة مايجعلهم واثقين من نزاهتهم وبراءتهم مما أضيف إليهم ، وذلك - كما يقول المفسرون [١] - أنهم قد أظهروا من صلاحهم ودينهم في كرتي مجيئهم إلى مصر مايعلم منه أنهم ماجاءوا ليفسدوا في الأرض وما كانوا سارقين .

ويرى بعض المفسرين أن « الحلف في الحقيقة على الأمرين اللذين في حيز العلم لا على علم المخاطبين بذلك ، إلا أنهم ذكروه للاستشهاد وتأكيد الكلام ولذا أجرت العرب العلم مجرى القسم » [٢] .

وهذا الرأي ينافي مايقتضيه موقف الإخوة ؛ لأنهم يحرصون هنا على إثبات علم المخاطبين بانتفاء الأمرين الداخلين في حيزه (الإفساد في الأرض ، والسرقة) لا على مجرد نفيهما ؛ وذلك أن وقوع القسم على العلم بنفي مافي حيزه يشير - كما ذكرت قبل قليل - إلى رغبة الإخوة في لفت المخاطبين إلى أن الحكم بانتفائهما متيقن لديهم بما عندهم من دلائله الواضحة التي تقتضي أن يكونوا عالمين به .

وقد رجح الدكتور أحمد اللهيب كون القسم واقعاً على قوله : (لقد علمتم ماجئنا ...) ؛ لأن ذلك مما تجيزه الصناعة النحوية ، ويقره المعنى ، فأما من جهة الصناعة ؛ فهي تقتضي أن تدخل (لقد) على الجواب إذا كان فعلاً ماضياً مثبتاً متصرفاً ، « وأما من حيث المعنى فإن القسم على أن المخاطبين عالمون بنزاهة المقسمين من الفساد والسرقة ، أبلغ في البراءة مما نسب إليهم ، وألزم للمخاطبين بالقناعة

---

(١) أنظر على سبيل المثال : معاني القرآن للفراء ٥١/٢ ، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ١٢١/٣ ، وتفسير الطبري (ط المعارف) ١٨١/١٦ ، ١٨٢ ، وتفسير البغوي ٤٣٩/٢ ، والكشاف ٣٣٤/٢ ، وزاد المسير ٢٥٩/٤ ، ٢٦٠ .

(٢) روح المعاني ٢٧/١٣ ، وانظر : الكشاف ٣٣٤/٢ ، وتفسير أبي السعود ٢٩٥/٤ .

والقبول ، لأنهم ذكروهم بما يعلمونه عنهم من الأمانة وحسن المعاملة معهم قبل ادعاء حدوث السرقة » (١) .

ومعنى هذا أن في التعبير بفعل العلم في جواب هذا القسم تأكيداً للأمرين المذكورين في حيزه ، وعليه يكون ذكره مؤكداً للجملة المقسم عليها كلها ؛ لأنه المعتمد الأول فيما يراد إثباته في هذه الجملة .

ومما زاد من قوة تأكيد المقسم عليه أن العلم مؤكد بلام التوكيد الداخلة على (قد) التي تفيد التوكيد - كذلك - بما تؤذن به من أن هذا العلم من الأمور المحققة الوقوع لدى المخاطبين ؛ لأنها إذا دخلت على الفعل الماضي أفادت تحقق وقوعه .

ولما كان موقف الإخوة - الذي تقدم بيانه - يقتضي المبالغة في نفي مانسب إليهم ، جاء في المقسم عليه نفي المجيء للإفساد « وإن لم يكن مستلزماً لما هو مقتضى المقام من نفي الإفساد مطلقاً ، لكنهم جعلوا المجيء الذي يترتب عليه ذلك ، ولو بطريق الاتفاق ، مجيئاً لغرض الإفساد مفعولاً لأجله ادعاءً وإظهاراً لكمال قبحه عندهم وتربيةً لاستحالة صدوره عنهم ، ... فكأنهم قالوا : إن صدر عنا إفساد كان مجيئنا لذلك ، مريدين به تقبيح حاله وإظهار كمال نزاهتهم عنه » (٢) .

ونفيهم المجيء للإفساد يتضمن نفيهم المجيء للسرقة ، ولكنهم مع ذلك خصوا السرقة بجملة منفية مستقلة إظهاراً لكمال الاعتناء بهذا الأمر على وجه الخصوص ؛ لكونه الأمر الذي أقسموا من أجله ، وعليه فإنهم قد نفوه عن أنفسهم مرتين : مرة بنفي الإفساد كله ، ومنه السرقة ، ومرة بنفي السرقة نفسها .

وفي قولهم : (وما كنا سارقين) وجوه من التوكيد ؛ وذلك أنهم قد عبروا عن المنفي بفعل الكون ؛ ليدلوا على نفي كونهم متصفين بالسرقة اتصاف سجية ؛ فالمعنى

---

(١) أساليب القسم والشرط في القرآن الكريم (رسالة دكتوراه) ص ٤٩٧ .

(٢) تفسير أبي السعود ٤/٢٩٥ ، وروح المعاني ١٧/٢٢ ، ٢٣ .

- كما يقول ابن كثير - « ليست سجايانا تقتضي هذه الصفة » [١] ، وهذا أبلغ في نفي السرقة عنهم ، لأنه ينفي مطلق الصفة لا مجرد وقوعها منهم في وقت معين ، ولهذا احترز الإخوة عن التعبير بالفعل أو بالجملة الفعلية في هذا السياق ؛ لما فيهما من الدلالة على الزمن ، فلم يقولوا : وما كنا لنسرق ، أو : وما سرقنا ، ولكنهم عبروا عن ذلك بالجملة الاسمية لما فيها من إطلاق معنى النفي ، وزيادة توكيده ٠

ومن جميع ماتقدم يعلم أن كلام هؤلاء الإخوة في هذا الموقف قد اشتمل - بالإضافة إلى القسم - على كثير من أساليب التوكيد ، واشتمل على مثل ذلك من خصوصيات التراكيب الدالة على المبالغة في تحقيق المقسم عليه وتأكيده ٠ وقد تقدم أن هذا الموقف الذي أقسم فيه إخوة يوسف يدعو إلى الاحتفاء بالأمر ، والحرص على نفي التهمة الموجهة إليهم ، وإظهار قوة ثقتهم في براءتهم مما أضيف إليهم ، وهو ماعبرت عنه جميع تلك المؤكدات التي اجتمعت في الجملة القسمية التي جرت على لسانهم ، على نحو يلفت الانتباه ٠

وقد يكون لمجيء هذه المؤكدات في هذا القسم ارتباط بما جاء على لسان المؤذن من الإيلام وقوة الاتهام [٢] في قوله : (أيتها العير إنكم لسارقون) ، فكأن في هذه المؤكدات رداً على ما اشتملت عليه هذه الجملة التي أطلقها المؤذن من المبالغة في الاتهام ، ومجابهة لما فيها من قوة الجرأة على التصريح به ، وفيها أيضاً دلالة « على ثقة هؤلاء الإخوة في صحة سلوكهم جميعاً ، وأن باطن كل واحد منهم كظاهره، لايشكون في كل ذلك مثقال ذرة » [٣] .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٤٨٥ ٠

(٢) يرى أستاذنا الدكتور حسن باجودة (في كتابه : الوحدة الموضوعية في سورة يوسف ، ص ٢١٩) أننا « حينما نتأمل ماجاء على لسان المؤذن فإنا نجده بليغاً موجزاً مؤلماً ، فيه صراحة واضحة ، وفيه قوة ٠ إنه يخاطبهم وجهاً لوجه مضمناً كلامه إن واللام المفيدتين للتوكيد ٠ ولايخفي أن خبر إن جاء فيه صيغة جمع المذكر السالم ، فكأن صفة السرقة لاصقة بكل أفراد القافلة .. » ٠

(٣) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف ، ص ٢٢٩ ٠

ولعل من أغراض تلك المؤكدات التي تعاضدت في كلام الإخوة على النحو الذي سبق بسطه - الإيماء إلى غرابة ذلك الاتهام ، وإلى أنه من الأمور التي تستأهل أن يؤكد دليل نفيها ويلفت إليه في صورة قوية ؛ لأن ماظهر من حال المخاطبين قد دل على أنهم بمنزلة من ينكر أن مايعلمونه من سلوك المتكلمين قبل الاتهام يدل على براءتهم وبعدهم عن أن يكونوا كما قيل لهم .

ويمكن أن يكون من أغراض اجتماع تلك العناصر المؤكدة التعبير عن قوة التعجب الذي أنبأت عنه التاء الداخلة على اسم الجلالة المقسم به ؛ فقد ذكر أكثر اللغويين وأن في هذا القسم معنى التعجب [١] ، وفسره بعضهم بأنهم تعجبوا من إضافة الفتيان السرقة إليهم مع ماعلموا من أمانتهم ودينهم [٢]؛ فلسان حالهم في هذا المقام يقول : كيف ترموننا بالسرقة ، وقد علمتم من أمانتنا وديننامايدفع هذا الاتهام ؟! وعلى هذا فإن ما أضافته تلك المؤكدات إلى كلامهم من القوة يعبر - بالإضافة إلى المعاني السابقة - عن إظهار المبالغة في تعجبهم من هذا الأمر .

ولعل لاختيار التاء في صورة هذا القسم صلة بما صحب التعجب في هذا السياق من انفعالات أخرى ؛فلا يخفى ما في الموقف الذي أقسم فيه الإخوة من الشعور بالدهشة والاستغراب ، وشدة الغضب ، فكأن التاء التي وردت في القسم المسند إليهم تعبر عن تلك الانفعالات المصاحبة للقسم ، وعلى هذا لايكون التعبير بـ (تالله) في أسلوب القسم مشيراً إلى تعجب المقسم من موقف المخاطب من المقسم عليه فحسب ، بل يمكن أن يكون بالإضافة إلى ذلك إظهاراً لجملة من انفعالات المقسم تجاه الموقف القسمي كله . ومعنى هذا أن للقسم باسم الجلالة مع التاء صلة بالمواقف القسمية ذات العلاقة بكثرة الانفعالات وتعددها وقوتها .

---

(١) انظر على سبيل المثال : الكتاب ٤٩٧/٣ ، والكشاف ٣٣٤/٢ ، وتفسير البيضاوي، ص ٣٢٠ ، وتفسير النسفي (ضمن مجمع التفاسير ٤٣٦/٣) ، والبحر المحيط ٣٣٠/٥ ، والسراج المنير ١٠٣/٢ ، وتفسير أبي السعود ٢٩٥/٤ ، وروح المعاني ٢٦/١٣ .

(٢) انظر : الكشاف ٣٣٤/٢ ، والبحر ٣٣٠/٥ ، وروح المعاني ٢٦/١٣ .

وإذا كان ذلك كذلك ، فإن للأساليب المؤكدة في هذا السياق غرضاً آخر ، وهو إظهار مافي موقف الإخوة من شدة التوتر والانفعال الذي أتاح تكاثر تلك المؤكدات على النحو الذي تم تفصيله ٠

ولما كان القسم في سياق إثبات البعد عما نسب إليهم ، وكان جواب هذا القسم مشتملاً على كثير من العناصر المؤكدة لذلك ؛ جاء القسم هنا باسم الجلالة متناسباً مع هذا الغرض ؛ لأنه أكثر تأكيداً وتحقيقاً للمقسم عليه ، فليس ثمة في الوجود حقيقة آكد من وجود الله تعالى ووحدانيته ، فكأن قسم الإخوة بهذا الاسم من أسمائه سبحانه يشير إلى أن علم المخاطبين بكونهم لم يأتوا للإفساد أو السرقة - متيقن لاشك فيه ، كأن المعنى : إنكم لتعلمون ذلك حقاً كما أن الله حق ، وعلى هذا يكون المقسم به مؤكد للمقسم عليه من جهة دلالته على اليقين ٠

وثمة معنى آخر يمكن أن تفسر به العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه في هذا الموضع ، وذلك أن القسم باسم الجلالة بخاصة - بما فيه من الدلالة على الوحدانية والتفرد - قد يشير إلى أنهم يريدون أن يؤكدوا أن القوم قد علموا أن مقدمهم إلى مصر إنما كان لغرض واحد ، وهو التزود من خيرات مصر في سنوات الجدب ، ولم يكن لأغراض أخرى كالإفساد في الأرض أو السرقة أو غير ذلك مما يمكن أن يخرج عن ذلك الغرض المعلوم لدى المخاطبين ؛ فأختيار اسم الجلالة في هذا القسم يشير إلى الوجه الذي بنوا عليه تأكيدهم لعلم المخاطبين ، وهو كونهم لم يأتوا إلى مصر إلا لذلك الغرض الواحد ، كأن معنى ذلك : نقسم بالله لقد علمتم أن غرض مجيئنا لواحد لا ثاني له ، كما أن الله الذي نقسم به واحد لاشريك له ، وتقوم العلاقة بين عنصري القسم - وفق هذا المعنى - على ما في المقسم به من دلالة مماثلة لما يراد إثباته في المقسم عليه ٠

ومن جميع ماسبق اتضحت خصوصيات اختيار العناصر اللغوية المعبر بها في القسم الذي جرى على لسان إخوة يوسف في هذا الموقف ، واتضح أن هذه

الخصوصيات ذات علاقة بالمقسمين ، والمخاطبين ، والمقسم عليه ، والمقام المقسم فيه ، والسياق الذي ورد فيه القسم ٠

الموضع الثاني :

قوله تعالى : **﴿ قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين ﴾** [١] .

هذا قسم آخر صادر من إخوة يوسف عليه السلام [٢] ، يوجهونه إلى أبيهم يعقوب عليه السلام بعد أن أخبروه بمصير ابنه الأصغر بنيامين شقيق يوسف وما آل إليه أمره ، **﴿ وتولى عنهم وقال يا أسفا على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم ﴾** [٣] ، فعند ذلك (قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف ...) الآية . وقيل إن الذين قالوا ذلك هم بعض أتباع يعقوب عليه السلام ممن كانوا عنده في ذلك الوقت (٤) . والأول أقرب إلى سياق القصة ؛ لأن أبناءه هم الذين أخبروه بما صار إليه حال بنيامين ، فتولى عنهم وتأسف على يوسف واشتد حزنه ، فلما رأوا منه ذلك وجهوا إليه هذا القسم .

والمقسم به هنا هو اسم الجلالة مع التاء (تالله) . أما المقسم عليه فهو قولهم : (.. تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين) . أي : لاتزال تذكر يوسف ؛ فحذفت (لا) من جواب القسم وهي مرادة - كما يقول المفسرون - لأن خلو الفعل من التأكيد باللام يدل على أن الجواب منفي ؛ لأنه لو كان مثبتاً لدخلته اللام كقولك : والله لآتينك ، فلايجوز أن يقال : والله آتيك ، والمراد غير النفي ، لأن ترك اللام قرينة إرادة النفي ، إذ المعنى : والله لا آتيك ؛ فلما كان النفي معلوماً في الآية بغير (لا) حذفت اختصاراً ، ونظيره قول امرىء القيس :

فقلت يمين الله أبرح قاعـداً ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

---

(١) سورة يوسف ، الآية ٨٥ .

(٢) انظر : تفسير الطبري (ط المعارف) ٢١٩/١٦ .

(٣) سورة يوسف ، الآية ٨٤ .

(٤) انظر : روح المعاني ٤٣/١٣ .

وقول بعضهم :

فلا وأبي دهماء زالت عزيزة ... على قومها مافتّل الزند قادح

والمعنى : لا أبرح قاعداً ، ولازالت عزيزة [١] .

والحرض : الفساد في الجسم والعقل من شدة الحزن أو العشق [٢] ، وقال الراغب : « الحرض : مالايعتد به ولا خير فيه . ولذلك يقال لمن أشرف على الهلاك : حرض ، قال عز وجل : (.. حتى تكون حرضاً) » [٣] . ومعنى المقسم عليه على هذا التأويل : تالله لاتزال تذكر يوسف حتى يفسد جسمك وعقلك فتصير إلى حال قريبة من الهلاك ، أو تكون من الهالكين .

وعلى هذا فهم لايقسمون لأبيهم على أنه لايزال يذكر يوسف فحسب ، بل يقسمون على ذلك « باعتبار مابعده من الغاية ، لأن المقصود من هذا اليمين الإشفاق عليه بأنه صائر إلى الهلاك بسبب عدم تناسيه مصيبة يوسف - عليه السلام - وليس المقصود تحقيق أنه لاينقطع عن تذكر يوسف » [٤] . ويجوز أن يتعلق بإثبات كونه

---

(١) انظر على سبيل المثال : معاني القرآن للفراء ٥٤/٢ ، وتأويل مشكل القرآن ص ٢٢٥ ، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ١٢٦/٣ ، وإعراب القرآن للنحاس ٣٤٢/٢ ، ٣٤٣ ، وتفسير الطبري (ط المعارف) ٢٢١/١٦ ، والمزهر في علوم اللغة ١٣١/١ .

وترى الدكتورة بنت الشاطىء (في كتابها : الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق ، ص ١٧٨ ، ١٧٩) أن « تفتأ » تدل في اللغة على معنى الاستمرار بغير « لا » ؛ فهي ليست كالفعل « زال » الذي لايدل على الاستمرار إلا إذا سبقته « لا » ، وإلا كان فعلاً تاماً بمعنى الزوال نقيض البقاء ، وعلى هذا فهي لاترى وجهاً لتقدير الحرف قبل « تفتأ » كما ذهب إليه المفسرون في الآية ؛ لأنها تؤدي معنى الاستمرار دون حاجة إلى تقدير محذوف . وليس لها على ماذهبت إليه دليل أو شاهد من كلام العرب .

(٢) معاني القرآن للفراء ٥٤/٢ ، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ١٢٦/٣ ، وتفسير الطبري (ط المعارف) ٢٢١/١٦ .

(٣) مفردات القرآن، ص ١٦٣ .

(٤) التحرير والتنوير ٤٤/١٣ . وانظر في معنى الإشفاق : تفسير ابن كثير ٤٨٨/٢ .

لايزال يذكر يوسف - في معزل عما هو غايته - أغراض ذات صلة بسياق القسم ، وسيأتي بيان ذلك ·

وإذا كان قسمهم هنا على أنه لايزال يذكر يوسف باعتبار ماسيؤول إليه حاله لو دام ذكره له ؛ فإن هذه الحقيقة ليست مما يجهله يعقوب عليه السلام أو ينكره ؛ وعليه فإنه لايحتاج إلى إخباره بها فضلاً عن تأكيدها بالقسم ، وإنما أقسموا على ذلك على خلاف مقتضى الظاهر ، منزلين له ، وهو عالم بهذا الحكم ومقربه ، منزلة الجاهل به أو المنكر له ؛ لسر بلاغي ، وهو أنه الاستمرار على ماهو فيه من ذكر يوسف والحزن عليه صار كمن يجهل أو ينكر أن ذلك سيهلكه ، فأكدوا له ذلك الأمر بالقسم موافقةً لمقتضى حاله في ذلك الموقف الذي ظهر لهم فيه من حبه ليوسف واستمراره عليه مايلوح بكونه جاهلاً بالمقسم عليه أو منكراً له ·

والصورة المختارة للقسم هنا هي (تالله) ، وهي صورة يقرن فيها بين اسم الجلالة وتاء القسم ، وسنقف - فيما يلي - على وجه اختيار اسم الجلالة مقسماً به في هذا الموضع ، ثم نقف على دلالة التاء في هذا السياق ·

فأما اختيار اسم الجلالة في هذا الموضع لتأكيد المقسم عليه ؛ فهو وارد على سبيل التحقيق ؛ كأن المعنى : تالله الحق الذي لاشك فيه إنك لمستمر على تذكر يوسف وحبه حتى يفضي بك ذلك إلى الهلاك ، أي أن ذلك المصير حق كما أن الله الذي نقسم به حق لاشك فيه ·

ويمكن أن يكون لاختيار اسم الجلالة في هذا القسم صلة بما أقسم عليه الإخوة من جهة مافيه من دلالة التفرد والوحدانية ، وذلك أن له - من هذه الجهة - علاقة بما ألمح إليه الإخوة من تفرد يوسف واختصاصه من بين إخوته بحب خاص جعل أباهم يعقوب يستمر على ذكره مع ما علم من مصيره ، فالمقسم به يشير إلى معنى مماثل لما في المقسم عليه من إشارة الإخوة إلى ذلك الحب الذي انفرد به يوسف ، ولما فيه من الإشارة إلى أن ذلك الحب المبالغ فيه - كما يرون - لايفضي إلا إلى شيء واحد هو الهلاك ·

أما مجيء التاء مع المقسم به فذو صلة بما تقدمت الإشارة إليه من اختصاص هذه الصورة في القسم بزيادة معنى ، وأكثر ماتدل عليه مع القسم التعجب ، ولهذا قل استعمالها في القسم - كما يرى الطيبي - لأن « المقسم عليه بالتاء يكون نادر الوقوع ، لأن الشيء المتعجب منه لايكثر وقوعه ، ومن ثم قل استعمال التاء إلا مع اسم الجلالة ، لأن القسم باسم الجلالة أقوى القسم » [1] . وهذا تعليل لقلة استعمال التاء في أسلوب القسم ، ولاختصاصها باسم الجلالة في هذا الأسلوب ، نقله ابن عاشور عن الطيبي .

ويلحظ في نص الطيبي تصريحه بأن اسم الجلالة هو أقوى القسم ، ولعل ذلك يرجع إلى اشتماله على جميع معاني الأسماء والصفات ، كما يلحظ فيه ربطه بين قوة القسم بلفظ الجلالة واقتران التاء به في القسم على الأمور النادرة المتعجب منها ، وهو ربط يؤيده مايعلم من شأن المعاني النادرة وحاجتها إلى التأكيد أكثر من غيرها ؛ لأن المعنى الشائع المعروف لايحتاج إلى تقرير أو تثبيت ، كما يحتاج إلى ذلك ماندر وقوعه من المعاني ، أو ما كان مستبعداً غريباً .

وهذا الارتباط بين مجيء القسم باسم الجلالة - بما فيه من قوة التوكيد - والمعاني النادرة ، يفسر بجلاء سر اختصاص التاء - وهي تفيد فيما تفيد التعجب - بدخولها على اسم الجلالة ؛ فهي لا تدخل على غيره ، ولم تأت في القرآن الكريم كله إلا مع اسم الجلالة .

ومجيء التاء في هذا القسم متسق مع المقسم عليه ، وذلك أنه أمر عجيب وغريب من جهات ؛ فأول ذلك وأظهره في هذا السياق أنهم يتعجبون من ذكر أبيهم يعقوب عليه السلام ليوسف ، على طول العهد بما أخبروه به من مصيره ، فهو في نظر يعقوب عليه السلام - اعتماداً على هذا الإخبار - قد هلك ، فكيف يظل يذكره على هذا النحو مع ماعلم من شأنه ؟!

---

(١) انظر : التحرير والتنوير ٤٣/١٣ .

ثم إن هؤلاء الإخوة يمعنون في هذا التعجب بناءً على ما في أنفسهم من اليقين بأنه هالك لا محالة ؛ إذ كيف ينجو طفل صغير من ذلك الجب الذي ألقوه فيه ، فالمعنى المقسم عليه غريب أيضاً لدى المقسمين من جهة ترتب الحكم بغرابة استمراره على ذكر يوسف – على ماوقر في نفوسهم من تحقق هلاك من هو في مثل ظروف أخيهم يوسف .

وفي استعمال التاء أيضاً دلالة تعجب واستبعاد من سياق ذكر يعقوب لابنه يوسف – عليهما السلام – وذلك أن هذا القسم قد وجه من الإخوة إلى أبيهم بعد أن أخبروه بما آل إليه حال بنيامين وأخيهم الأكبر فذكره ليوسف في قوله : (يا أسفا على يوسف) لم يكن متوقعاً في هذا السياق ؛ فهم – كما يقول أستاذنا الدكتور حسن باجودة – « . . . يتعجبون من ذكر يعقوب العقيم ليوسف ، وانتقاله المفاجىء إليه وهو الذي مضى على غيابه سنوات وسنوات .

وكان من الجائز في اعتقادهم أن يذكر بنيامين والأخ الأكبر حديثي عهد بالفراق ، وأن يستتبعه حزن معقول عليهما أو على أحدهما ، وليس هذا الحزن الذي لايعرف له نظير » (١) .

والتاء في هذا السياق تنقل أيضاً موقف المتكلمين من هذا التذكر العجيب الغريب ، وحيرتهم وشدة دهشتهم لما يرونه من حال أبيهم ، فما يزيده طول العهد إلا تمادياً فيما هو فيه من محبة يوسف والحزن عليه ، وفي هذا الموقف من الإخوة تتمثل مجموعة من الانفعالات النفسية التي يمكن أن تجول في خواطرهم وهم ينطقون بهذا القسم : (تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين) ، ففي هذا الخطاب استغراب ، واستبعاد ، ، ودهشة ، وإشفاق ، وتحسر على استمرار هذا الحب ، « ولايستبعد مطلقاً أن يكون في الوقت نفسه هناك شعور بالنقمة على هذا

---

(١) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف عليه السلام ، ص ٣٠٨ .

الشخص [يوسف] ، السبب الأول لكل هذه المنغصات » [١] .

وهذا يعني أن تاء القسم تأتي للتعبير عن كثير من المعاني الانفعالية ، وأنها - كما ذكر النحويون - تفيد زيادة معنى على القسم ، فهي - وإن كانت تأتي غالباً مع الأمر المتعجب منه - إلا أن هذا الأمر المتعجب منه يثير في النفس ردود فعل متعددة تفهم من السياق ، ولهذا نرى أن التاء يعبر بها في القسم الذي يجريه قائله على سبيل التعبير عن مواقف خاصة ، وانفعالات معينة ، تجاه الأمر المقسم عليه .

ولما كان القسم هنا على أمر غريب - من الجهات التي بينت - جاءت العناصر اللغوية في هذا القسم معبرة عن هذه الغرابة التي تضمنها السياق القسمي ، وائتلفت الألفاظ المختارة في جملتي القسم والجواب مع المعنى المعبر عنه ؛ فقد جيء من كل باب بأغرب صيغه التي يقتضيها السياق ؛ وذلك واضح فيما لحظه ابن أبي الإصبع من أنه « سبحانه أتى بأغرب ألفاظ القسم إلى أخواتها ، فإن والله وبالله أكثر استعمالاً وأعرف عند الكافة من تالله ، لما كان الفعل الذي جاور القسم أغرب الصيغ التي في بابه ، فإن كان وأخواتها أكثر استعمالاً من تفتأ ، وأعرف عند الكافة ، ولذلك أتى بعدهما بأغرب ألفاظ الهلاك بالنسبة ، وهي لفظة (حرض) ، ولما أراد غير ذلك قال في غير هذا الموضع : (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) [٢] ، لما كانت جميع الألفاظ مستعملة وعلى هذا فقس »[٣] أي « لما كانت جميع ألفاظ هذا الكلام

---

(١) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف عليه السلام (٣٠٨).

(٢) هذا جزء من آيات متعددة وردت في المواضع التالية : سورة الأنعام ، الآية ١٠٩ ، وسورة النحل ، الآية ٣٨ ، وسورة النور ، الآية ٣٥ ، وسورة فاطر ، الآية ٤٢ . ولعل المصنف قد أشار بهذا الجزء إلى جميع هذه المواضع لأن جميع ألفاظها مستعملة مشهورة ، لا كما ظنه محقق كتابي ابن أبي الاصبع ، إذ لم يشر إلا إلى آية فاطر . (انظر : المصدرين اللاحقين) .

(٣) تحرير التحبير، ص ١٩٥ ، ١٩٦ ، وبديع القرآن، ص ٧٧ ، ٧٨ ، وانظر : إعجاز القرآن البياني ، د/حفني شرف ، ص ٢٢٠ ، ٢٢١ .

المجاورة لهذا القسم كلها مستعملة متداولة ؛ لم تأت فيها لفظة غريبة تفتقر إلى مجاورة مايشاكلها في الغرابة ويلائمها » [١] كما هو الحال في قسم إخوة يوسف ·

ومعنى هذا أن حسن الوضع في النظم قد اقتضى « أن تجاور كل لفظة بلفظة من جنسها في الغرابة أو الاستعمال توخياً لحسن الجوار ، ورغبة في ائتلاف المعاني بالألفاظ ولتتعادل الألفاظ في الوضع وتتناسب في النظم » [٢] .

ومن هذا يتضح التناسب التام بين عناصر الأسلوب وتعاضدها في أداء المعنى المشاكل لها ؛ فقد تراصّت هذه الألفاظ الغريبة في سياق إثبات غرابة صنيع يعقوب عليه السلام ، وتعجب أبنائه منه ، وهو المقسم عليه هنا ، ويتضح من هذا أيضاً وجه من وجوه التناسب بين القسم والجواب ·

وقد أشار بعض الباحثين المحدثين ، وهو الأستاذ عبدالكريم الخطيب إلى قيمة النظم في المؤاخاة بين هذه الألفاظ الثلاثة : (تالله ، تفتأ ، حرضاً) ، وذكر أنها ألفاظ ثقيلة خارج النظم ؛ « ولو أن كلمة واحدة منها دخلت بين أرق الكلام وأسلسه لذهبت برونقه ، ولخرجت به عن سلاسته ورقته إلى غرابة غريبة وخشونة موحشة · ولكن القرآن جاء بها في هذا الإطار المحدود من النظم ومع ذلك فهي ماهي خفة وسلاسة واتساقاً » [٣] .

ثم ذكر الأستاذ الخطيب أن المتكلم لو أراد أن يتخير صورة من الكلام ليؤدي بها هذا المعنى ، لكانت هذه الكلمات أبعد من أن يتخيرها ؛ لأن له في حروف القسم غنىً عن التاء ، وفي أفعال الاستمرار منأىً عن (تفتأ) ، وفي ألفاظ الهلاك مخرجاً عن (حرضاً) ، ولكان له من كل باب مايرده عن غرابة هذه الألفاظ [٤]، « ولكأن القرآن

---

(١) بديع القرآن ، ص ٧٨ ·

(٢) المصدر نفسه ·

(٣) إعجاز القرآن، ص ٢٧١ ، ٢٧٢ ·

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٧٢ ·

قد تخير عن عمد هذه الكلمات الثلاث وجاء بها من أجل ثقلها ليقيم منها شاهداً من شواهد إعجازه ، وليؤذن في آذان الثقلين أنه يقيم من المستحيلات ممكنات ، ويجعل من أبناء العلات أشقاء ... » [١] .

وذهب الأستاذ الخطيب إلى مثل ذلك في تتابع التاءات الثلاث في أوائل الكلمات : (تالله ، تفتأ ، تذكر) وعلق عليه بقوله : « لو وقعت هكذا متتابعة في أرق الكلام وأملحه لثقل وسمج ولخرج من باب البلاغة جملة ... ولكنها - هكذا - في نظم القرآن .. سرب حسان ... استمع إلى هذه الموسيقى المتدفقة منها تدفق السيل الهادر في لجة البحر العميق » [٢] .

وكما كانت غرابة تلك الألفاظ المختارة في القسم مشاكلة للمعنى الغريب الذي عبرت عنه ؛ كان هذا الجرس الصوتي الخاص الذي يمثله تكرار هذه التاءات فيها دالاً على الموقف الخاص الذي ورد فيه القسم ؛ وذلك - كما شرحه الأستاذ الخطيب - أن التاء « من الحروف المتفجرة ، وإذا كانت مفتوحة اتسعت رقعة انفجارها .. فإذا وقع بعدها سكون كان هو القرار الذي يمسك هذا الدوي الحادث من التفجير (تل..تف .. تذ) ولا تجد في الكلام أوضح وأصدق من هذه الصورة التي التقطتها هذه الكلمات الثلاث للموقف المتأزم بين يعقوب وأبنائه . بعد أن فعلوا فعلتهم بيوسف ! » [٣] .

والجرس الصوتي في هذه الآية يصور أيضاً تلك المحاولات المتكررة التي يقوم بها هؤلاء الأبناء لثني أبيهم عن تذكر يوسف ؛ فإنك ترى هذه الصورة في تتابع صوت التاء وتكراره في هذه الآية سبع مرات ، وبخاصة في تكراره في الكلمات الثلاث الأولى أربع مرات : (تالله تفتأ تذكر) ؛ لأن تجدد الانتقال من التاء وإليها في هذا الحيز القليل من الجملة يصور تجدد تلك المحاولات منهم وتكرارها ، وكذلك الحال في

---

(١) إعجاز القرآن، ص ٢٧١ .

(٢) المصدرنفسه، ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٧٣ .

تكرار الحرف في الآية كلها سبع مرات ، كما يصور هذا التتابع ماعبر عنه أبناء يعقوب من تجدد تذكر أبيهم ليوسف واستمراره عليه ، ومعاودته له مرة بعد مرة ؛ ألا ترى كيف بدأوا في الجملة المعبرة عن ذلك بكلمة مفتتحة بالتاء : (تالله) ثم رجعوا إلى مخرج التاء في أول (تفتأ) ثم لم يلبثوا أن عادوا إليه في آخرها بعد الفاء الساكنة ، ثم كرروا ذلك في (تذكر) وفي الكلمات :(حتى - تكون -أوتكون) ؛ فهذه الصورة الصوتية تنقل المعنى الذي أريد في هذا السياق من جهة المتكلم والمخاطب معاً .

وثمة معنى آخر ينبيء عنه هذا التكرار المتتابع لصوت واحد ، وذلك أن فيه تعبيراً عن تضجر إخوة يوسف من دوام ذكر أبيهم ليوسف ، وهو مايحاولون إخفاءه منذ زمن ، وتضجرهم كذلك من عدم تحقق مايريدونه من إخفاء يوسف وإبعاده ، إذ لايزال أبوهم يعقوب عليه السلام على حبه ، بل ازداد تعلقه به ، وهذه الحركة النفسية تتوارى في الجرس الذي تمثله هذه الأصوات في تتابعها وتكرارها الذي وردت عليه ، في نغم يكاد ينطلق بتأففهم وضيقهم مما هو فيه من الإقامة على تذكر يوسف ، كما يصور شدة خوفهم من بقاء هذا التذكر ورغبتهم في أن ينتهوا عنه ، ولايخفى مافي تكرار صوت واحد - على النحو الذي جرى على لسانهم - من الإيحاء بالملل والتضجر المناسب لحال المقسمين .

وبهذا ندرك بعضاً مما أفاده هذا الجرس الصوتي الخاص في سياق هذا القسم ، وقيمته في تصوير بعض المعاني المتصلة به ، وعلى هذا فقد روعي في اختيار هذه الألفاظ المناسبة بين أصواتها ومعانيها ، بالإضافة إلى مناسبتها من جهةغرابتها في بابها للمعنى المراد إثباته في هذا القسم .

ومن جميع ماسبق اتضح وجه مجيء التأكيد القسمي في هذا الموضع ، ومناسبته لحال المخاطب والمتكلم ، ومناسبة صورته التي تجمع بين اسم الجلالة وتاء القسم للمقسم ، والمقسم له ، ومقام القسم ، وتلاؤم العناصر اللغوية المعبر بها فيه مع

الدلالات المرادة في هذا السياق ، من جهة اختيار الكلمات والأصوات المناسبة لها ، ولايزال في الآية مواضع نظر لمتأمل ولكن فيما ذكر مايشير إلى نهج يتبع وطريقة تحتذى لتحصيل مالم يذكر ·

الموضع الثالث :

قوله تعالى: ﴿ **قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين** ﴾ (١) .

هذا قسم محكي أيضاً عن إخوة يوسف عليه السلام ، ويأتي في سياق الجزء الأخير من قصة يوسف ، وهو ذلك الجزء الذي يبدأ بكيد يوسف لإخوته ليأخذ أخاه بنيامين عنده . ويرد القسم هنا من إخوة يوسف بعد أن انكشف أمر العزيز وعرفوا أنه يوسف عليه السلام ، وذلك حين ﴿ **قالوا أءنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين * قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين * قال لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين** ﴾ (٢) .

وواضح من الآيات أنهم وجهوا هذا الخطاب إلى أخيهم يوسف يقسمون له فيه على أن الله تعالى قد فضله عليهم ، وقد قال المفسرون إنهم أرادوا مافضله الله به عليهم من العلم والتقوى والملك والحلم والصبر والصفح وسيرة المحسنين ، وغير ذلك مما آثره الله به عليهم ، وقيل إن من ذلك النبوة، وهذا عند من لا يرى أنهم أنبياء أيضاً ، وفي نبوتهم خلاف (٣) . ويقسمون - بالإضافة إلى ذلك - على أنهم كانوا مذنبين في حقه .

وقد ورد في هذا الموضع بالإضافة إلى القسم باسم الجلالة - وهو أعظم القسم - التأكيد باللام وقد في قولهم : (لقد آثرك ...) ،وبإن المخففة من الثقيلة واسمية الجملة، ودخول اللام في خبرها في قولهم :(وإن كنا لخاطئين) ،والمؤكدات لاتتعاضد على هذا النحو إلا إذا كان الكلام في سياق إثبات قضية ينكرها المخاطب ، أو يلوح

---

(١) سورة يوسف ، الآية ٩١ .

(٢) سورة يوسف ، الآيات ٩٠ - ٩٢ .

(٣) انظر : تفسير الطبري (ط المعارف) ٢٤٥/١٦ ، وتفسير البغوي ٤٤٧/٢ ، والكشاف ٣٤٢/٢ ، وزاد المسير ٢٨٢/٤ ، والتفسير الكبير ٢٠٤/١٨ ، ٢٠٥ .

من حاله مايدعو إلى التأكيد وإن لم يكن منكراً لها ، والقضية التي يراد إثباتها هنا ليست مما يحتاج إلى تأكيده عند المخاطب ، لأن يوسف عليه السلام أعلم بما آتاه الله من فضل ، ثم هو أكثر علماً بالحكم بكونهم خاطئين ؛ فهو الذي تحمل تبعات ماصنعوا ، فما الغرض إذاً من هذا القسم ومن تلك المؤكدات التي احتشدت في هذا الخطاب ؟

إن التأمل يهدي إلى أن المؤكدات في هذا المقام لم ترد لتأكيد المقسم عليه للمخاطب ، بل لتأكيد ماتضمنه المقسم عليه من الاعتراف بالذنب ، والندم عليه ، والتوبة منه ، والاعتذار عنه ، والاستغفار وطلب الصفح والإحسان ، وقد ذكر المفسرون [١] أن هذه المعاني مستفادة من قولهم : (تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين) ، وهي معان تحركت في نفوس هؤلاء المقسمين في تلك اللحظة التي تجلى لهم فيها كثير مما آثر الله به يوسف عليهم ، وتجلى لهم فيها مقدار ما ارتكبوه من ذنوب ؛ فجاءت هذه المؤكدات معربة عن هذه المعاني، ومبينة عن عمقها في تلك النفوس .

وعلى هذا فإن لهذه المؤكدات قيمة في إيجاز الانفعالات النفسية ، والمشاعر المتوارية في صدور المتكلمين ؛ فهذه العناصر المؤكدة قائمة مقام التصريح بجمل متعددة تعبر كل منها عن واحد من تلك المعاني المضمرة في نفوسهم . كما أن لهذه المؤكدات قيمة في تصوير تلك المعاني كما هي في نفوس المتكلمين ؛ وذلك أنهم في هذا المقام قد أدركوا من إيثار الله تعالى ليوسف مالم يدركوه من قبل ، واستيقنته أنفسهم ؛ فجرى في كلامهم الإفصاح عنه في أقوى صور التأكيد، كما أيقنته نفوسهم ثم أقروا بكونهم مذنبين في صورة مؤكدة أيضاً؛ لأنهم لم يشعروا ببشاعة جرمهم من قبل كما شعروا بها في تلك اللحظة، ولم يستيقنوا خطأهم كما استيقنوه في ذلك الموقف ؛ فجاء الإفصاح عنه مصرحاً به في أقوى مظاهر التأكيد .

---

(١) انظر : تفسير القرطبي ٢٥٧/٩ ، والتسهيل لعلوم التنزيل ص ١٢٧ ، وتفسير أبي السعود ٣٠٤/٤.

وإذا كان الأمر كذلك ؛ فإن هذه المؤكدات المعدودة قد حققت في السياق صفة الإيجاز ، ولاتزال تحمل من المعاني ماهو جدير بالبحث والتأمل ، لما فيها من غنى تظل معه الكلمات والأدوات ذات تجدد مستمر، يجعل البلاغة حية لا تفتأ تنطق من استنطقها .

ونذكر على سبيل المثال معنى من تلك المعاني التي لاتزال ترد على المتأمل وتشغل عقله وقلبه ، وهو يتتبع تكاثر أساليب التوكيد في هذه الآية ، وذلك أن التأكيد هنا يشمل أمرين هما : إيثار الله تعالى ليوسف عليهم ، وكونهم خاطئين فيما سلف ؛ فتأكيد الأمر الأول فيه إظهار لمقدار الوضوح الذي كانت عليه قضية التفضيل ، ابتداء من اختصاص يوسف بزيادة محبة أبيه ، وانتهاء بما يشاهدونه مما أنعم الله به عليه من السلطان والعزة وكريم الخصال ، فهم يؤكدون لأنفسهم أن ذلك كان أمراً واضحاً يوجب على من تأمله أن يرعى حق صاحبه وأن يفعل غير مافعلوا ، ويؤكدون أيضاً أن هذا الأمر قد أصبح حقيقة ثابتة لايفيد الاعتراض عليها .

و « يمتد هذا الاعتراف ليشمل في شيء كبير من لوم الإخوة لأنفسهم وتأنيب ضمائرهم لهم ، الماضي البعيد جداً . وإن لسان حالهم ليقول : لقد كان الأولى بنا ونحن عصبة من الرجال ، يجب أن يعدل بعضنا بعضاً ، أن نفهم في اقتناع ، بأن محبة يعقوب والدنا الفائقة ليوسف بالذات ، قدر من الله تعالى عليه ، لايد له فيه ولا قدرة له على دفعه ، خاصة وأن أبانا ، فيما له قدرة عليه ، الغاية في العدل بيننا جميعاً .

إنها لزلة الأبد ، أن نتورط ، ونحن عصبة من الرجال ، في جعل غلام صغير في غيابة الجب ، إنه عمل مخز » [١] .

أما الأمر الثاني وهو اعترافهم الصريح بالخطأ في قولهم : (وإن كنا لخاطئين)

---

(١) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف عليه السلام ، لأستاذنا الدكتور حسن باجودة ، ص ٣٣٤ .

فإنهم أظهروه في صورة مؤكدة وجعلوه - بالإضافة إلى ذلك - جزءاً من المقسم عليه ، لبيان أن مافعلوه قد كان خطأً محضاً ليس فيه أدنى صواب ، وأنهم كان ينبغي أن يفطنوا إلى ذلك لأن الحكم بكونه ذنباً في غاية الظهور والوضوح بحيث يتيسر لكل أحد ، فكيف خفي ذلك عليهم ، وهم من هم في التحرز من مجرد الشبهة ؟ وكيف خفي عليهم جميعاً ولم يتنبه إليه منهم أحد ؟ بل كيف فعلوه على سبيل القصد والعمد ؟ وتناسباً مع هذا المعنى عبروا عن وقوعهم في هذا الأمر بكلمة (خاطئين) وهي من خطىء يخطأ إذا تعمد الخطأ وقصده ، ولم يقولوا (مخطئين) ؛ لأنها من أخطأ يخطىء إذا لم يتعمد الخطأ بمعنى أنه قصد الصواب ولم يتيسر له [1] .

كل ذلك، وغيره مما يطول تأمله ، مستفاد من تعاضد تلك المؤكدات في السياق ، واتحادها مع دلالة التوكيد القسمي .

ولا يخفى مافي الموقف القسمي في هذا الموضع من بواعث التعجب التي اتضح

---

(١) فرّق بين خطىء وأخطأ كثير من اللغويين والمفسرين على النحو الذي بينته هنا ؛ انظر على سبيل المثال : (إعراب القرآن للنحاس ٣٤٤/٢ ، وتفسير البغوي ٤٤٧/٢ ، ومفردات القرآن ص ٢١٦ ، ٢١٧ ، والتفسير الكبير ٢٠٥/١٨، وتفسير القرطبي ٢٥٧/٩) .

غير أن أبا عبيدة قد ذكر أنهما بمعنى واحد ، ولم أقف على ذلك عند غيره . (انظر : مجاز القرآن ٣١٨/١) .

ومما هو جدير بالتنبيه هنا أن بعض العلماء قد ذهب إلى أن مجيء (خاطئين) إنما كان لموافقة رأس الآية لما قبلها . (انظر : زاد المسير ٢٨٢/٤) .

وليس الأمر كما ذكر ؛ لأن ورود هذه الصيغة لم يكن لمجرد موافقة رؤوس الآيات ، بل لما فيها من معنى القصد والعمد ، وهو معنى يطلبه السياق ، فمجيء الكلمة على هذا النحو إنما كان مقتضى اقتضاه حرص المتكلمين على إظهار العمد في سياق التوبة والندم على ماصنعوا .

أما موافقة رؤوس الآي فأمر لجأ إليه كثير من القدماء والمحدثين لتفسير بعض وجوه التركيب التي تقتضي ورود الفاصلة على نسق خاص ، والأولى منه أن تتجه الجهود أولاً إلى تفسير بلاغة تلك التراكيب ذات الصلة بموضع الفاصلة ، ثم يشار إلى التوافق بين الوفاء بمتطلبات السياق والوفاء بوحدة الفاصلة ، بوصفه خاصية بارزة من خصائص هذا الكتاب العزيز .

لنا بعض منها في تفسير تواتر المؤكدات في هذا السياق ، وبسبب من ذلك جاءت التاء مع لفظ الجلالة في القسم ؛ فآزرت تلك الدلالات التي حركتها في السياق وسائل التأكيد المتعددة ، والتاء - كما سبق بيانه - يكون معها زيادة معنى بخلاف غيرها من أدوات القسم ، وغالباً مايكون هذا المعنى هو التعجب ؛ « قال الرماني : لأنها لما كانت نادرة في أدوات القسم جعلت للنادر من المعاني ، والنادر من المعاني يتعجب منه » [(١)] ، وكلما كانت المعاني المعبر عنها أبعد وأغرب كانت إلى التأكيد أحوج ، ولهذا يحسن في سياقها التأكيد القسمي الذي يفيد التعجب .

ويمكن أن نقف من السياق على كثير من المعاني النادرة التي ورد لأجلها القسم في صياغة تعجبية مؤكدة غاية التأكيد ؛ فبالإضافة إلى ماعرف من ذلك في بيان سر التأكيد القسمي وأغراض التأكيد المصاحب له ، فإننا نرى أن قول إخوة يوسف : (تالله لقد آثرك الله علينا) يشير - مع كونه اعترافاً له بالفضل - إلى قدر غير يسير من التعجب والاستغراب والاستبعاد في آن ؛ ففيه تعجب واستغراب من نجاته من ذلك الكيد الذي لا يكاد ينجو منه أحد ، وقد كانوا يستبعدون ذلك كل البعد .

وفي ذلك أيضاً تعجب واستغراب من الفرق الكبير بين ما كان متوقعاً في مثله وما صار إليه حاله ؛ وإنه لأمر عجيب وبعيد كل البعد أن ينجو من كان في عداد الهالكين ، ثم لا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل يتعداه إلى أن يكون عزيز مصر ، ثم ماذا ؟ ثم يكونون فيمن يسألونه ويتذللون بين يديه ، ثم ماذا ؟ ثم يهيمن عليهم بكيده المحكم ليأخذ أخاه في دين الملك ، ثم ماذا ؟ ثم يعودون إليه يستعطفونه ويستجدون عونه وعطيته ، أليس ذلك عجيباً في مثل قصتهم مع أخيهم يوسف ؟! .

وفيه أيضاً تعجب من عدم تنبههم إلى ما اختص الله به أخاهم يوسف ، وكأنهم يقولون : إن من العجيب والبعيد أننا - ونحن أبناء يعقوب نبي الله - لم نتنبه لما يختص الله به بعض عباده ؛ فنعتد به ، فلا نفعل ما فعلنا ! .

---

(١) نظم الدرر ١٠/١٧٠ . نقله عن الرماني ولم أجده في مظانه .

ومن ناحية أخرى فإن في المقسم عليه في قولهم : (وإن كنا لخاطئين) وجوهاً من التعجب والاستنكار لما صدر عنهم زمن جهلهم وطيشهم ، وكأنهم يقولون : إنه لأمر عجيب حقاً أن يوجد مثل هذا الصنيع المخزي ، أليس من الغريب والبعيد أن يترك إخوة أخاهم – وهو طفل صغير – في ذلك الجب معرضاً للهلاك والموت ؟! ألا يستغرب ذلك الخطأ الواضح لكل أحد ؟! فكيف به وقد وقع منا نحن أبناء يعقوب عليه السلام ، وكأنه لم يكن واضحاً جلياً ؟! وهذا معنىً غير ماسبق إثباته في تفسير تأكيد هذا الجزء من المقسم عليه ، وهو كمن يفعل سوءاً بجهالة ثم يندم عليه ويتوب منه ؛ فيظهر بعد ذلك تعجبه من حاله قبل أن يثوب إلى رشده ، ويدل على أنهم رجعوا إلى رشدهم بعد أن كانوا جاهلين قول الله تعالى حكاية عن يوسف قبل هذا القسم : ﴿ **قال هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون** ﴾ (١) .

وتأمل صلة مجيء القسم بالتاء في سياق الإيماء إلى نجاته من كيدهم ونجاحه في كيده إياهم ؛ فلهذا النسق من التعبير صلة بما في الكيد من الاحتياج إلى الحيل العجيبة والفكر النادرة ، وتجد في سياق هذا القسم الإشارة اللافتة إلى ذلك الكيد الذي نجا منه يوسف ، وإلى ذلك الكيد الذي استعمله يوسف في استبقاء أخيه عنده ، وانتصاره عليهم بذلك ، إذ قابل الكيد بكيد مثله . وقد مهدت الآيات في هذه السورة لمجيء كيد الإخوة لأخيهم في قوله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام : ﴿ **قال يابني لاتقصص رؤياك على إخوتك فيكيدو لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدو مبين** ﴾ (٢) ، وصرحت الآيات في هذه السورة أيضاً بأن فعل يوسف في أخذ أخيه إنما كان بضرب من الكيد ، قال تعالى : ﴿ **فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه ، كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله ، نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم**) (٣) .

---

(١) سورة يوسف ، الآية ٨٩ .

(٢) سورة يوسف ، الآية ٥ .

(٣) سورة يوسف ، الآية ٧٦ .

وواضح في الآية الثانية خاصة - آية وصف كيد يوسف - الربط بين هذا الكيد ومشيئة الله تعالى، وإيثاره لبعض خلقه ورفعه لمن يشاء درجات ، وذلك بعض ما أشار إليه الإخوة في قولهم : (تالله لقد آثرك الله علينا) ، فلما كان هذا الكيد مما تضمنه القسم بوصفه إيثاراً من الله تعالى ليوسف ، وكان مضمناً فيه أيضاً كونه رداً على الكيد السابق الحاصل من إخوته، وكان السياق كله متضمناً التصريح بالكيدين ، ثم التلميح بهما في صورة تفضيل أحدهما على الآخر ، ونسبة هذا التفضيل إلى الله تعالى ، وكان في كل منهما ماهو حقيق بأن يتعجب منه ، وفي سياق القسم مثل ذلك من المعاني النادرة ، لما كان جميع ذلك جاء القسم على النسق الذي هو عليه من استعمال تاء القسم ، والتعبير باسم الجلالة ، وبناء المقسم عليه على صورة التفضيل والاستعلاء : (تالله لقد آثرك الله علينا) ، وهذا وجه من وجوه النظر في بناء الأساليب حقيق بالتأمل ·

ونتوجه الآن إلى المقسم به الذي اختير في هذا القسم، وهو اسم الجلالة سبحانه ، لنقف على بعض خصوصيات القسم به في هذا السياق ، ومعلوم أن المؤمن لايقسم إلا بالله عز وجل ، ولكننا نبحث هنا عن خصوصية اختيار هذا الاسم الكريم من بين أسمائه تعالى التي كان يمكن أن يقسموا بواحد منها دون أن يقعوا في المحظور ·

وبالتأمل في هذا الموضع نجد أن اسم الجلالة أنسب شيء للمقسم عليه ؛ وذلك أنهم أقسموا على أن الله تعالى قد فضل يوسف عليهم ، ونسبوا هذا الفضل إلى الله عز وجل ، فلما أقسموا على أمر هو مما اختص الله به ، وأثبتوا فضلاً لأخيهم لايهبه إلا الله تعالى،ناسب أن يقسموا بالاسم الذي يختص به سبحانه ولا يطلق على غيره ؛ اعتناء بإخلاص نسبة المقسم عليه إليه سبحانه ، ولهذا تكرر ذكر هذا الاسم الكريم في سياق هذا القسم مرتين ، وهو مما زاد الصلة بين عنصري القسم ·

ومن ناحية أخرى فإن هذا الاسم الكريم يتضمن الدلالة على التوحيد والتفرد في الصفات ، فجاء القسم به مشيراً إلى تفرد يوسف عليه السلام واختصاصه من بينهم

بهذا الفضل ، فلا يشاركه فيه أحد ، وكأنهم يقولون : لقد تفردت بهذا الأمر كما أن الله واحد متفرد بالألوهية وصفات الكمال ، فأنت في هذا الفضل واحد بلا منازع ٠

ونضيف إلى ماسبق أن إخوة يوسف لم يكن يتهيأ لهم أن يقسموا في هذا المقام، وقد رأوا برهان ذلك التفضيل والإيثار ، إلا بالاسم المختص به تعالى ٠

فذكر اسم الجلالة في هذا السياق إذاً يوطىء لما في المقسم عليه من أمور ذات علاقة بمعاني هذا الاسم العظيم ، على اختلاف وجوه العلاقة بين هذه الأمور وتلك المعاني المتحققة بذكر هذا الاسم من أسمائه سبحانه ٠

وبهذا نكون قد وقفنا فيما سبق على الغرض من ورود القسم واشتمال المقسم عليه على قدر كبير من المؤكدات ، وقيمة هذه المؤكدات في تصوير المعاني التي تضمنها الكلام، وفي الإفصاح عن الانفعالات النفسية والمشاعر المتوارية في السياق ، ودقة اختيار عناصر القسم : ابتداء بالأداة المختارة وهي التاء ، والمقسم به ، ومناسبة ذلك كله لموضوع القسم المراد إثباته وتأكيده به ، وانتهاءً بالنسق الخاص الذي ورد عليه المقسم عليه المؤكد بهذا القسم ٠

الموضع الرابع :

قوله تعالى : ﴿ **قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم** ﴾ [١] .

الذين قالوا هذا القول هم « الذين قال لهم يعقوب من ولده : ﴿... **إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون** ﴾ [٢] » [٣] . وقيل: إن الذين قالوا له هذا القول هم بنو بنيه؛ لأن بنيه كانوا بمصر [٤]. والأقرب كونه من مقول إخوة يوسف عليه السلام ؛ فهم مهيؤون لمثل هذا القول كما هو واضح من سياق القصة وترتب أحداثها بعضها على بعض ، ثم إن أحفاد يعقوب عليه السلام - بالإضافة إلى كونهم بعيدين كل البعد عن أن يصدر عنهم مثل هذا القول - لم يرد ذكرهم في القصة كلها ، ولم يتعلق شيء من أحداثها بهم .

وهم يقسمون هنا لأبيهم على أنه في زلله وخطئه القديم وذهابه عن الصواب في محبته ليوسف وذكره له لا ينساه ولا يتسلى عنه [٥] : (إنك لفي ضلالك القديم) . « وفي معنى هذا الضلال ثلاثة أقوال : أحدها : أنه بمعنى الخطأ ... والثاني : أنه الجنون ... والثالث : أنه الشقاء والعناء » [٦] .

وهذه حقيقة عندهم ؛ فهم يرون أن هذا الضرب من الحب والذكر الذي يبلغ مبلغاً يجعله يقول : (...إني لأجد ريح يوسف) - في ضوء مايعلمونه من مصير

---

(١) سورة يوسف ، الآية ٩٥ .

(٢) سورة يوسف ، الآية ٩٤ .

(٣) تفسير الطبري (ط المعارف) ٢٥٦/١٦ . وانظر : تفسير ابن كثير ٤٩٠/٢ ، والبحر المحيط ٣٤٥/٥ .

(٤) انظر : زاد المسير ٢٨٥/٤ .

(٥) انظر : تفسير الطبري (ط المعارف) ٢٥٦/١٦ ، ٢٥٧ ، وتفسير البغوي ٤٤٨/٢ ، والكشاف ٣٤٣/٢ ، وتفسير ابن كثير ٤٩٠/٢ ، والبحر المحيط ٣٤٥/٥ .

(٦) زاد المسير ٢٨٥/٤ ، ٢٨٦ .

يوسف - (١) ماهو إلا ضلال من جنس ذلك الضلال الذي كان فيه منذ القدم ، أي منذ أن (مات يوسف) - كما هو في ظنهم - إلى أن قال لهم هذا القول .

ولقد بلغ هذا الأمر من نفوسهم حداً وطأ لمجيء هذا الخطاب على لسانهم مشتملاً على كثير من ضروب التأكيد والتوثيق والمبالغة في إثباته ، وقد تمثل ذلك في كونهم يقسمون عليه أولاً ، ثم في إظهارهم المقسم عليه في صورة مؤكدة بإن وفي خبرها اللام ، ثم في جعل الضلال متلبساً به فهو (فيه) : (إنك لفي ضلالك) على سبيل الاستعارة التبعية ، ثم في إضافة هذا الضلال إليه في قولهم : (ضلالك) تعبيراً عن كونه ضلالاً خاصاً به ، لا نظير له ، ولا مزيد عليه ، فهو له وحده لا ينافسه فيه منافس ، ومبالغة في إلصاق هذا الحكم به ، ثم ذكروا مايشير إلى كونه عريقاً في هذا الأمر فهو فيه راسخ منذ زمن بعيد ، وذلك وصفهم للضلال بالقدم .

فهذه المؤكدات تصور ما وقر في نفوس هؤلاء الإخوة منذ زمن طويل ، وما استشعرته أنفسهم من اليقين بما أصبح عندهم حقيقة راسخة لاتقبل الشك ، بعد أن سمعوا مقالة أبيهم الأخيرة ؛ وكأنهم يقولون : لقد كنا نعد حبك ليوسف وتفضيلك إياه وأخاه علينا ضلالاً مبيناً يوم أن قلنا : ﴿... **ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين** ﴾ (٢) ثم رأينا مثل ذلك عند تذكرك ليوسف واستمرار ذلك منك بعد فقده ، وذلك يوم أن قلنا : ﴿ **تالله تفتأ تذكر يوسف...** ﴾(٣) ، ولكننا اليوم قد تأكدنا - بعد أن سمعنا مقالتك - بما لايدع مجالاً للشك أنك لاتزال في ضلالك القديم .

ومن هذا يتضح أنهم لم يؤكدوا هذا الخبر لكونه مما يحتاج إلى ذلك عند المخاطب

---

(١) قال البغوي (في تفسيره ٤٤٨/٢): « فإن عندهم أن يوسف قد مات ويرون يعقوب قد لهج بذكره » .
ومثله في الكشاف ٣٤٣/٢ .

(٢) سورة يوسف ، الآية ٨ .

(٣) سورة يوسف ، الآية ٨٥ .

بل أكدوه احتفالاً به، وتبياناً لمكانه من نفوسهم، وإظهاراً لمقدار رسوخه عندهم ؛ فجريان هذا الأمر على لسانهم مؤكداً بكل تلك المؤكدات يحكي ماوقع في أنفسهم من اليقين المطلق بضلاله وذهابه عن الصواب .

ويأتي هذا التأكيد -في الوقت نفسه- مقابلاً للتأكيد الذي جاء في كلام يعقوب عليه السلام لهم ؛ فقد ذكر لهم أنه يجد ريح يوسف - في صورة مؤكدة : (.. إني لأجد ريح يوسف) ، فما كان منهم - لما يعلمونه من أمر يوسف - إلا أن أكدوا أنه لايزال في ضلاله القديم ، وأن هذا الأمر قد أصبح - بما جرى على لسانه من تأكيد كونه يجد ريح يوسف - من الظهور بحيث يستأهل أن يصرح به في صورة مؤكدة بما هو الغاية في التأكيد .

ولهذه المؤكدات معنى آخر يعتمد فهمه على المواقف السابقة التي كانت للمتكلمين مع أبيهم، والتي كانوا يلومونه فيها على ذهابه في الحزن كل مذهب ، فمجيء هذه المؤكدات بعد الموقف الأخير يؤكد إصرار يعقوب عليه السلام على موقفه من فقد يوسف ، وشدة تمسكه بالأمل في لقائه ، وهو مايسمونه ضلالاً .

ولمجيء هذه التأكيدات في السياق - بالإضافة إلى ماسبق - ضرورة اقتضاها مافي الأمر المتحدث عنه من وجوه الغرابة ؛ فإن هذا الموقف من يعقوب عليه السلام ، باعتبار ماعند المتكلمين من العلم بمصير يوسف ، إن هذا الموقف غريب وعجيب ، وقلما يقع على هذا النحو الذي وقع من أبيهم ، ولما كان الأمر كذلك احتاج إلى مزيد من عناصر التوكيد والتحقيق لإثبات أنه ليس إلا ضلالاً من جنس ما كان منه قديماً .

وتلاؤماً مع مافي الأمر المقسم عليه وماتحته من وجوه الغرابة والندرة جاءت التاء في عناصر هذا القسم .

وأول مايلتفت إليه من ذلك هو أن كون يعقوب عليه السلام يجد ريح يوسف من بعد - غريب عند كل أحد ، باعتبار أن الذي يتابع أحداث هذه القصة قد علم من سياقها السابق أن يوسف على قيد الحياة ؛ والوجه المستغرب عند من يعلم ذلك هو

وجدانه ريح قميص يوسف على الرغم من عدم علمه بحياته ، وعلى الرغم من المسافة الكبيرة التي تفصله عنه .

وإذا كان هذا الأمر غريباً مستبعداً عند من علم بحياة يوسف ومكانه ، فهو عند من تيقن موته – وهم إخوة يوسف – أغرب وأبعد وأعجب ، وذلك أن الحواجز بين يعقوب وابنه يوسف عند هؤلاء ليست حواجز مكانية أو زمانيه فحسب ، بل ثمة حاجز آخر أكبر وأعظم من أن يصدر منه مثل ذلك القول ؛ إنه الفرق بين عالم الأحياء وعالم الأموات .

ويكشف السياق لمن تأمله عن عنصر المفاجأة في موقف يعقوب عليه السلام ، وذلك أنهم يتوقعون في مثل حاله أن ينتهي عما هو عليه من ذكر يوسف وإهلاك نفسه من الحزن عليه، أو أن يخفف من ذلك على أقل تقدير ؛ فإذا هم يفاجأون بقوله : (.. إني لأجد ريح يوسف ..) ، وهو عكس ماتوقعوه منه ، وهو مناقض لما يريدونه منه أيضاً ؛ فإنهم يتمنون ألا يرد اسم يوسف على لسانه ، فإذا هو يصرح به في جملة واثقة بأنه حي يرزق بل إنه متجه إليهم [١]. فلما كان هذا الموقف مفاجئاً لهم ، وكانت الأمور المفاجئة مستغربة نادرة الحدوث عند من ينتظر خلافها ؛ لما كان ذلك كذلك جاءت في قسمهم التاء لما لها من اختصاص بالمعاني النادرة الغريبة .

ولا يخفى ما في استعمال التاء في القسم الذي جرى على لسانهم من التعبير عن ذلك الموقف الذي خرج بأبيهم من القدر المعقول والمألوف من المحبة والتذكر للأحباب ، إلى ضرب من الهيام غريب ، قد بلغ حداً وصفوه معه بالضلال والبعد عن الصواب ، فليس له فيما يعرف الناس نظير ، فهو حب نادر خارج عن المألوف والمعروف .

ومن خصوصيات تاء القسم هنا وقوعها في صدر الكلام الذي عبر به الأبناء عن

---

(١) أشار إلى هذا المعنى أستاذنا الدكتور حسن باجودة في تعليقه على هذا الموقف ، انظر : الوحدة الموضوعية في سورة يوسف عليه السلام ص ٣٣٩ ، ٣٤١ .

تضجرهم من هذا الموقف من أبيهم [١] ، وغضبهم من استمراره على ضلاله القديم ، وغيظهم مما تضمنه هذا الموقف من إظهار شدة تمسكه بحبه القديم ليوسف ، وقوة أمله في رجوعه ؛ فصدور ذلك القول من أبيهم قد أثار في نفوسهم انفعالات متعددة ، وكانت الجملة المعبرة عن هذه الانفعالات هي قولهم : (تالله إنك لفي ضلالك القديم) . وهذا يؤكد ماسبقت الإشارة إليه من أن للتاء موقعاً في المواقف المعبرة عن حركة النفوس واضطرابها ، وأن دلالتها في القسم غير مقصورة على معنى التعجب .

ومبالغة من هؤلاء المقسمين في تأكيد المقسم عليه - بما تضمنه من التعبير عن المعاني الغريبة المستبعدة والانفعالات النفسية المصاحبة له - أقسموا بأقوى مايقسم به ؛ فجاء القسم باسم الجلالة سبحانه .

وبالإضافة إلى كون هذا المقسم به يلائم الأمر المقسم عليه لما فيه من قوة التأكيد؛ فإنه يلائم السياق الذي عبر فيه عن معان متفردة في خصائصها ؛ فليعقوب عليه السلام ضلال خاص لايشاركه فيه أحد ، وهو الحكم الناشىء عن ذلك الحب النادر الذي لايعرف له نظير ، فجاء القسم باسم الله تعالى الذي يختص سبحانه ولا يطلق على غيره ملائماً لهذا المعنى الذي أشار إليه المقسم عليه .

وللمقسم عليه علاقة بالقسم باسم الجلالة من جهة أنهم يقسمون على ماعرفوه من يعقوب من ذكر يوسف وهو ماوصفوه بالضلال القديم ، فكأن ذلك قد استقر في نفوسهم بوصفه دأبه وطريقته منذ زمن طويل ، وفي هذا تأنيب على الإقامة على حال واحدة ، وذلك يتضمن الدعوة إلى ترك هذا الأمر الذي دأب عليه زمناً طويلاً ، وكأن في قسمهم باسم الجلالة الدال على الوحدانية إلماحاً إلى ذلك النهج الواحد الذي لم يتغير منه تجاه يوسف .

---

(١) ذكر بعض المفسرين أنهم بصدور هذا القول عنهم قد قالوا لوالدهم كلمة غليظة ما كان ينبغي أن يقولوها لوالدهم ، ولا لنبي من أنبياء الله تعالى ، وفيها من الجفاء مالايسوغ لهم مخاطبته به .

انظر : تفسير الطبري (ط المعارف) ٢٥٧/١٦ ، والبحر المحيط ٣٤٥/٥ ، وتفسير ابن كثير ٤٩٠/٢ .

وفي القسم بهذا الاسم الكريم أيضاً - بما فيه من معنى التفرد - تعريض بما كان من يعقوب عليه السلام في الزمن الماضي والحاضر من تفضيل ليوسف في المحبة ، وكيف أنه خصه وأخاه - وهم عصبة متعددون - بذلك الحب النادر ، وكيف أن هذا هو دأبه الذي لايمكن أن يتبدل .

وبهذا يعلم أن لاختيار كل عنصر من عناصر التركيب في هذا القسم خصوصية جيء به من أجلها ؛ فتلك المؤكدات التي اشتمل عليها التركيب ابتداءً من القسم ، وانتهاءً بما في جملة المقسم عليه من عناصر التوكيد ، وما في الجملة من الأساليب المعبرة عن المبالغة في إثبات الأمر المقسم عليه ، كل ذلك جاء معبراً عن عدد من المعاني وملائماً للسياق والمقام . واختيرت عناصر القسم كذلك لتفي بمقتضيات الأحوال في هذا السياق ، فالتاء في جملة القسم معبرة عن كثير من وجوه الغرابة والاستبعاد ، ودالة على كثير من الانفعالات المتوارية في جملة القسم . واختير المقسم به ليلائم المقسم عليه ويؤكده بما يربط بينهما من علاقات متعددة ، وليناسب كثيراً من المعاني التي سرت في السياق القسمي .

التناسب بين المواضع الأربعة السابقة وعلاقتها بسياق سورة يوسف :

اجتمعت في سورة يوسف عليه السلام أربعة مواضع من مواضع القسم في القرآن الكريم ، وقد جاء القسم في كل منها باسم الجلالة مع التاء : (تالله) ؛ فاتحدت صورة المقسم به في جميع هذه المواضع ، وقد سبق بيان وجه مناسبة هذه الصورة المقسم بها للمواضع التي وردت فيها ، سواء كان ذلك في علاقتها بالمقسم عليه، أو السياق، أو المقام ، أو المخاطب بالقسم ، أو جميع ذلك ، ووقفنا من ذلك على دقة اختيار عناصر القسم في كل موضع ومناسبتها لمقتضيات الأحوال فيه .

وورود عدة أقسام ذات نسق واحد واجتماعها في سورة واحدة يلفت المتأمل إلى ضرورة تتبع ما لهذه المواضع من علاقة بالسورة التي وردت فيها ، وإلى محاولة الوقوف على بعض خصوصيات هذا الاتفاق .

وأول ماهدى إليه التأمل من ذلك هو أن هذه السورة قد أخلصت جل آياتها لحكاية قصة يوسف عليه السلام ، وهي من القصص العجيبة التي اشتملت على كثير من الأحداث النادرة ، وامتلأت بكثير من المواقف الغريبة ، وشاع فيها الانفعال النفسي من كثير من شخوصها في مواقف متعددة ؛ وقد تتبعت السورة ووقفت على أكثر ذلك ، ويمكن إيجازه فيما يلي :

- الرؤيا العجيبة التي يراها يوسف في أول السورة [الآية ٤] .
- تخوف أبيه من كيد إخوته له . [الآية ٥] .
- غيرة إخوة يوسف من أخويهم يوسف وبنيامين [٨]
- وصف محبة أبيهم لهما بالضلال المبين . [٨] .
- التآمر على الكيد لأخيهم يوسف وتباين مواقفهم في ذلك [٨ ، ١٠] .
- الاتفاق على إلقائه في غيابة الجب ، وتوقعهم لالتقاط السيارة له [١٠] .
- احتيالهم في أخذ أخيهم معهم . [١١ ، ١٢] .

- إظهار يعقوب لحزنه على أخذهم يوسف ، وتعليله ذلك بخوفه من أن يأكله الذئب ، وهو ما كان بعد ذلك [١٣] .
- إظهارهم لما يدفع خوفه ، وهو كونهم عصبة ، مع تبييت خلاف ذلك [١٤] .
- إقدامهم على ترك أخيهم - وهو غلام صغير - في غيابة الجب [١٥] .
- إيحاء الله تعالى ليوسف وقت أن كادوا له بأنه سينبئهم بأمرهم هذا وهم لايشعرون وهو الذي كان بعد ذلك [١٥] .
- ادعاء إخوة يوسف بأن الذئب قد أكله، وهو ادعاء غريب في ضوء تخوف أبيهم منه قبل ذلك [١٦ ، ١٧] .
- احتيالهم في وضع دم كذب على قميص يوسف [١٨] .
- التقاط السيارة ليوسف وطمعهم في بيعه وزهدهم فيه ، وهو من هو في حاضره ، ومن سيتولى أمر مصر في مستقبله [٢٠] .
- دخوله إلى بيت العزيز ومالذلك من علاقة بتمكين الله تعالى ليوسف في الأرض [٢١] .
- قصة يوسف مع امرأة العزيز وما فيها من صبره العجيب على هذا الابتلاء ، وما فيها من كيدها وكيد نسوة المدينة [٢٣ - ٣٤] .
- دخول يوسف السجن ، وما فيه من رؤيا صاحبيه ، وتأويل يوسف العجيب لذلك [٣٥ - ٤١] .
- نسيان الذي نجا منهما لوصية يوسف ، وتمهيد ذلك لتفسير رؤيا الملك [٤٢] .
- رؤيا الملك العجيبة ، وتأويل يوسف لها ، وارتباط ذلك ببراءته وتمكينه في مصر [٤٣ - ٥٧] .
- مجيء أخوة يوسف إلى مصر ومعرفته لهم وهم له منكرون [٥٨] .
- احتيال يوسف لجلب أخيه إلى مصر [٥٩ ، ٦٢] .

- طلب الإخوة من أبيهم أن يرسل بنيامين [٦٣] .
- خوف يعقوب من ذلك وتذكره لما كان من أمر يوسف [٦٤] .
- دهشة الإخوة ووقوعهم في إغراء يوسف بجلب أخيهم معهم [٦٥] .
- شدة تخوف يعقوب من إرسال بنيامين معهم واحتياطه بأخذ المثياق منهم [٦٦].
- خوف يعقوب على أبنائه من الحسد [٦٧] .
- كيد يوسف لاستبقاء أخيه عنده، وما صاحبه من وقوع الإخوة في المحظور ودهشتهم واستغرابهم طيلة هذا الموقف [٦٩ - ٧٩] .
- اضطراب الأخ الأكبر، وحرجه من أبيه، وامتناعه عن العودة مع أخوته [٨٠] .
- رجوع الأبناء إلى يعقوب، وإبلاغه بما آل إليه أمر بنيامين ، وحزنه الشديد على ذلك [٨١ - ٨٣] .
- إظهار يعقوب لحزنه على يوسف في وقت كانوا يتوقعون فيه أن يحزن على بنيامين أو على الأخ الأكبر [٨٤] .
- تعجبهم من ذلك، وقسمهم على غرابته [٨٥] .
- تفويض يعقوب أمره إلى الله، وصبره النادر على اجتماع المصائب عليه [٨٦] .
- أمله العجيب في عودة يوسف، وأمره لبنيه بالبحث عنه وعن أخيه [٨٧] .
- امتثال الإخوة لأمر أبيهم، وعودتهم إلى مصر ، وما كان ينتظرهم من المفاجآت فيها وأهم ذلك معرفتهم أن العزيز هو يوسف [٨٨ - ٩٠]
- استجابتهم للمفاجأة بالاعتراف بالذنب، والتعريض بطلب الصفح، وقسمهم المتضمن وجوهاً من التعجب [٩١] .
- سرعة صفح يوسف عنهم ، واستغفاره لهم ، وغرابة ذلك بالنسبة إلى مابدر منهم [٩٢] .

- إخبار يعقوب لأبنائه بأنه يجد ريح يوسف واستغرابهم وتعجبهم من ذلك [٩٤ ، ٩٥] .
- معجزة القميص الذي أرسله يوسف ، وارتداد يعقوب به بصيراً [٩٣ ، ٩٦] .
- استغفار يعقوب لبنيه على الرغم مما كان منهم [٩٧] .
- تحقق رؤيا يوسف التي رآها في أول القصة [٩٨ - ١٠٠] .
- تعجيب الرسول ﷺ لما يوحيه الله تعالى من أنباء الغيب [١٠٢] .
- التعجب من عدم إيمان أكثر الناس مع ماعندهم من الدلائل والآيات ، ومن وقوعهم في الشرك ، وعدم اعتبارهم بعاقبة الأمم السابقة ، ومن نصر الله تعالى لرسله ، وكون ذلك كله عبرة لهم ، وآية على صدق هذا الكتاب وكونه وحياً من الله تعالى [١٠٣ - ١١١] .

ومن أبرز مايوضح اشتمال هذه السورة على مايبعث على التعجب والاستغراب والدهشة والانفعال النفسي ، ويعرب عن اشتمالها على المعاني النادرة - مجيء قصص الكيد والمكر في مواضع متعددة منها ، ولعل أوضح مثال ظاهر على ذلك تكرر لفظ الكيد ومشتقاته في السورة تسع مرات في سبع آيات منها (١) . وتكرار هذا اللفظ - على هذا النحو - يشير إلى ما لموضوع السورة ونمط الأحداث التي

---

(١) ورد ذلك في الآيات :

- (قال يابني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً...) الآية ٥ .
- (... قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم) الآية ٢٨ .
- (... وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن ...) الآية ٣٣ .
- (فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ...) الآية ٣٤ .
- (... إن ربي بكيدهن عليم) الآية ٥٠ .
- (... وأن الله لا يهدي كيد الخائنين) الآية ٥٢ .
- (كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه ...) الآية ٧٦ .

حوتها من تأثير في اللغة والصيغ المعبر بها في السورة على وجه الإجمال ، واتساق أجزائها من هذا الوجه .

ولما كانت السورة على هذا النحو في اشتمالها على كثير من هذه المواقف - كما ترى - لما كان ذلك كذلك جاءت هذه المواضع القسمية الأربعة مشتملة على القسم بصيغة (تالله) ، وهي الصيغة المختصة بالتعبير عن مثل تلك الأحداث والمواقف الغريبة والنادرة ، وهي التي تطوي في سياقها جملة من انفعالات النفس ومشاعرها ، أي أن القصة - بما فيها من تلك المعاني والأحداث والانفعالات المبسوطة آنفاً - اقتضت تكرر هذه الصيغة القسمية فيها أربع مرات ، وهذا ضرب من التناسب الدقيق بين أجزاء السورة كلها ، وانتظامها في نسق من القول سمته الغرابة والتعجب وإثارة الانفعالات المتعددة .

ليس هذا فحسب ؛ بل إن هذه المواضع الأربعة قد وقعت في الجزء المثير من هذه القصة ، وهو ذلك الجزء الذي يبدأ باختفاء بنيامين ، والذي يشتمل على أكثر تلك المعاني والأحداث غرابة وندرة ، وأشدها انفعالاً ، فكان هذا الموقع من سياق القصة أنسب لظهور هذه الصيغة القسمية وتكرارها ، لاسيما إذا كان هذا الجزء هو قمة التأزم في القصة ، وهو موطن الإثارة فيها ، وهو في الوقت نفسه بداية الحل .

ولاجتماع هذه المواضع القسمية في هذا الجزء الخاص من القصة واتحاد صورة المقسم به فيها - علاقة بالمقسم الذي صدر منه القسم ، فهذه المواضع الأربعة - على الرأى الراجح - صادرة من إخوة يوسف عليه السلام ، وقد كانوا في هذا الجزء من القصة - على وجه الخصوص - في مواقف اضطربت فيها نفوسهم ، وتحركت فيها مشاعر التعجب والاستغراب والقلق والندم والتحسر ، وغير ذلك من الانفعالات ؛ فاتحدت صيغة القسم في المواضع الأربعة لاتحاد مصدرها ، واتفاق سياقاتها في الاقتران بمواقف متشابهة في آثارها وانفعالاتها .

وهذه النفوس المضطربة المنفعلة ظهرت جلية في أساليب خطاب أصحابها ؛ فجاء

القسم الذي صدر منهم في المواضع الأربعة باسم الجلالة مع التاء (تالله) ، بوصفه صورة حية لحركة تلك النفوس .

أما مجيء القسم باسم الجلالة في المواضع الأربعة ؛ فيناسب ماعرضت له السورة من إثبات عقيدة التوحيد ، في مواقع متفرقة منها ؛ فقد ورد ذلك فيما جاء حكاية عن يوسف وهو في السجن [١] ، وما ورد كذلك بوصفه تعقيباً على قصة يوسف عليه السلام، متضمناً دعوة كفار مكة إلى الإيمان بالله الواحد الأحد [٢] . فالقسم باسم الجلالة الذي يختص بإطلاقه على الحق سبحانه ، وشيوعه في السورة ، ملائم لما جاء من إثبات الوحدانية فيها ، وهو تلاؤم سبقت الإشارة إلى نظائره في هذا النوع من القسم في القرآن الكريم .

ولا يقف الأمر هنا عند هذا الحد ؛ بل يأتي القسم باسم الجلالة مقترناً بالتاء ؛ ليناسب أيضاً الأسلوب الخاص الذي عرضت به قضية التوحيد في هذه السورة ؛ فإن المتتبع للآيات التي اختصت ببسط تلك القضية - يجدها قد اشتملت على كثير من الأساليب الدالة على التعجب، ومن ذلك ماجاء حكاية عن يوسف -وهو في السجن- من إثبات هذه القضية لصاحبيه ؛ فقد جاء فيه قوله : (ياصاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) [٣] ؟! وهو قول يظهر فيه ما بني عليه خطابه لهما من عرض القضية في إطار تعجبي ؛ فقد عرض قضية التوحيد في إطار التعجب من اتخاذ الشركاء . ثم انظر إلى ما جاء من ذلك في نهاية السورة تعقيباً على القصة ، وما شاع فيه من أساليب التعجب والاستغراب التي ظهر أكثرها في صورة الاستفهام [٤] .

---

(١) انظر الآيات : ٣٧ - ٤٠ .

(٢) انظر الآيات : ١٠٣ - ١١١ .

(٣) الآية ٣٩ .

(٤) اقرأ الآيات : ١٠٣ - ١١١ .

فلما كانت السورة تجري على هذا النحو التعجبي في عرضها لقضية التوحيد ؛ جاء المقسم به مشتملاً على مايناسب إثبات هذه القضية من جهة ، وهو اسم الجلالة ، وما يناسب الأسلوب الذي عرضت فيه من جهة أخرى ، وهو ماتفيده التاء من معنى التعجب ؛ فجاءت صورة المقسم به متفقة - من جميع جوانبها - مع أخص خصائص السورة في عرضها لما اشتملت عليه من هذه القضية ·

وقد ظهر لنا مما سبق وجوه متعددة تفسر اجتماع أربعة مواضع من القسم باسم الجلالة مع التاء - في سورة يوسف عليه السلام ·

وتبين لنا من جميع ماتقدم في هذا المبحث - على وجه الإجمال - التناسب الدقيق لعناصر القسم في تلك المواضع مع سياقاتها ، ومواقعها ، ومقتضيات أحوالها ، ثم التناسب مع السياق الخاص الذي وردت فيه من قصة يوسف ، ثم التناسب الدقيق مع موضوعات السورة ومعانيها النادرة والغريبة التي تشيع فيها ، واتساقها مع التراكيب والأساليب اللغوية التي تغلب على السياق العام للسورة ·

ومن نافلة القول أن نقرر أن الوفاء بجميع هذه الوجوه والعلاقات في عناصر القسم أمر لايمكن أن يتحقق إلا في كتاب الله الواحد الحكيم ، وأن هذا المبحث - وإن فسر كثيراً من تلك العلاقات والوجوه التي تؤلف بين المعاني والأساليب - يترك مما يجول في الخاطر أكثر مما تم إثباته هنا ، وذلك - دون شك - دلالة صادقة على أن هذا الكتاب الحكيم لا تنقضي عجائبه ·

ثالثاً- القسم بـ(تالله) في سياق قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه

الموضع الأول : قسم إبراهيم عليه السلام لقومه في سياق دعوتهم إلى التوحيد :

قوله تعالى : ﴿ **وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين** ﴾ (١) ، جاء هذا القسم حكاية عن إبراهيم عليه السلام ، في سياق دعوته لقومه إلى عبادة الله وحده وترك ماهم عليه من الشرك ، وذلك فيما ورد من قصته مع قومه في سورة الأنبياء ﴿ **إذ قال لأبيه وقومه ماهذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون * قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين * قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين * قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين * قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهنّ وأنا على ذلكم من الشاهدين * وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين** ﴾ (٢).

وقد ذكر المفسرون (٣) أن إبراهيم عليه السلام أقسم بهذا القسم في سرٍ من قومه ولم يسمعه منهم إلا الذي أفشاه عليه ، وهو ما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ **قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم** ﴾ (٤). وقيل إنه أقسم بذلك يوم أن « قال له أبوه : يا إبراهيم إن لنا عيداً لو قد خرجت معنا إليه قد أعجبك ديننا ، فلما كان يوم العيد فخرجوا إليه خرج معهم إبراهيم ، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه وقال: إني سقيم ، يقول اشتكي رجلي ... فلما مضوا نادى في آخرهم وقد بقي ضعفى الناس : تالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ، فسمعوها منه » (٥) .

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٥٧ .

(٢) الآيات ٥٢ - ٥٧ ، وانظر الآيات ٥٨ - ٧٠ .

(٣) انظر : تفسير الطبري ٢٨/١٧ ، وتفسير البغوي ٢٤٧/٣ ، والقرطبي ٢٩٧/١١ .

(٤) سورة الأنبياء ، الآية ٦٠ .

(٥) انظر : تفسير الطبري ٢٨/١٧ ، ٢٩ ، وتفسير البغوي ٢٤٨/٣ ، وزاد المسير ٣٥٧/٥ ، وتفسير ابن كثير ١٨٢/٣ .

و « الظاهر أن هذه الجملة خاطب بها أباه وقومه وأنها مندرجة تحت القول من قوله : ﴿ قال بل ربكم... ﴾(١) » (٢) وهو رأي أبي حيان، ويؤيده مجيء الواو في قوله : (وتالله ...) عاطفةً هذه الجملة على القول السابق عليها ؛ فمجيء الواو في صدر آية القسم يشير إلى كون القسم مما قاله إبراهيم لأبيه وقومه ، وهو أولى بالمقام لأنه مقام دعوة إلى الله تعالى ، ولأن القسم جزء هام من الحجة لتضمنه البرهان العملي على بطلان مايعبدون . وهذا لايمنع أن يكون قد قال ذلك في سر من بعضهم فلم يسمعوه فقال الذين سمعوه : (... سمعنا فتى يذكرهم...) الآية .

والمقسم به هنا هو اسم الله تعالى مقترناً بالتاء : (تالله) ، والمقسم عليه هو قوله : (لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين) .

وفي التعبير بالكيد للأصنام في المقسم عليه أسرار ذكرها بعض المفسرين ؛ فمنها أن الكيد « وهو الاحتيال على الغير في ضرر لايشعر به لا يتأتى في الأصنام » (٣) وإنما عبر عن فعله بالكيد - كما يقول الرازي - « توسعاً ؛ لما كان عندهم أن الضرر يجوز عليها ، وقيل المراد لأكيدنكم في أصنامكم ، لأنه بذلك الفعل قد أنزل بهم الغم » (٤) .

ويرى بعض المفسرين أن معنى (لأكيدن) : لأجتهدن في كسرها ، وأن « أصل الكيد الاحتيال في إيجاد مايضر مع إظهار خلافه ، وهو يستلزم الاجتهاد ، فتجوز به عنه ، وفيه إيذان بصعوبة الانتهاز وتوقفه على استعمال الحيل ليحتاطوا في الحفظ ؛ فيكون الظفر بالمطلوب أتم في التبكيت » (٥) .

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٥٦ .

(٢) البحر المحيط ٣٢٢/٦ .

(٣) التفسير الكبير ١٨٢/٢٢ .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) روح المعاني ٦١/١٧ ، وانظر : تفسير أبي السعود ٧٣/٦ .

وأرى أن في تعبيره عن ذلك بالكيد تعريضاً واستهزاءاً بموقفهم من هذه الأصنام، وذلك اعتقادهم أنها تعقل ، فجعلها إبراهيم عليه السلام كما هي في ظنهم ؛ فأجرى عليها من الأفعال مايجري على العقلاء ، للإشارة إلى سخف ذلك الظن .

وقد أكد إبراهيم عليه السلام هذا الأمر بالتأكيد القسمي ، وأظهره لهم في صورة مؤكدة أيضاً فقال : (لأكيدن) بلام ونون مشددة ؛ وقد قال البقاعي : « أكد لأنه مما ينكر لشدة عسره » [١] ، وقد يصح هذا الغرض باعتبار ظن قومه . وقد يكون من دواعي التأكيد في هذا المقام إظهار الجد في حديثه معهم ؛ لأنهم ظنوا دعوته لهم إلى التوحيد ونبذ هذه الأصنام ووصفه لما هم عليه بالضلال ضرباً من المزاح [٢] وذلك في قولهم : ﴿... **أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين** ﴾ [٣] .

ولكن الأقرب إلى السياق أن يكون مجيء هذا التأكيد القسمي والعناصر المؤكده الواردة في جوابه - في هذا السياق - لإظهار المبالغة في تأكيد الكيد للأصنام ، على سبيل التعريض بيسر هذا الأمر ، والإيماء إلى أن النيل من هذه الأصنام لا يحتاج فيه إلى مجرد الكيد فضلاً عن تأكيده، وفيه تحقير وتهوين لها، وتسفيه لأحلام عابديها . وتفسير الغرض من عناصر التوكيد على هذا النحو قريب مما ذكر قبل قليل من سر التعبير بلفظ الكيد في جواب القسم ، وعلى هذا تتسق دلالات التراكيب في القسم وجوابه وتتعاضد من هذا الوجه .

وقد جاء القسم في هذا الموضع باسم الجلالة سبحانه ؛ لعلاقة هذا الاسم العظيم (الله) بالتوحيد ، ودلالته الخاصة عليه ، وهو ماتضمنه المقسم عليه ؛ فالقضية التي أقسم عليها إبراهيم عليه السلام ، وهي الكيد للأصنام ، قضية واردة في سياق إثبات

---

(١) نظم الدرر ٤٣٧/١٧ .

(٢) يرى الزمخشري أنهم ظنوا هذا الظن لاستبعادهم أن يكون ماهم عليه ضلال . انظر الكشاف ٢٧٥/٢ ، ٢٧٦ .

(٣) سورة الأنبياء ، الآية ٥٥ .

الوحدانية ؛ لأن المقصود منها إبطال مذهب المشركين وعقيدتهم في تلك الأصنام التي اتخذوها آلهة من دون الله تعالى ، وذلك بإثبات أن هذه الأصنام لاتملك لنفسها ضراً ولا نفعاً، فهي أولى ألا تملك ذلك لغيرها ، وهو ماصرح به إبراهيم عليه السلام بعد ذلك في قوله تعالى : ﴿ **قال أفتعبدون من دون الله مالاينفعكم شيئاً ولا يضركم * أفٍ لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون** ﴾ (١) .

فقصة تحطيم الأصنام كانت تقصد إلى إثبات عجز هذه (الآلهة) المزعومة ، والدعوة إلى وحدانية الله تعالى دعوة يجهر بها حال الأصنام بعد تحطيمها ، فلما كان الأمر المقسم عليه إثباتاً للتوحيد، وإبطالاً للشرك جاء المقسم به المؤكد له اسماً من الأسماء المختصة بالله تعالى ، بل هو الاسم الذي لايطلق على غيره تأكيداً لمعنى التوحيد والإخلاص الذي جاء له القسم .

وفي مجيء القسم باسم الجلالة في هذا الموضع ، في سياق قصة من قصص القرآن تتضمن تفصيل بعض الأمور ذات العلاقة بقضايا الشرك والمشركين - في ذلك مايؤكد صلة القسم بمثل هذا السياق لما فيه من خصوصيات ذات علاقة بالقضايا المقسم عليها ، ومعان تعين على تأكيدها .

ويأتي القسم باسم الجلالة هنا مقترناً بالتاء ، وهذا النسق اللغوي (تالله) ذو صلة بدلالة التعجب ، وبدلالات أخرى أشرنا إلى بعضها في مواضع سابقة ، وقد أكد الزمخشري في تفسيره لهذا الموضع صلة التاء في القسم بمعنى التعجب ، ووضح علاقة هذه الصيغة القسمية بما أقسم عليه إبراهيم عليه السلام ؛ فقال : « فإن قلت : ما الفرق بين الباء والتاء ؟قلت:إن الباء هي الأصل والتاء بدل من الواو المبدلة منها ،وأن التاء فيها زيادة معنى ،وهو التعجب ، كأنه تعجب من تسهل الكيد على يده وتأتيه ؛ لأن ذلك كان أمراً مقنوطاً منه لصعوبته وتعذره ، ولعمري إن مثله صعب متعذر في كل زمان ، خصوصاً في زمن نمروذ مع عتوه واستكباره وقوة سلطانه وتهالكه على دينه ، ولكن * إذا الله سنى

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٦٦ ، ٦٧ .

عقد شيء تيسرا * » [١] .

وواضح أن الزمخشري يريد أن هذا الأمر صعب في ذاته بالنظر إلى الظروف المحيطة به ، ولكن إبراهيم عليه السلام يراه - لما معه من الحق وتأييد الله له - سهلاً ميسوراً إلى حد جعله يتعجب من سهولته وهو ماهو صعوبة وتعذراً،وربما كان التعجب هنا من إقدامه على هذا الأمر مع مافيه من المخاطرة ، وهو ماذكر الألوسي [٢].

ولايخفى - في ضوء هذا الموقف من إبراهيم عليه السلام - ما في التعبير بـ (تالله) في هذا القسم من الإشارة إلى الفرق الكبير بين موقفه تجاه هذه الأصنام ، وهو الذي يحقرها ، وموقف أبيه وقومه ، وهم الذين يعظمونها ويرجون نفعها ويخشون ضررها ، ففي مجيء هذه الصيغة تعبير عن التعجب من المفارقة الغريبة بين موقفه وموقفهم، حتى احتاج إلى أن يثبت لهم أنه يستطيع التعرض لها بسوء بإعمال الكيد، بل احتاج إلى أن يقسم لهم على ذلك ، فدخول تاء القسم في هذا السياق، واجتماعها مع فعل الكيد المؤكد في المقسم عليه، يلفت إلى وجه الغرابة في تلك المفارقة وأن ذلك حقيق بأن يتعجب منه ، ومن دلالات ذلك أيضاً تعجب إبراهيم عليه السلام - في ضوء موقفه - من إقامتهم على عبادة هذه الأصنام، واثقين من أن أحداً لايصيبها بمكروه .

وقد ربط البيضاوي بين مجيء لفظ الكيد وما في التاء من التعجب ، فذهب إلى أن التعبير بهما قد جاء « لصعوبة الأمر وتوقفه على نوع من الحيل » [٣] ، وفي ربطه بين لفظ الكيد وما في التاء من معنى التعجب توثيق لصلة هذه الأداة بلفظ الكيد، لما يستصحبه ذكر هذا اللفظ من الفكر النادرة، والحيل العجيبة التي يتأتى بها إلى المراد ؛فناسبت تاء القسم - من هذا الوجه - المعنى المؤكد بالقسم ، على نحو

---

(١) الكشاف ٥٧٦/٢ ، وانظر : التفسير الكبير ١٨٢/٢٢ ، والبحر المحيط ٣٢١/٦ .

(٢) انظر : روح المعاني ٦١/١٧ .

(٣) تفسير البيضاوي ص ٤٣٢ .

ماسبقت الإشارة إليه في القسم في سورة يوسف عليه السلام ، وبهذا يتأكد وجود صلة وثيقة بين مجيء التاء في أسلوب القسم ، والسياقات التي يذكر فيها الكيد ، بجامع ما لكل منهما من ارتباط بالأمور الغريبة والنادرة المتعجب منها .

وأضاف البقاعي دلالة أخرى للتاء في هذا القسم ؛ فقال : « وفيها أيضاً أنها تدل على رجوع التسبب باطناً فكأنها إشارة إلى أنه بعد أن تسبب في ردهم عن عبادتها ظاهراً بما خاطبهم به ، تسبب من ذلك ثانياً باطناً بإفسادها » [١] ، أي أنه بعد أن أظهر لهم بطلان ماهم عليه من عبادة تلك الأصنام وفساد عقيدتهم تلك بما قاله لهم ، أضمر في نفسه ما سيفعله بعد ذلك بالأصنام ، وهو ماعبر عنه بالكيد ، فتحطيم الأصنام دليل على بطلان ذلك المعتقد ، فجمع في تلك اللحظة بين دليله الظاهر الذي صرح لهم به ، ودليله الباطن الذي عقد العزم عليه ، فلما كان المقسم عليه مما كان يضمره إبراهيم عليه السلام في تلك اللحظة ؛ أشبه الشيء الغريب ؛ لشدة خفائه ودخوله في نيته ، فجاءت التاء مشيرة إلى هذا المعنى ولافتة إليه .

وثمة معنى آخر يتصل بالتعبير بالتاء ، وهو أن المقسم عليه الذي ينوي إبراهيم عليه السلام فعله أمر مبهم غير معروف ؛ لأن قوله : (لأكيدن أصنامكم) يحتمل كثيراً من الوجوه التي يمكن أن يتأتى بها الكيد لهذه الأصنام ، وفي قسم إبراهيم على ذلك بـ (تالله) مايشير إلى أن هذا الأمر المقسم عليه أمر يثير العجب ، وذلك بلفتهم إلى أن الطريقة التي سيكيد بها لهذه الأصنام طريقة عجيبة تستأهل أن يتفكروا فيها وأن يترقبوا حدوثها وأن يتخيلوا كيفياتها ، والتعبير بهذه الصيغة هو القائم بأداء هذه الدلالات الدقيقة في سياق هذا القسم . ويضاف إلى هذا أن المقسم عليه لما كان على هذا النحو من الإبهام والخفاء، كان أقرب إلى أن يؤكد بالصيغة القسمية المختصة بالمعاني الغريبة البعيدة .

والقسم في هذا الموضع مناسب لسياقه الخاص الذي ورد فيه ؛ فصورة المقسم به

---

(١) نظم الدرر ٤٣٧/١٢ .

التي تجمع بين اسم الجلالة وتاء القسم تتسق مع أدق خصوصيات هذا السياق ، فالقسم باسم الجلالة يناسب السياق الذي جاء فيه من جهة مافيه من الاهتمام بإثبات قضية التوحيد وإبطال الشرك ، ومجيء التاء مع المقسم به يتسق مع عرض هذه القضية في قصة عجيبة غريبة، واعتماد السياق عليها في إثبات الوحدانية .

ومن وجوه اتفاق صيغة القسم مع سياقها الخاص - أيضاً - ما شاع في قصة إبراهيم عليه السلام - وهي القصة التي ورد القسم في سياقها - من مواقف التعجب والاستغراب الصادر من شخوصها ، وما ورد فيها من الأحداث الغريبة النادرة ؛ فالقصة تبدأ بتعجب إبراهيم عليه السلام من حال قومه في عكوفهم على الأصنام، ومبالغتهم في تقديسها ، وذلك قوله : ﴿... **ماهذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون** ﴾ [(١)]؟! ، ثم يأتي ردهم على ذلك عجيباً غريباً :﴿ **قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين** ﴾ [(٢)] ؛ فلم يكن منه إلا أن قال لهم - متعجباً من احتجاجهم بالتقليد، وخروجهم عن أصل السؤال : ﴿... **لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين** ﴾ [(٣)]، ووجه تعجبه من ذلك أنهم بوقوعهم في مثل هذا الضلال المبين بنفسه فلا يحتاج إلى من يكشفه ويوضحه لهم ؛ كانوا أقرب إلى الرجوع عنه ، ولكنهم - مع ذلك - لم يفطنوا إلى بطلان ماهم فيه ؛ فكيف وقد جاءهم من يلفتهم إلى بطلانه بتسمية تلك الأصنام (التماثيل) إشارة إلى كونها من صنعهم، وإلى كونها جامدة لا حياة فيها !! إن من كان في مثل ذلك يسلك مسلكاً حقيقاً بأن يُتعجَّب منه . وعلى هذا يكون التعجب هنا من موقفهم وحجتهم .

ثم إنهم « لاستبعادهم أن يكون ماهم عليه ضلال بقوا متعجبين من تضليله إياهم

---

(١) الآية ٥٢ .

(٢) الآية ٥٣ .

(٣) الآية ٥٤ .

وحسبوا أن ما قاله إنما قاله على وجه المزاح والمداعبة لا على طريق الجد » [١] - وجهوا السؤال إليه فـ ﴿ **قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين** ﴾ [٢] .

وهذا كله واقع فيما ورد من القصة قبل مجيء القسم · وقد جاء بعد القسم من مواقف التعجب والغرابة مثل ماجاء قبله ؛ فمن ذلك حكاية الكيفية التي تم بها تحطيم الأصنام، ومافيها من الاستدراج العجيب لهم، حين نسب التحطيم إلى كبير الأصنام، وطلب منهم سؤالها عن صحة ذلك تعريضاً بجهلهم وذلك قوله : ﴿... **بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون** ﴾ [٣] ، فكأنه يريد أن يقول لهم متعجباً : كيف تعبدون مالاينطق ولا يعقل ؟! ولهذا رجعوا إلى أنفسهم واعترفوا بكونهم ظالمين [٤] ، لكنهم مالبثوا أن نكسوا على رؤوسهم فقالوا : ﴿... **لقد علمت ماهؤلاء ينطقون** ﴾ [٥] ولما كان ذلك مما يتعجب منه أشد التعجب قال لهم - مظهراً تعجبه واستغرابه : ﴿... **أفتعبدون من دون الله مالاينفعكم شيئاً ولا يضركم * أفٍ لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون** ﴾ [٦] .

ومن عجائب موقفهم في هذه القصة أنهم بعد ذلك كله مصرون على شركهم الذي تبين لهم بطلانه ، بل اعترفوا بأنفسهم بما يوجب كونه باطلاً ، فلم يذعنوا للحق لما جاءهم بل ﴿ **قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين** ﴾ [٧] .

ومن ناحية أخرى تتناسب صيغة القسم مع ماورد في القصة من الرد على كيد المشركين الذي أرادوه بإبراهيم عليه السلام ، فهو رد غريب تتحول به طاقة النار

---

(١) الكشاف ٢/٥٧٥ ، وتفسير أبي السعود ٦/٧٣ ·

(٢) الآية ٥٥ ·

(٣) الآية ٦٣ ·

(٤) انظر : الآية ٦٤ ·

(٥) الآية ٦٥ ·

(٦) الآية ٦٦ ، ٦٧ ·

(٧) الآية ٦٨ ·

المحرقة إلى برد وسلام على إبراهيم : ﴿ **قلنا يانار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم * وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين** ﴾ [(١)] . وفي ورود لفظ الكيد في الآية الأخيرة تعضيد لما تقدم ذكره من اختصاص هذه الصيغة القسمية بالسياقات التي تذكر فيها المكائد العجيبة، لما في هذه الصيغة من الدلالة على معان ذات صلة بصفة تلك المكائد وكيفياتها .

وغير خافٍ ما صاحب المواقف السابقة -ما جاء منها قبل القسم وما جاء بعده- من شيوع أساليب الاستفهام الدالة على التعجب والاستبعاد ، وذلك يشير إلى وجه بناء الدلالة العامة لهذا السياق ، وهو الوجه الذي جاءت صورة القسم الصادر من إبراهيم عليه السلام متسقة معه أتم الاتساق ، فشاكلت سياقها في مضمونه وأساليبه .

ومن خصوصيات نظم هذا القسم في سياقه أنه برهان على إبطال الباطل بعد أن جاء البرهان على إحقاق الحق [(٢)] في قوله تعالى : ﴿ **قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين * وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين** ﴾ [(٣)] ، ومن وجوه الترابط بين البرهانين أنه عقب على الأول بقوله : (وأنا على ذلكم من الشاهدين) وفي الشهادة معنى القسم ، ثم جاء بالقسم بعد ذلك ، فتشابهت الأساليب وائتلفت الدلالات في البرهانين .

وظاهر من جميع ماسبق وجه ارتباط هذا القسم بموقعه الخاص من سورة الأنبياء، وعلاقات عناصره بدقائق هذا الموقع .

أما صلة هذا القسم بالسياق العام في سورته فباب أوسع وأدق . وسنقف - فيما يلي - على كثير من وجوه التناسب بين صورة القسم وعناصره ، والسورة التي

---

(١) الآية ٦٩ ، ٧٠ .

(٢) انظر : نظم الدرر ٤٣٧/١٧ .

(٣) الآية ٥٦ ، ٥٧ .

ورد فيها وهي سورة الأنبياء .

وأول مايلحظ من ذلك أن سورة الأنبياء قد افتتحت بالتعجب من حال الناس وقد اقترب حسابهم وهم في غفلة وإعراض عن ذكر ربهم : ﴿ **اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون * ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون * لاهية قلوبهم...**﴾[١] ، ثم جاء عقب ذلك الحديث عن بعض المواقف الغريبة التي وقفها المشركون من الذكرالذي جاءهم ، كوصفهم له بالسحر أو الافتراء أو الشعر ، والرد على هذه الأقاويل- مقترناً بمواقف الأمم السابقة - بأسلوب مشتمل على عناصر لغوية تفيد التعجب [٢] ، وواضح أن عرض قضايا السورة يسلك مسلك التعجب منذ الآية الأولى ، ويمضي على هذا النحو في الآيات التي تلتها في صدر السورة .

ثم تلتفت آيات السورة بعد ذلك إلى بسط قضية التوحيد وهي القضية الهامة التي جاء بها الذكر ، ويصاحب ذلك عرض للعقائد الغريبة التي اعتنقها المشركون ؛ كالقول بتعدد الآلهة ، ونسبة الو لد إلى الله وادعائهم بأن الملائكة بناته - تعالى عن ذلك علواً كبيراً- وقد جاءت في سياق عرض هذه العقائد والرد عليها الأنساق اللغوية المتضمنة للإنكار التعجبي ، فتضمن الرد معنى يشاكل القضايا المردود عليها [٣] .

وكثيراً مالوحظ مجيء مثل هذه العقائد الغريبة ، وبخاصة نسبة الولد إلى الله تعالى في السياقات التي يرد فيها القسم بـ (تالله) ، وذلك يلفت إلى صلة وثيقة بين هذه الصورة القسمية ومثل تلك المعتقدات الغريبة ، وهي صلة لها مايؤيدها في عناصر هذا النسق القسمي ؛ فهو نسق يجمع بين اسم الجلالة المتضمن للوحدانية ، وتاء القسم المفيـدة للتعجـب ، أي أنهـا صـورة قسميـة مناسبـة للرد على تلك العقائـد

(١) سورة الأنبياء ، الآيات ١ - ٣ .

(٢) انظر الآيات : ٣ - ١٥ .

(٣) انظر الآيات : ١٦-٢٩ ، والآيات ٢٩ - ٣٥ .

الشركية مع الحكم بغرابتها وبعدها عن الحق ، وهذا من أدق وجوه الصلة بين القسم وسياقه العام ·

ثم نمضي مع السورة فنراها تعرض موقف كفار قريش من رسول الله(صلى الله عليه وسلم)واستهزائهم به في قوله تعالى: ﴿ **وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذي يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون** ﴾ (١) ، وفي قولهم : (أهذا الذي يذكر آلهتكم) موقف مشابه لموقف قوم إبراهيم عليه السلام معه ، وهو ما جاء في قوله تعالى : ﴿ **قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم** ﴾ (٢) ، ووجه التماثل أن مراد قوم إبراهيم من قولهم (يذكرهم) الإشارة إلى قسمه على الكيد لأصنامهم ، وهو القسم الذي أراد به إبراهيم عليه السلام دعوتهم إلى التوحيد ، وكذلك كان مراد كفار قريش حين قالوا: (أهذا الذي يذكر ألهتكم) ، فذكر الآلهة يعني عند الفريقين إصابتها بالأذى أو ذكرها بما يكرهون ، فمجيء الفعل (يذكر) بهذا المعنى في سياق الحديث عن كفار قريش يتناغم في السورة مع ماجاء من إسناد قوم إبراهيم، الفعل نفسه إلى إبراهيم مريدين به المعنى نفسه في قولهم (يذكرهم) ·

ويشير هذا التناغم إلى وجه مجيء قصة إبراهيم عليه السلام في سياق سورة الأنبياء، على نحو يصور حرص الكافرين على آلهتهم، وشدة ولائهم لها ، مقابلاً بكفرهم بالرحمن، وإعراضهم عن ذكره ، وهو موقف غريب عجيب ، فجاءت صورة القسم الذي أريد به التعرض لتلك الأصنام والنيل منها ذات صيغة تعجبية ، تناسباً مع غرابة موقف الكافرين ، ثم كان قسماً صادراً من نبي من أنبياء الله تعالى بأنسب أسمائه سبحانه للقضية المثبتة في السياق ·

ثم يعقب ذلك ذكر سخرية الكافرين بما يوعدون واستعجالهم العذاب ، والتعجب

---

(١) الآية ٣٦ ·

(٢) الآية ٦٠ ·

من هذا الموقف في ضوء ماسيكون عليه أمر الساعة من السرعة والمباغتة التي يطلبونها [١] ، وفي هذا استهزاء ضمني مشوب بلهجة تعجبية تهديدية .

ثم تعود الآيات إلى التذكير بمواقف الأمم السابقة واستهزائهم برسلهم ، وتلتفت مع ذلك إلى إثبات الوحدانية، وتقريرها بتقرير خصائص الربوبية ، ويصاغ ذلك كله في لغة يغلب عليها التعجب من حال المشركين في مواقف متعددة [٢] ، وبخاصة التعجب من أمر وثيق الصلة بالقسم الذي ستأتي حكايته عن إبراهيم ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ **أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لايستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منايصحبون** ﴾ [٣] ، فقد أشارت هذه الآية إلى أن تلك الأصنام لاتملك لهم نفعاً ولا ضراً ؛ لأن من لايملك ذلك لنفسه لايملكه لغيره ، والإشارة إلى هذه الحقيقة على سبيل التعجب تمهد لما في قسم إبراهيم : (وتالله لأكيدن أصنامكم) من التصديق العملي لهذه الحجة والتطبيق الفعلي لها ، وهو ما أجراه الله تعالى على يد إبراهيم عليه السلام ، وهذا وجه دقيق من وجوه علاقة هذا القسم بالسياق العام للسورة التي ورد فيها .

ويأتي بعد ذلك الإخبار بإيتاء موسى وهارون ﴿... **الفرقان وضياء وذكراً للمتقين** ﴾ [٤] ، وتلتفت الآيات إلى كفار مكة : ﴿ **وهذا ذكر مبارك أفأنتم له منكرون** ﴾ [٥] ، ويعقب ذلك - دون فصل - حكاية قصة إبراهيم عليه السلام التي جاء فيها القسم ، وفي ترتيب السياق على هذا النحو تمهيد لما سيأتي من جريان القسم على لسان إبراهيم ، يتوعد فيه بالكيد للأصنام ، وتسميته ذكراً في قولهم : (سمعنا فتى يذكرهم) ؛ وذلك يشير - في ضوء ماعرف من ربط لفظ (الذكر) بين سياقات

---

(١) انظر الآيات : ٣٧ - ٤٠ .

(٢) انظر الآيات : ٤١ - ٤٦ .

(٣) الآية ٤٣ .

(٤) الآية ٤٨ .

(٥) الآية ٥٠ .

هذه السورة - إلى أن موقف إبراهيم من الأصنام وهو الذي وصفوه بالذكر ، إنما هو حجة على هؤلاء الكافرين الذين أعرضوا عن الذكر لما جاءهم ؛ فكأن السياق يومىء إلى أن هذه الأصنام إذا كان لها حظ من الذكر فسيكون من جنس مافعله إبراهيم عليه السلام وما فعله محمد (صلى الله عليه وسلم)، وهو تنبيه لأولئك الذين ﴿ **ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون** ﴾ [١] ، أولئك الذين أعرضوا عن ذكر الله الواحد الأحد .

فانظر إلى السياق الخاص الذي ورد فيه القسم : كيف ارتبط بالسياق العام للسورة من هذا الوجه . ولعل أوضح إشارة إلى كون الذكر من الأمور الهامة التي بني عليها السياق في هذه السورة - ورود هذا اللفظ ومشتقاته في غير موضع منها وشيوعه فيها شيوعاً يلفت المتأمل [٢] .

ومن جميع ماتقدم يتضح أن عناصر هذا القسم قد جاءت متسقة مع موقعه ، لا في نحوه العام فحسب ، بل في دقائقه التي وقفنا على كثير منها بتتبع الخصوصيات والعلاقات المتداخلة في السياق كله ، وجاءت قبل ذلك مناسبة للمقسم عليه ، والمقسم لهم ، ومقام القسم ، وموافقة لمقتضيات الأحوال المتعلقة بجميع ذلك .

---

(١) الآية ٢ .

(٢) ورد لفظ الذكر مصرحاً به أو مشاراً إليه في الآيات : ٢ ، ٣ ، ٥ ، ٧ ، ١٠ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٦٠ ، ٧٣ ، ٧٩ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ .

الموضع الثاني : قسم المشركين في النار - ومنهم قوم إبراهيم - في سياق ندمهم على الشرك :

قوله تعالى : ﴿ **قالوا وهم فيها يختصمون * تالله إن كنا لفي ضلال مبين * إذ نسويكم برب العالمين * وما أضلنا إلا المجرمون** ﴾ (١) .

جاء هذا القسم فيما ورد في سورة الشعراء من وصف أحوال يوم القيامة ومايكون فيه من اختصام المشركين في جهنم ؛ حيث يقسمون معترفين بضلالهم المبين الذي كانوا عليه في الدنيا .

وهذا الوصف الذي جاء في سياقه القسم متصل بما جاء قبله في السورة نفسها من حكاية قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه ، فالقصة تبدأ من قوله تعالى : ﴿ **واتل عليهم نبأ إبراهيم * إذ قال لأبيه وقومه ماتعبدون * قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين** ﴾ (٢) ، ثم يأتي بعد حكاية قصته مع قومه دعاؤه واستغفاره لأبيه ، وبهذا الدعاء يتصل وصف أحوال القيامة على النحو التالي ؛ قال تعالى : ﴿ **واغفر لأبي إنه كان من الضالين * ولا تخزني يوم يبعثون * يوم لاينفع مال ولابنون* إلا من أتى الله بقلب سليم * وأزلفت الجنة للمتقين * وبرزت الجحيم للغاوين * وقيل لهم أين ماكنتم تعبدون * من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون * فكبكبوا فيها هم والغاوون * وجنود إبليس أجمعون * قالوا وهم فيها يختصمون * تالله إن كنا لفي ضلال مبين * إذ نسويكم برب العالمين** ﴾ (٣) ؛ فالقسم كما هو واضح واقع في سياق وصف مايكون من أحوال يوم القيامة ، وهذا الوصف ذو صلة بدعاء إبراهيم عليه السلام في نهاية قصته مع قومه .

---

(١) سورة الشعراء ، الآيات ٩٦ - ٩٩ .

(٢) سورة الشعراء ، الآيات ٦٩ - ٧١ . وانظر الآيات ٧٢ - ٧٧ .

(٣) سورة الشعراء ، الآيات ٨٦ - ٩٨ . وانظر السياق كاملاً في : الآيات ٦٩ - ١٠٤ .

وقيل: إن هذا الوصف المبدوء بقوله : ﴿ **يوم لاينفع مال ولابنون** ﴾ [(١)] منقطع عن قول إبراهيم في آخر القصة التي سبقت : ﴿ **ولاتخزني يوم يبعثون * يوم لاينفع ...** ﴾ [(٢)] ، وأن هذا الوصف المبين لأحوال القيامة « إخبار من الله عز وجل تعلق بصفة ذلك اليوم الذي وقف عنده إبراهيم عليه السلام في دعائه ألا يخزى فيه » [(٣)] . والأظهر أنه متصل بما قبله من كلام إبراهيم عليه السلام ؛ فهو - كما يرى بعض المفسرين - « متعلق بقول إبراهيم ، أخبر بما أعلمه الله من أحوال يوم القيامة ومايكون فيها من حال قومه » [(٤)] .

وهذا يعني أن القسم وارد في سياق قصة إبراهيم عليه السلام ، ويؤيده ماسوف نقف عليه من علاقات دقيقة بين هذا القسم و القسم السابق الذي ورد في سورة الأنبياء محكياً عن إبراهيم عليه السلام في قصته مع قومه أيضاً ، وهو قوله تعالى : ﴿ **وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين** ﴾ [(٥)] .

والقسم الوارد في هذا الموطن مسند إلى الغاوين - من قوم إبراهيم عليه السلام وغيرهم - الذين أشركوا وعبدوا مع الله تعالى أو من دونه الأصنام ، يقسمون بهذا يوم القيامة وهم يختصمون في نار جهنم بعد أن كبكبوا وأصنامهم فيها ، وهم يوجهون الخطاب إلى ماعبدوا من دون الله تعالى ؛ يقول الطبري : « يقول الغاوون للذين يعبدونهم من دون الله : تالله إن كنا لفي ذهاب عن الحق حين نعد لكم برب العالمين » [(٦)] . ومن هذا يظهر المقسم في هذا الموضع والمقسم له والمقسم عليه ومناسبة القسم .

---

(١) سورة الشعواء ، الآية ٨٨ .

(٢) سورة الشعراء ، الآية ٨٧ فما بعدها .

(٣) نقل أبو حيان هذا عن ابن عطية ، انظر البحر المحيط ٢٨/٧ ، وانظر التسهيل لعلوم التنزيل ٨٧/٣ .

(٤) البحر المحيط ٢٨/٧ ، وانظر : روح المعاني ١٠٠/١٩ .

(٥) سورة الأنبياء ، الآية ٥٧ .

(٦) تفسير الطبري ٥٥/١٩ .

والأصنام ليست مما يصح أن يخاطب ، وذلك أن حالها - كما يرى الرازي - لايخلو من أحد وجهين : فإما أن تكون جماداً يعذب بها عابدوها ، فلا يصح أن تخاطب ، وإما أن يحييها الله تعالى في النار ، وذلك لايجوز لأنه لا ذنب لها ؛ «فالأقرب أنهم ذكروا ذلك لما رأوا صورها على وجه الاعتراف بالخطأ العظيم وعلى وجه الندامة لا على سبيل المخاطبة » (١) ، وقال البيضاوي : « الخطاب للمبالغة في التحسر والندامة » (٢) ، وذهب إلى مثل ذلك أبو السعود والألوسي ولكنهما ذكرا أن خطابهم لمعبودهم يتأتى على أنه سبحانه يعطيها القدرة على الفهم والنطق (٣) .

والحق أن كيفية تأتي خطابهم لأصنامهم مما يدخل في علم الله تعالى ، وهو القادر على كل شيء سبحانه . وسواء أكانت الأصنام في ذلك اليوم تسمع منهم ذلك الخطاب أم لاتسمعه، فإن المعاني التي ذكرها المفسرون هنا صالحة لأن يدل عليها الخطاب ، وعلى هذا فإن الغرض من القسم الصادر منهم في هذا المقام الاعتراف بالخطأ، والمبالغة في الندم، والتحسر على شركهم في الحياة الدنيا وإقامتهم عليه حتى أوردهم جهنم التي يقسمون فيها الآن .

وفي ضوء هذا يعلم أن التأكيد القسمي هنا لايراد به تأكيد المقسم عليه للمخاطب ، لأن المخاطبة أصلاً غير مقصودة ، ولايراد بها تأكيد المقسم عليه لأنفسهم على وجه التحقيق ؛ لاستغنائهم عن ذلك بما يشاهدونه من حقائق ذلك اليوم ، وإنما يراد به تأكيد الحسرة والندم في نفوسهم في ذلك الموقف ، فهو صورة ناطقة بما في النفس من تلك المعاني .

ويجوز أن يكون توجيههم الخطاب لأصنامهم « من توجيه المتندم الخطاب إلى الشيء الذي لايعقل ، وكان سبباً في الأمر الذي جر عليه الندامة ، بتنزيله منزلة من

---

(١) التفسير الكبير ١٥٢/٢٤ .

(٢) تفسير البيضاوي ص ٤٩١ .

(٣) تفسير أبي السعود ٢٥٢/٢٦ ، وروح المعاني ١٠٣/١٩ .

يعقل ويسمع . والمقصود من ذلك المبالغة في توبيخ نفسه » [١] . وإذا كان الخطاب من هذا الباب فإن من أغراض التأكيد القسمي الصادر من المشركين في هذا الموضع قوة المبالغة في توبيخ أنفسهم ؛ لأن المبالغة حاصلة من مجرد الخطاب الجاري على هذا النحو ، فيأتي القسم في هذا الموقع ليزيد من دلالتها .

ويتسق هذا المعنى مع وقوع القسم موقع الجواب عن سؤال الغرض منه التوبيخ [٢] وهو قوله تعالى : (وقيل لهم أين ماكنتم تعبدون*من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون) [٣] ؛ فلما لم يكن المقصود بهذا السؤال طلب الجواب ،بل كان الغرض منه توبيخهم، ردوا عليه بعد أن كبكبوا في نار جهنم هم وأصنامهم بالقسم على مايفيد توبيخهم لأنفسهم ، كأنهم يؤكدون المعنى الذي سبق له السؤال ، ويعربون عن استحقاقهم لأقصى درجات التوبيخ .

ويرى البقاعي أن القسم مترتب على هذا السؤال من جهة أخرى ، وهي أنه لما علم بكبكبتهم في النار مع أصنامهم « أنهم لم يتمكنوا من قول في جواب استفهامهم توبيخاً ، وكان من المعلوم أن الإنسان مطبوع على أن يقول في كل شيء ينوبه مايثيره له إدراكه مما يرى أنه يبرد من غلته ويشفى من علته تشوف السامع إلى معرفة قولهم بعد الكبكبة فاشيرا إلى ذلك بقوله : (قالوا) » [٤] ، أي: قالوا تالله إن كنا لفي ضلال مبين .

وواضح من هذا النص مايعبر عنه القسم من حركة نفسية عنيفة فرضها المقام الذي أقسموا فيه ، وملابسات القضية منذ أن كانوا في الدنيا يعبدون هذه الأصنام إلى أن بان لهم ضلالهم ورأوا سوء العاقبة في جهنم .

---

(١) التحرير والتنوير ١٥٤/١٩ .

(٢) ذكر الغرض من هذا السؤال البقاعي وأبو السعود ، انظر : نظم الدرر ٥٨/١٤ ، وتفسير أبي السعود ٢٥١/٦ .

(٣) سورة الشعراء ، الآية ٩٢ ، ٩٣ .

(٤) نظم الدرر ٥٨/١٤ .

وهذه الحركة النفسية تصور – مع ما استشعرته نفوس هؤلاء المشركين من الغم والحسرة والندم – تصور مدى مايشعر به هؤلاء المشركون في تلك اللحظة من عداوة وبغضاء تجاه أصنامهم التي طالما عبدوها وقدسوها ورجوا نفعها وشفاعتها في ذلك اليوم ، وعلى هذا فإن القسم يقع هنا موقعاً نفسياً عنيفاً ، يمثل تحولاً مفاجئاً وقوياً من حال إلى الحال التي تناقضها ، وهذه القوة والمفاجأة في التحول واحدة من الدلالات الدقيقة التي جاء القسم معبراً عنها في هذا السياق .

ويمكن النظر إلى أثر هذا الموقف النفسي في أسلوب المتحدثين في هذا المقام من خلال تكاثر العناصر اللغوية المؤكدة التي اشتمل عليها كلامهم ؛ فبالإضافة إلى القسم – أقوى عناصر التأكيد – جاء في المقسم عليه وهو قولهم : ﴿... **إن كنا لفي ضلال مبين* إذ نسويكم برب العالمين** ﴾ [(١)] كثير من عناصر التأكيد والتحقيق ؛ ففيه (إن) المخففة من الثقيلة – على رأى البصريين [(٢)] – ، واسمها ضمير الشأن محذوف وهو من المؤكدات ، واللام الفارقة في قولهم : (لفي) ، والاستعارة التبعية في الحرف في قولهم : (لفي ضلال) ، ووصف الضلال بالمبين ؛ أي واضح لايحتاج إلى من يبينه ، ويضاف إلى ذلك التعبير بصيغة المضارع في قولهم : (نسويكم) ، لاستحضار موقفهم مع أصنامهم في الدنيا ، يقول أبو السعود : « وصيغة المضارع لاستحضار الصورة الماضية أي : تالله لقد كنا في غاية الضلال الفاحش وقت تسويتنا إياكم أيها الأصنام في استحقاق العبادة برب العالمين الذي أنتم أدنى مخلوقاته وأذلهم وأعجزهم » [(٣)] .

---

(١) الآية ٩٧ ، ٩٨ .

(٢) يرى الكوفيون أن (إن) هنا نافيه ، واللام بمعنى (إلا) : أي ما كنا إلا في ضلال مبين . ورأى البصريين أولى عند كثير من المفسرين . انظر على سبيل المثال : البحر المحيط ٢٧/٧ ، وتفسير أبي السعود ٢٥٢/٦ ، وفتح القدير ١٠٧/٤ ، وروح المعاني ١٠٣/١٩ . وقيل: إن (إن) بمعنى : لقد ، وهو رأى الفراء وبعض المفسرين . انظر : تأويل مشكل القرآن ص ٥٥٢ ، وزاد المسير ١٣٢/٦ .

(٣) تفسير أبي السعود ٢٥٢/٦ ، وانظر : روح المعاني ١٠٣/١٩ .

والتأكيد القسمي مع ما اشتمل عليه جوابه من المؤكدات يعبر - بالإضافة إلى ماسبق - عن رسوخ الأمر المقسم عليه في نفوس هؤلاء المشركين في الموقف الذي يقسمون فيه ؛ وذلك أنهم رأوا فيه مايثبت أنهم قد كانوا في ضلال مبين في تسوية تلك الأصنام برب العالمين ، ومايجعل هذا الأمر حقيقة ثابتة تستأهل أن يعبروا عن ثبوتها بأسلوب القسم ، وأن يأتوا في جوابه بجميع تلك الصور المفيدة للتأكيد ·

ولما كان الأمر المقسم عليه اعترافاً ببطلان ما كانوا عليه من الشرك قرنوا معه في الأسلوب مايدل على إيمانهم بعقيدة التوحيد الصحيحة ، فجاءوا في المقسم به باسم الجلالة سبحانه لما فيه من خصوصيات تناسب هذا الاعتراف ؛ إذ هو الاسم المناسب للتعبير عن الإيمان بوحدانيته سبحانه ، وهذا وجه من وجوه التناسب بين المقسم به والمقسم عليه ، ترى فيه الحقيقة المراد إثباتها بالقسم مؤكدة مرتين : مرة في المقسم به بما يتضمنه من الإيمان بالتوحيد ، ومرة في المقسم عليه بما يتضمنه من الاعتراف ببطلان ماكانوا عليه من الشرك ، وبهذا تكتنف القضية التي جاء لها القسم من جميع جهاتها ، فالقضية تثبت أولاً بالمقسم به ثم ينفى ضدها بالمقسم عليه ·

وهذا الضرب من التوكيد قد لوحظ مثله في جميع المواضع التي يكون فيها المقسم عليه باسم الجلالة ذا علاقة بإثبات عقيدة التوحيد وإبطال الشرك ، ووجه التأكيد أن في هذا الاسم من معاني التفرد والاختصاص مايناسب هذه القضية ·

والقسم باسم الجلالة في هذا الموضع يناسب المقام الذي يقسم فيه هؤلاء المشركون،وذلك أنه الاسم الجامع لمعاني أسماء الله الحسنى وصفاته التي ظهر للمشركين كثير منها في ذلك اليوم ؛ فناسب القسم به المقام الذي يصدر فيه هذا القسم منهم·وقد مضى الحديث عن مناسبة القسم بهذا الاسم خاصة لمقام حديث المشركين يوم القيامة ؛ لما يتكشف فيه من حقائق الألوهية ومعاني الأسماء والصفات لأولئك المشركين ، وذلك ماسبق في تفسير علاقة القسم بهذا الاسم الأعظم بما أقسم عليه

المشركون في قوله تعالى : ﴿ ... **والله ربنا ما كنا مشركين** ﴾ [١] ، وبين القسمين تشابه من جهة أن المشركين في كل منهما يتنصلون من الشرك والشركاء ، ولهذا اتحد المقسم به فيهما .

وفي صورة المقسم به هنا حرف التاء ، وقد ذكرت في تفسير الغرض من التوكيد القسمي في هذا الموضع مايصلح أن يكون تفسيراً لدلالات اجتلبت هذه الصيغة من أجلها ؛ وذلك أن هذا الضرب من القسم : (تالله) - كما رأينا في مواضع سابقة - يكثر مجيئه في مواقف الانفعال النفسي ، فهو قسم ذو علاقة بمعان نفسيه وحركات انفعاليه ، وقد وضح بما سبق أن هؤلاء المشركين الذين يقسمون في هذا الموضع في موقف نفسي عنيف ، وفي وضع يجعل الخطاب الذي يصدر عنهم ذا نغمة انفعالية ؛ فهم يتحسرون ويندمون ويغضبون ويوبخون ويعترفون بالخطأ ، وكل ذلك مما تأتي له هذه الصيغة في أسلوب القسم كما وضح في مواضع سابقة .

وثمة أيضاً معنى التعجب الذي لايكاد يغيب عن سياق هذه الصيغة القسمية ؛ ووجهه الظاهر هنا هو أن هؤلاء المقسمين يتعجبون - في ضوء ماعرفوا من الحق يوم القيامه - من جعلهم الشركاء في موقع المماثلة مع رب العالمين سبحانه ، ويرون أن

---

(١) سورة الأنعام ، الآية ٢٣ ، وانظر ص٢٥٣ من هذا البحث .

هذا الأمر هو الغاية في الضلال ، وأنه ضلال مبين : أي واضح لكل أحد ، ويؤكدون هذه الحقيقة بما سبقت الإشارة إليه من وسائل التوكيد للمبالغة في إظهار تعجبهم من الوقوع فيه مع وضوحه الذي لايخفى على أحد ، ومع وضوح دلائله التي كانت عندهم في الدنيا ، فهم هنا يتعجبون من وقوع الشرك منهم .

وائتلافاً مع هذا المعنى جاء وصفهم للضلال بأنه مبين ؛ يقول أبو السعود : « ووصفهم له بالوضوح للإشباع في إظهار ندمهم وتحسرهم وبيان عظم خطئهم في رأيهم مع وضوح الحق ، كما ينبىء عنه تصدير قسمهم بحرف التاء المشعرة بالتعجب »[١] .

وقد ذكر ابن عاشور أن التعجب هنا « من ضلالهم إذ ناطوا آمالهم المعونة والنصر بحجارة لاتغني عنهم شيئاً ... وفي هذا تسفيه منهم لأنفسهم إذ تمشى عليها هذا الضلال الذي ما كان له أن يروج على ذي مسكة من عقل »[٢] . وعلى هذا يكون التعجب من سخف ما كانوا عليه في ذلك الشرك الذي جعلهم يتعلقون بتلك الحجارة . ويزيد من وضوح هذا المعنى وحسنه تأمله في ضوء ماورد من مشاهدتهم لأولئك الشركاء ، وقد كبكبوا هم وإياهم في نار جهنم ؛ فظهر لهم فرط ضلالهم في اعتقادهم نصرتها لهم حين رأوا أنها لاتدفع عن نفسها شيئاً ، فعرفوا مقدار حقارتها .

ولمجيء التاء في هذا الموضع علاقة بالمقام الذي ورد فيه القسم ومايعبر عنه من تلك الحال العجيبة التي يتحول فيها موقف هؤلاء المشركين من أصنامهم ومعبوديهم من دون الله تعالى ، من الحب والتقديس والرجاء إلى البغض والازدراء والخيبة ، ومن قوة الاتصال والولاء إلى قوة الانفصال والبراء ، وقد ذكرت قبل قليل أن العناصر المؤكدة التي اجتمعت في السياق تناسب المقام المعبر عنه من جهة مافيه من القوة

---

(١) تفسير أبي السعود ٢٥٢/٦ . وانظر : روح المعاني ١٠٣/١٩ .

(٢) التحرير والتنوير ١٥٣/١٩ .

والمفاجأة ، وأضيف هنا أن التاء تناسب أيضاً هذا الموقف من جهة مافيه من أمور عجيبة ، ومن جهة غرابته بالنسبة لما كان من حالهم مع أصنامهم في الدنيا .

ومن هذا يدرك أيضاً وجهه من وجوه ملاءمة هذه الصيغة القسمية للسياق الخاص الذي وردت فيه ، وهو ما حكيت فيه تلك الأحوال العجيبة للكافرين يوم القيامة، واختصامهم في جهنم بعد سؤالهم عن شركائهم وكبكبتهم وإياهم في نار جهنم ، ومايكون في ذلك الاختصام من التعبير عن مواقف عجيبة منها القسم الذي ورد هنا .

أما مناسبة المقسم به للسياق الذي جاء فيه فظاهرة بما سبق الحديث عنه في قوله تعالى : ﴿ **وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين** ﴾ [١] ؛ لأن هذين القسمين يشتركان في مجيئهما في سياق ماجاء من قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه - في سورتي الأنبياء والشعراء - وما جاء في ذلك من دعوته لهم إلى التوحيد وإبطاله لما هم عليه من الشرك ، والقسم باسم الجلالة مناسب لهذا السياق ، وكثيراً مامر معنا أن القسم بهذا الاسم يكاد يختص بالمواضع ذات العلاقة بسياق الحديث عن الشرك والدعوة إلى التوحيد ، وهذا يضاف أيضاً إلى علاقته بالمقسم عليه المتصل بهذه القضية .

والقسم الصادر من المشركين في هذا المقام - وبخاصة مشركي قوم إبراهيم عليه السلام - يتساوق مع قصته التي حكيت قبل القسم من جهات متعددة ؛ فمن ذلك أن في دعوة إبراهيم عليه السلام لهم في هذه القصة إعلان العداء على كل مايعبدونه من دون الله تعالى - سبحانه - أو يشركون معه في العبادة ، وذلك قوله : ﴿ **فإنهم عدو لي إلا رب العالمين** ﴾ [٢] ، وقد جاء القسم من المشركين يوم القيامة موافقاً لهذا الأمر في كونه إعلاناً للبراءة من أولئك الشركاء .

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٥٧ ، وانظر الموضع السابق .

(٢) سورة الشعراء ، الآية ٧٧ .

ومما يربط القسم بالقصة أن موقفهم في الآخرة من أصنامهم مبني على مارأوه من صدق ما أخبروا به في الدنيا من عدم نصر تلك الحجارة لنفسها ، فهى أولى ألا تنصر غيرها ، وهو ما جاء مصرحاً به في قول إبراهيم لهم في الدنيا : ﴿ **قال هل يسمعونكم إذ تدعون * أو ينفعونكم أو يضرون** ﴾ (١) ، ثم جاء على سبيل تذكيرهم بهذه الحجة في سؤال توبيخي قبيل آية القسم : ﴿ **وقيل لهم أين ماكنتم تعبدون * من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون** ﴾ (٢) ، فكان ذلك كله تمهيداً وتهيئة لصدور هذا القسم معبراً عن شدة التحسر والندم ، وبهذا تتضح جهة من نظم هذا القسم مع ماجاء قبله في قصة إبراهيم عليه السلام . وذكر هذا الأمر في القصة ثم التذكير به في وصف حالهم يوم القيامة وتبكيتهم مما يدل على أن هذا الوصف - كما ذكرنا أول الأمر - داخل في كلام إبراهيم عليه السلام .

ولهذا الموضع القسمي صلة دقيقة بالسورة التي ورد فيها ، وذلك أن سورة الشعراء تتحدث - في مجملها - عن قضية ورود الآيات البينات من الله تعالى وإعراض المكذبين عنها في كل عصر وتماديهم في الكفر والشرك على الرغم من وضوح تلك الآيات في الدلالة على وجود الله تعالى وتوحيده ، وبيان مانالهم من عذاب الله تعالى في الدنيا ، وحمل كفار مكة على الإيمان بالكتاب المبين وماتضمنه من الرسالة .

وقد قامت السورة في سبيل بسط هذا الأمر على افتتاح ذكر فيه إعراض المشركين في مكة عن آيات الكتاب المبين وتكذيبهم بها (٣) ، ثم تلا ذلك عرض لسبع قصص من قصص الأنبياء - عليهم السلام - مع أقوامهم ؛ وهي قصص موسى وإبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب ، وقد روعي في هذه القصص التأكيد على

---

(١) سورة الشعراء ، الآية ٧٢ ، ٧٣ .

(٢) سورة الشعراء ، الآية ٩٢ ، ٩٣ .

(٣) انظر الآيات : ١ - ٩ .

إظهار إعراض الكافرين عن آيات الله البينات (١) ، وذلك يشير إلى الغرض الرئيس في السورة . ثم التفتت السورة بعد ذلك إلى خطاب كفار مكة مخصصة الحديث عن إثبات مصدر القرآن الكريم ، ودعوتهم إلى الإيمان به وبما جاء فيه من الدعوة إلى التوحيد قبل أن يأتيهم العذاب كما فعل بالأمم السابقة .

ولما كان هذا هو الغرض الرئيس في السورة جاء الفصل بين كل قصة وأخرى بقوله تعالى : ﴿ **إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ (٢) ، للتنبيه على الغرض من سوق هذه القصص ، وهو الغرض الرئيس للسورة ، وهو أن الكافرين لايؤمنون بآيات الله تعالى مع وضوح دلالتها على الحق وكفايتها لهدايتهم ، ولكن الله تعالى عزيز في انتقامه ممن أراد منهم تعجيل عقوبته في الدنيا كما فعل بالأمم السابقة ، رحيم في تأجيله عقوبة كفار مكة وإمهاله لهم .

والقسم في هذه السورة ذو صلة وثيقة بالمعنى الرئيس فيها ؛ وذلك أنه قسم مسند إلى أولئك المشركين الذين كانت تأتيهم آيات الله تعالى البينات ، يقسمون بالله تعالى على أنهم كانوا في ضلال مبين إذ لم يتبعوا الرسل ولم يذعنوا للحق المبين ؛ فالحديث عن الكتاب المبين في صدر السورة وإعراض الكافرين عنه ، وما تلا ذلك من ذكر الآيات البينات التي أجراها الله تعالى على يد رسله في القصص التي وردت في

---

(١) انظر الآيات : ١٠ - ١٩١ .

(٢) الآية ٨ ، ٩ عقب الحديث عن كفار مكة وإعراضهم عن الكتاب المبين . وانظر مواضع تكرارها في الآيات ٦٧ ، ٦٨ عقب قصة موسى عليه السلام ، و١٠٣ ، ١٠٤ عقب قصة إبراهيم عليه السلام ، و١٢١ ، ١٢٢ عقب قصة نوح عليه السلام ، و١٣٩ ، ١٤٠ عقب قصة هود عليه السلام ، و١٥٨ ، ١٥٩ عقب قصة صالح عليه السلام ، و١٧٤ ، ١٧٥ عقب قصة لوط عليه السلام ، و١٩٠ ، ١٩١ عقب قصة شعيب عليه السلام .

السورة ، وشيوع فكرة الإبانة على وجه الإجمال [١] ، كل ذلك يناسب اعتراف المشركين يوم القيامة بضلالهم المبين الذي كانوا عليه في الدنيا ؛ ويشير إلى أن من لم يؤمن بتلك الآيات المبينة كان لا محالة في ضلال مبين يضارع إبانة تلك الآيات للحق، وفي ذلك إيماء للكافرين في كل عصر بأنهم إذا أعرضوا عن آيات الله المبينة ، فسيأتي عليهم يوم يعترفون بما هم فيه من الضلال المبين ، موبخين أنفسهم ونادمين على عدم الإذعان لما كان مبيناً واضحاً ·

ومن هذا تظهر مناسبة القسم - على وجه الإجمال - لسورته التي ورد فيها ، واتساقه معها في التعبير عن الغرض الرئيس فيها ·

ومن وجوه ارتباط القسم بالسورة مايلحظ من علاقة قسم المشركين يوم القيامة ومايعبر عنه من موقفهم تجاه أصنامهم ومعبوديهم ، بموقف السحرة من فرعون ، وهو ماورد في أولى قصص هذه السورة ، وجهة العلاقة أن موقف السحرة من فرعون يمثل أنموذجاً آخر لما حدث في القسم الذي بين أيدينا ، وذلك أنهم كانوا يعظمون فرعون ويتخذونه إلهاً كما كان يفعل عامة قومه ، وبلغ بهم ذلك حداً جعلهم يقسمون بعزته

---

(١) من مظاهر شيوع هذه الفكرة في السورة ماجاء في لغتها من تكرار وصف (المبين) فقد افتتحت بقوله : (طسم · تلك آيات الكتاب المبين) الآيه ١ ، ٢ ، وجاء في قصة موسى عليه السلام في وصف ماسيأتي به عن ربه : (قال أو لو جئتك بشيء مبين) الآية ٣٠ ، وفي وصف الثعبان في قوله : (... فإذا هي ثعبان مبين) في الآية ٣٢ ، ثم جاء في قسم المشركين في وصفهم للضلال ، ثم جاء في وصف لغة القرآن وأنه (بلسان عربي مبين) الآيه ١٩٥ ، وجاء خلال السورة تكرار التأكيد على إبانة الآيات التي جعلها الله تعالى دلائل للكافرين في كل عصر ، وذلك؛ قوله : (إن في ذلك لآية · وما كان أكثرهم مؤمنين ..) وقد سبق ذكر مواضع تكرار ذلك وذلك كله يناسب الغرض الرئيس في السورة ، ومن هذا يتبين أن القسم قد ربط بالسورة أيضاً من خلال استعمال صفة (المبين) وكأنها لفظة تشير إلى وجه علاقة القسم بالسورة وجهة صلته بها ، وهذا اتساق مع النسق اللغوي العام في السورة يعضد اتساق القسم مع السورة في غرضها الذي بنيت عليه ·

فيما حكاه الله تعالى عنهم في قوله : ﴿ **فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون** ﴾ [(١)] ، ثم مالبثوا بعد أن رأوا الآيات التي أجراها الله تعالى على يد موسى عليه السلام ، مالبثوا أن تحول موقفهم من معبودهم إلى النقيض، من أقصى درجات التعظيم والولاء والاهتمام إلى أقصى درجات الاحتقار والبراء وعدم المبالاة ، وهذا الموقف يتساوق مع الموقف القسمي الذي يقسم فيه المشركون يوم القيامة معلنين تحول موقفهم من معبوديهم ؛ لأن الموقفين يمثلان أنموذجين من مواقف الغاوين تجاه معبوداتهم : أحدهما يكون في الدنيا حيث ينفع الاعتراف والإيمان ، والآخر في الآخرة يوم لا ﴿... **ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل** ﴾ [(٢)]. وواضح من هذا الارتباط الوثيق بين هذه الأمور والسياق العام للسورة .

وهذا من التناسب البديع الدقيق بين القسمين الواردين في هذه السورة ، وهو يؤيد وجود علاقة خاصة بين مواضع القسم في القرآن الكريم ، وقد أشرت في بعض المواضع السابقة إلى احتمال وجود سياق خاص لهذا الأسلوب في القرآن كله ، وذكرت بعض ملامح هذا السياق في سبيل محاولة الكشف عن خصائصه ودقائقه .

وكما أن القسم يرتبط مع السورة في غرضها الرئيس ، وموضوعاتها الدقيقة ، ومواقفها الخاصة ؛ فإنه يرتبط بها أيضاً من جهة اشتماله على صيغة تجمع بين اسم الجلالة وتاء القسم ، وذلك أن في السورة من الأمور العجيبة والقصص الغريبة والأحداث النادرة مايناسب هذه الصيغة ، ومن أوضح ذلك غرابة ادعاء فرعون الألوهية ، ومعجزات موسى عليه السلام وقصته مع السحرة وما جاء من صور السحر العجيبة ، ثم معجزة انفلاق البحر ، ثم ماتضمنته القصص المذكورة من وجوه الهلاك العجيبة النادرة في نوعها وكيفيتها ، التي أهلك الله تعالى بها المكذبين بدلائل الوحدانية التي جاء بها الرسل ، ففي جميع ذلك غرابة ذات صلة بقضية التوحيد بوجه

---

(١) سورة الشعراء ، الآية ٤٤ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية ١٥٨ .

من الوجوه ، ولهذا جاءت صيغة القسم في هذا الموضع ذات نسق يجمع بين اسم الجلالة وتاء القسم ·

ومن وجوه اتساق صورة القسم مع السورة أنها سورة يتكرر فيها قوله تعالى : (إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين) [١] على سبيل المبالغة في التعجب من تكذيب الكافرين ، مع ماعندهم من الدلائل الواضحات البينات ، والقسم المحكي عن المشركين يوم القيامة فيه تعجب من هذا الأمر نفسه ، ولهذا جاءت صيغة (تالله) في صورة هذا القسم ، وهذا تناسب دقيق جداً ·

وبعد ، فقد رأينا في هذا الموضع دقة اختيار العناصر اللغوية فيه ومناسبتها لغرض المتكلمين وللمقام الذي يقسمون فيه ، وتعبير تلك العناصر عن حركة نفوسهم في ذلك المقام ، ثم وقفنا على بعض خصوصيات اختيار المقسم به وصيغة القسم في هذا الموضع ، ووجه اختصاصها بالمقسم عليه ، وبالمقام ، وبالسياق الخاص الذي جاء فيه القسم ، ثم مناسبة جميع عناصر القسم للسياق العام للسورة واتساقها مع أدق الدلالات التي اشتملت عليها السورة ، وكل ذلك يشير إلى أن هذا القسم قد جاء في اختيار عناصر أسلوبه بما يناسب جميع ذلك ؛ فهو - على تعدد علاقاته مع غيره في السورة - يفي بدلالات الموقع الخاص والموقع العام في بلاغة معجزة يظهر بها وجه اختصاص هذا الموضع من مواضع القسم في القرآن الكريم بالموقع الذي ورد فيه ، وعلاقته الوثيقة والدقيقة به ·

(١) تقدم ذكر مواضع ورود هذه الآية في السورة ·

العلاقة بين قسم إبراهيم عليه السلام وقسم المشركين :

الذي دعا إلى محاولة البحث في وجوه الارتباط بين هذين القسمين هو ورود قسم المشركين في سياق قصة إبراهيم عليه السلام من سورة الشعراء ، ومعنى هذا أن القسمين يردان في سياق واحد ؛ وهذا يلفت المتأمل إلى ضرورة تتبع مابين القسمين من صلات .

وأهم وجوه العلاقة بين هذين القسمين هو كون قسم المشركين الذي حكي عنهم وهم يختصمون في النار يصدر أيضاً من قوم إبراهيم عليه السلام ، بل ربما كان لهم مزيد اختصاص به ؛ لأنه يرد في سياق ماجاء من قصتهم معه في السورة نفسها (سورة الشعراء) وبهذا يكون القسم الصادر من المشركين في قوله تعالى : ﴿ **قالوا تالله إن كنا لفي ضلال مبين** ...) [١] الآيات ، من مقول أولئك الذين كان يدعوهم إبراهيم عليه السلام إلى عبادة الله وحده ؛ فلم يستجيبوا .

وعلى هذا فالقسم المحكي عن المشركين ذو صلة وثيقة بالقسم الذي حكي عن إبراهيم عليه السلام فيما جاء من قصته معهم في سورة الأنبياء ، في قوله تعالى : ﴿ **وتالله لأكيدن أصنامكم** ...﴾ [٢] ؛ وذلك أن القسم هناك قسم منه لهم بهذه الصيغة (تالله) يتوعد فيه بالكيد لأصنامهم في سياق دعوته لهم إلى التوحيد ، والقسم هنا قسم منهم بالصيغة نفسها على أنهم كانوا في ضلال مبين، إذ كانوا يدعون فلا يستجيبون ، وينصحون فلا ينتصحون ؛ فقسمهم مرتبط بقسم إبراهيم أشد الارتباط .

ومما يؤكد وجود هذه العلاقة مانراه من المقابلة الدقيقة بين عناصر القسمين ، وموقعيهما ، ومصدريهما ، ومكانهما ، وزمانهما ، والمقسم عليه فيهما ، والأغراض والدلالات الخاصة في كل منهما؛ وذلك أن القسم الأول صادر من إبراهيم عليه السلام

---

(١) سورة الشعراء ، الآية ٩٧ ، وانظر الآيات : ٩٦ - ٩٩ .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية ٥٧ .

بصيغة (تالله) ، وهو قسم يقسم به في الدنيا في سياق دعوته لقومه إلى التوحيد ، وهو ذلك السياق الذي يثبت لهم فيه عجز الأصنام التي يعبدونها ، وكونهم ضالين في اتخاذها آلهة ، فيقول لهم في الموقع نفسه : ﴿ **لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين** ﴾ (١) ، أما الآخر فقسم صادر في الآخرة من المشركين الذين كانوا يدعون ، في سياق تحسرهم وندمهم، معترفين بما نسبه إليهم إبراهيم عليه السلام من الضلال المبين ، بعد أن رأوا عجز تلك الأصنام ورأوا سوء عاقبتهم ، مقسمين بالصيغة المماثلة لقسم إبراهيم (تالله) ، وهذا تناسب بديع .

ومن وجوه المقابلة بين القسمين أن قسم إبراهيم عليه السلام قد ترتب عليه إضرام النار له لإحراقه ، فنجاه الله تعالى بقدرته فكانت برداً وسلاماً عليه ، على حين يقسم المشركون في نار جهنم التي لم ينقذهم منها تشبثهم بما كانوا عليه من الشرك ، ولم يجدوا عند أصنامهم النصرة ، ولهذا كان مما صرحوا به في السياق قولهم : ﴿ **فما لنا من شافعين * ولا صديق حميم** ﴾ (٢) ؛ وهو ماجاء التأكيد عليه في دعوة إبراهيم عليه السلام لهم في الموضع الأول ، وجاء أيضاً في سؤالهم عن معبوداتهم ونصرتها لهم أو لأنفسها في الموضع الآخر . وهذا وجه من الارتباط بين الموضعين - دقيق .

وصيغة القسم المتماثلة في الموضعين تختص - كما ذكر - بالمعاني النادرة والغريبة والبعيدة ، وذلك - في ضوء ماذكر من العلاقات بين الموضعين - يشي بالموقف العجيب النادر الذي يرى فيه المشركون من قوم إبراهيم يقسمون على صحة مانسبه إليهم إبراهيم - عليه السلام - من الضلال المبين ويتنصلون من شركهم ، وهم الذين بلغ من تمسكهم بذلك الضلال أن أمروا بحرقه ؛ ففي اتحاد صيغة القسم في الموضعين ربط وثيق يشير إلى بعد مابين موقفهم في الدنيا وموقفهم في الآخرة ، وإلى

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٥٥ .

(٢) سورة الشعراء ، الآية ١٠٠ ، ١٠١ .

وجه الغرابة في ذلك ، لاسيما وهم يقسمون بما أقسم به إبراهيم من قبل .

ومن عجيب النظم القرآني أنك ترى هذين القسمين يردان - وإن كانا متباعدين في موقعيهما من القرآن الكريم - يردان في سياق واحد ، ويتشابهان في النسق اللغوي المقسم به ، وفي كثير من العناصر والدلالات ، وكأنهما قد وردا في موضع واحد ، فانظر إليهما كيف تجاذبا وائتلفا ! وهذا يشير إلى أن لمواضع القسم في القرآن الكريم سياقاً خاصاً يصل بينها ، وإن تباعدت مواقعها ، وأن من شأن هذا السياق أن يهدي من تتبعه إلى كثير من خبايا هذا الأسلوب في الكتاب العظيم [١] .

وليس أدل على ذلك من أن هذا القسم الذ ي حكي عن المشركين - مع علاقته بموقعه وسياقه ، وبقسم إبراهيم عليه السلام - تربطه كذلك صلات وروابط وثيقة بالقسم الذي سيأتي الكلام عليه ، وهو قسم المؤمن في الجنة ، وسنتناول هذا الجانب بعد دراسة القسم الصادر من المؤمن في الجنة .

---

(١) لقد مضى من أمثال ذلك في هذا الفصل : تتبع السياق الذي يربط بين الأقسام الأربعة التي وردت في سورة يوسف ، واتحدت عناصرها وكثير من دلالات القسم فيها ، ومضى ذلك أيضاً في قسم الله تعالى بـ (تالله) في سورة النحل ، وملاءمة هذه المواضع بعضها لبعض حتى لايمكن التخلي عن النظر إليها وفق مابينها من ترابط وتلاؤم .

رابعاً - القسم بـ (تالله) في سياق حكاية أحوال القيامة

الموضع الأول : قسم المشركين في النار :

قوله تعالى : ﴿ **تالله إن كنا لفي ضلال مبين** ﴾ (١) ، وقد تقدم في المبحث السابق الحديث عنه لعلاقته بسياق قصة إبراهيم عليه السلام ٠

الموضع الثاني : قسم المؤمن في الجنة :

قوله تعالى : ﴿ **قال تالله إن كدت لتردين * ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين *أفما نحن بميتين * إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين** ﴾ (٢) .

يأتي هذا القسم في سياق حديث المؤمنين بعضهم إلى بعض بعد أن دخلوا الجنة ؛ { فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون * قال قائل منهم إني كان لي قرين * يقول أإنك لمن المصدقين * أإذا متنا وكنا تراباًوعظاماً أإنا لمدينون * قال هل أنتم مطلعون . فاطلع فرآه في سواء الجحيم * قال تالله إن كدت لتردين * ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين * أفما نحن بميتين * إلا موتتنا الأولى ، وما نحن بمعذبين * إن هذا لهو الفوز العظيم * لمثل هذا فليعمل العاملون } (٣) .

وهذا قسم صادر من أحد المؤمنين في الجنة ، يخاطب به قرينه الكافر الذي كان ينكر البعث والحساب ، وكاد أن يغويه بما يزين له من الكفر ، وذلك أنه أراد أن يطلعه الله تعالى على مكانه يوم القيامة ، فأطلعه الله عليه فرآه في سواء الجحيم فقال له : تالله إن كدت لتردين ٠٠٠ الآيات ٠ وقيل : إن ما حكي هنا قد كان بين أخوين في الدنيا أحدهما مؤمن والآخر كافر ، وقيل : إنهما شريكان من بني اسرائيل كان أحدهما مؤمناً متصدقاً وكان الآخر ينكر البعث والجزاء ، وقصتهما مبسوطة في

---

(١) سورة الشعراء ، الآية ٩٧ ٠

(٢) سورة الصافات ، الآية ٥٦ - ٥٩ ٠

(٣) انظر الآيات : ٥٠ - ٦١ من سورة الصافات ٠

كتب التفسير ، وقيل : القرين هو إبليس [١] . وأيأما كان المراد فإن دلالات القسم مبنية على أن الخطاب هنا صادر من مؤمن في الجنة وموجه إلى كافر في النار ، كان بينهما ما كان في الدنيا مما حكته الآيات .

والمقسم به هنا هو اسم الجلالة مقروناً بالتاء : (تالله) ، والمقسم عليه المؤكد هو قوله : (. . . إن كدت لتردين . لولا نعمة ربي لكنت من المحضرين) ، أي : لقد كدت أن تهلكني بإغوائك ولكن الله تعالى وفقني للتمسك بالإسلام والإيمان ،والبعد عن قرين السوء ، وأرشدني إلى توحيده ، وأنعم علي بكوني من أهل الجنة ، ولولا فضل الله عليّ وتوفيقه لكنت من المحضرين في العذاب مثلك [٢] . وقيل: إن (أحضر) لايستعمل مطلقاً إلا في الشر [٣] . وقوله : (أفما نحن بميتين . إلا موتتنا الأولى ومانحن بمعذبين) إما أن يكون من كلامه لقرينه فهو من المقسم عليه ، والمراد به تقريعه والتنكيل به ، وإما أن يكون معاودة إلى كلامه مع جلسائه في الجنة يراد بها التعبير عن فرحه والتعريض لقرينه بالتوبيخ [٤] ، وفي كلا الأمرين معنى يخص المقسم له هنا .

وقد جاء المقسم عليه مؤكداً بـ (إن) المخففة من الثقيلة ، وضمير الشأن المحذوف الذي هو اسمها ، واللام الفارقة في خبرها ، وفوق ذلك أكد بالقسم باسم الجلالة وهو أقوى القسم .

والمخاطب بهذا القسم - وهو القريـــــن الذي رآه المؤمن في النار - لايحتاج إلى مجرد الإخبار بهذا الأمر فضلاً عن تأكيده له واستعمال أقوى المؤكدات في

---

(١) انظر : معاني القرآن للفراء ٣٨٥/٢ ، ودرة التنزيل وغرة التأويل ص ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، والبرهان في توجيه متشابه القرآن ص ١٦٢ ، وتفسير البغوي ٢٨/٤ ، وتفسير ابن كثير ٨/٤ ، ٩ .

(٢) انظر : تفسير البغوي ٢٨/٤ ، وتفسير القرطبي ٨٤/١٥ ، والبحر المحيط ٣٦٢/٧ ، وتفسير أبي السعود ١٩٣/٧ .

(٣) تفسير القرطبي ٨٤/١٥ ، وفتح القدير ٣٩٧/٤ .

(٤) تفسير البيضاوي ص ٥٩٢ ، والبحر المحيط ٣٦٢/٧ ، وانظر : روح المعاني ٩٣/٢٣ .

مخاطبته ، وهذا يعني أن لهذه المؤكدات في هذا الموقف أغراضاً أخرى .

وبتتبع سياق هذا القسم والمقام الذي يقال فيه تظهر بعض أغراض هذه المؤكدات ، وذلك أنه - كما يقول الزمخشري - قسم « يقوله المؤمن تحدثاً بنعمة الله واغتباطاً بحاله وبمسمع من قرينه ليكون توبيخاً له يزيد به تعذيباً ، وليحكيه الله فيكون لنا لطفاً وزاجراً » (١) . وفي ضوء هذا فإن قوة التوكيد في هذا الخطاب تعبر عن شدة تمكن الفرحة والغبطة من نفس هذا المؤمن الذي صدر عنه هذا القسم ، وتعبر أيضاً عن احتفاله الأكيد واعتداده القوي بالمقسم عليه ، وهو كونه قد نجا من كيد قرينه مع مافي ذلك من الصعوبة ، ويشير التوكيد أيضاً إلى عظم شأن هذه النعمة واستحقاقها للتنويه بها ، وذلك أنه قد اجتمع له في هذا المقام التنعم بالثواب المقيم والنجاة من عذاب الجحيم .

وقد أشار نص الزمخشري إلى أمر يدخل في أغراض هذا القسم ومؤكداته ، وذلك أنه قسم يقال بمسمع من قرينه الذي كان يزين له الكفر ، وهو يعذب في الجحيم، وفي ذلك التأكيد توبيخ له ، وقد ذكر معنى التوبيخ في هذا الخطاب بعض المفسرين (٢) ؛ فدخول تلك المؤكدات في مثل هذا المقام يعبر عن قوة التوبيخ والتقريع؛ لأن التقريع على ما أنكر يقع - كما يقول الخطيب الإسكافي - « إذا تحقق وحصل فيه من كفر » (٣) ، ويعبر التوكيد كذلك عن غلظته في خطاب قرينه .

ولهذا القسم والمؤكدات التي وردت في جوابه غرض توجيهي أشار اليه الزمخشري أيضاً بقوله : « وليحكيه الله فيكون لنا لطفاً وزاجراً » (٤)، وذلك أن ما

---

(١) الكشاف ٣ / ٣٤٢ .

(٢) انظر : التفسير الكبير ١٣٩/٢٦ ، وتفسير البيضاوي ص ٥٩٢ ، والبحرالمحيط ٣٦٢/٧ ، وروح المعاني ٩٣/٢٣ .

(٣) درة التنزيل وغرة التأويل ص ٣٩٤ .

(٤) الكشاف ٣ / ٣٤٢ .

في هذه المؤكدات من الدلالة على عظم النعمة وشدة الفرح والغبطة بها ، وعلى حقارة شأن ذلك القرين ومايكون فيه من العذاب والتوبيخ والتقريع - يدفع المسلم إلى الحرص على أن ينال هذا الأمر العظيم الذي بلغ من عظمته وفرحة نائله ماصورته تلك المؤكدات ، ويزجره عن البعد عن الإيمان الموصل إلى هذا الفوز العظيم ، وعن اتباع قرناء السوء لئلا يكون مصيره مصيراً مماثلاً لما عبر عنه هذا الموقف القسمي من حال القرين وأتباعه ·

ويشير البقاعي إلى غرض من أغراض هذا التوكيد القسمي والمؤكدات التي اشتمل عليها جوابه، ذي صلة بغرابة الخبر المقسم عليه واستبعاد وقوعه ، وذلك أنه « لما كان لايقع في فكر أنه [1] كان يلتفت إلى قوله [2] هذا نوع التفات لأنه ظاهر البطلان ، ولأن هذا القائل محكوم بأنه من أهل الجنة ؛ أكد قوله إشارة إلى أنه كان يؤثر فيه قوله في كثير من الأوقات بما يزينه به الشيطان وتحسنه النفوس بالشهوات والراحة من كلف الطاعات ، وساقه في أسلوب القسم تنبيهاً على التعجب من سلامته منه ، فقال : (تالله إن كدت لتردين) أي إنك قاربت أن تهلكني وتجعلني في أردأ مايكون من الأماكن وفي هذا التأكيد غاية الترغيب في الثبات لمن كان قريباً من التزلزل وفي المباعدة لقرناء السوء » [3] .

وواضح في النص أيضاً علاقة القسم بمعنى التعجب ، وسيأتي الكلام على ذلك، وواضح فيه كذلك أن التوكيد يزيد من الترغيب في الثبات لمن أوشك على التزلزل ، ومن الترغيب في المباعدة لقرناء السوء ، وهو ماذكرناه في الغرض التوجيهي لأساليب التوكيد في هذا السياق ·

ومما سبق يتضح أن للتوكيد في هذا المقام أغراضاً ترجع إلى المتكلم تعبيراً عما

---

(١) أي المؤمن ·

(٢) أي قول القرين الذي أخبر عنه أنه قال له : (أإنك لمن المصدقين · · ·) الآيات ·

(٣) نظم الدرر ١٦ / ٢٣٦ ·

في نفسه من معان قد تأكدت ورسخت ، أو أخرى يريد أن يلفت إليها سامعيه بما فيهم قرينه الكافر الذي يسمعه الآن ٠

ويزيد من قوة هذه الدلالات المستفادة من اجتماع عناصر التوكيد في السياق - وقوع القسم موقع الاستئناف البياني ، وذلك أن « جملة (قال تالله إن كدت لتردين) مستأنفة استئنافاً بيانياً لأن وصف هذه الحالة [١] يثير في نفس السامع أن يسأل : فماذا حصل حين اطلع ؟ فيجاب بأنه حين رأى قرينه أخذ يوبخه على ما كان يحاوله منه حتى كاد أن يلقيه في النار مثله ٠ وهذا التوبيخ يتضمن تنديمه على محاولة إرجاعه عن الإسلام » [٢] ٠

والمقسم به هنا هو اسم الجلالة مقروناً بالتاء ، وسنقف أولاً عند خصوصيات اختيار القسم بهذا الاسم في هذا الموضع ٠ فمن ذلك أن المقسم به - بما فيه من الدلالة على توحيد الله تعالى - يؤكد معنى البعث والجزاء ، وهو المعنى المشترك بين القائل من أهل الجنة وقرينه الذي في النار ، وذلك أن إثبات الوحدانيه يقتضي صدق الموعود به من البعث والجزاء لتلازم مابينهما ، فقضية التوحيد مرتبطة بالمعاد ، وعلى هذا فإن في ذكر هذا الاسم تذكيراً بالقضية الرئيسة التي بني على الإيمان بها أو جحدها مآل كل منهما ، فناسب أن يقسم به في موقف قد استقر فيه كل منهما في مكان جزائه ٠

وتأسيساً على هذا المعنى يمكن أن نرى بين عنصري القسم - المقسم به والمقسم عليه - ارتباطاً ومناسبة من جهة أن إنكار المخاطب للبعث يتضمن اتحاد المصير بالنسبة للمؤمن والكافر ، لأنهما في معتقده الفاسد يصيران إلى التراب ، ففي القسم باسم الجلالة في ذلك المقام الذي ظهر فيه بطلان ذلك تعريض بمزاعم القرين التي كان يزعمها ، وتأكيد لما صار إليه ذلك الزعم من حقائق تبدى فيها عدم اتحاد المصير ،

---

(١) أي حالة اطلاعه على النار ٠

(٢) التحرير والتنوير ٢٣ / ١١٧ ٠

لما في هذا الاسم العظيم من معان ذات علاقة بمثل هذه الدلالات ، وكأن المؤمن حين يقسم بهذا الاسم في هذا الموقف يقول لقرينه : تالله الذي لا إله إلا هو الواحد إن المصير ليس بواحد ، وإن كدت لتهلكني بإغوائك حتى أوقع فيما وقعت فيه من العذاب . وقد يكون فيه تعريض بأن طريق النجاة واحد لا ثاني له وقد كان الأولى بقرينه أن يجري هذا الحكم على هذا الطريق ، لا على مطلق المصير ، وفي ذلك تعضيد لما ذكرناه قبل قليل من معنى التقريع والتوبيخ . ولعل في هذه العلاقة شبهاً بعلاقات القسم بـ (تالله) بالمقسم عليه فيما مضى تناوله من مواضع القسم في سورة يوسف عليه السلام .

ولاختيار المقسم به هنا علاقة بما في نفس المقسم من الاعتداد بيقينه بما يتضمنه هذا الاسم العظيم من معنى التوحيد ، وما يجمعه من معاني أسماء الله تعالى وصفاته ، وفيها مما يخص هذا المقام دلالات مناسبة ؛ وذلك أن من نعمة الله تعالى أن هداه إلى توحيده ، ونجاه من عقابه ، وأعظم له الجزاء والمثوبة والرحمة ، يقول ابن كثير في تفسير قوله : (ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين) [1] : « أي ولولا فضل الله علي لكنت مثلك في سواء الجحيم حيث أنت ، محضر معك في العذاب ، ولكنه تفضل علي ورحمني فهداني للإيمان وأرشدني إلى توحيده »[2] .

فلما كان في معنى المقسم عليه أمور مما اختص الله تعالى بها ، وكان فيها من إنعامه سبحانه ما لبعض أسمائه مزيد اختصاص به ، ذكر في المقسم به مايفي بمقتضيات هذا السياق ، فجاء باسم الجلالة الجامع لمعاني الأسماء الحسنى والصفات التي تحقق له بفضلها وخصائصها ما تضمنه المقسم عليه ، والتي رأى آثارها في ذلك اليوم العظيم ، وبالاسم المشير إلى التوحيد الذي ترتبت كل تلك النعم عليه ، ولكنه لما خص هذا الإنعام بالذكر في جزء من المقسم عليه جاء بالاسم المناسب وهو اسم الرب

---

(١) سورة الصافات ، الآية ٥٧ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤ / ٨ .

تعالى فقال : ﴿ **ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين** ﴾ [(١)] .

أما مجيء التاء مع اسم الجلالة ؛ فقد ذكر أبو حيان [(٢)] أنه يدل على التعجب من سلامته من ذلك القرين لأنه قارب أن يرديه ، وتبعه فيه بعض المفسرين [(٣)] .

وفي نص البقاعي الذي تقدم في بيان الغرض من التوكيد مايوضح هذا الوجه ، وذلك ما أشار إليه التوكيد من أن هذا القرين - مع توفر أسباب عدم الإذعان له ، ، وكون الالتفات إليه مما لايقع في فكر - كان يؤثر فيه بتزيينه وبما في النفس من الميل الى الشهوات حتى كاد أن يرديه ، وهذا موقف يتعجب فيه من غرابة نجاته وسلامته منه مع قوة تأثيره وصعوبة الخروج من حبائله ، وكثرة ما كان يسلكه معه من أساليب المكر والإغراء لإغوائه ، لأن في النجاة من الأمر - مع توفر الدواعي على الوقوع فيه - غرابة وندرة تستأهل أن يتعجب منها وأن يلفت إليها بالتأكيد .

ولعل في هذا الوجه إشارة أيضاً إلى أن ذلك الأمر لصعوبته وتعذره في مثل تلك الظروف ما كان ليتأتى إلا بقدرة الله تعالى ونعمته عليه ، وقد تضمن المقسم عليه مايشير إلى هذا المعنى ، وهو قوله : ﴿ **ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين** ﴾ [(٤)] .

ويرى ابن عاشور أن محل الغرابة هنا - بالإضافة إلى غرابة خلاصه من قرينه - « اختلاف حال عاقبتهما مع ما كانا عليه من شدة الملازمة والصحبة ، وما حفه من نعمة الهداية وما ورّط قرينه في أوحال الغواية » [(٥)] .

ويمكن النظر إلى إشعار المؤمن قرينه باختلاف عاقبتيهما بالقسم بالتاء،في ضوء

---

(١) سورة الصافات ، الآية ٥٧ .

(٢) البحر المحيط ٣٦٢/٧ ، والنهر الماد (بهامش البحر المحيط) ٧/ ١٥٩ .

(٣) انظر : روح المعاني ٩٣/٢٣ ، والتحرير والتنوير ١١٧/٢٣ .

(٤) الآية ٥٧ .

(٥) التحرير والتنوير ١١٧/٢٣ ، ١١٨ .

ما كان يجتهد هذا القرين في إنكاره ، وذلك أنه - أي القرين - كان يرى أن المصير واحد وهو الفناء ، وأن لا بعث ولا حساب ولا جزاء يتفاوت به حالا المؤمن والكافر ، ففي قسمه له بهذه الصيغة تعجب من موقفه الذي كان يعتد به في الدنيا ، وذلك في مقام نيل الجزاء وتمكن كل منهما في مصيره الذي صار إليه .

ولهذا الملحظ صلة بحركة نفسيه قوية جداً ؛ إذ يتوصل من تأمله إلى أن المؤمن وهو في الجنة يخاطب قرينه وهو في النار فيدرك بعد ما بين العاقبتين ، ويصبح في حال يتهيأ له معها أن يتعجب من الفرق الكبير بين ماهو فيه من نعيم وما كان يمكن أن يؤول إليه مما رآه حين اطلع على الجحيم ، وتأتي صيغة القسم الصادر منه في هذا الموقف النفسي القوي في انفعاله وحركته ؛ للتعبير عن معان انبثقت في نفسه في ذلك الموقف .

وليس استعمال التاء في هذا القسم ببعيد عما ذكرناه من شدة فرح هذا المؤمن وغبطته بما آل من الفوز بالجنة والنجاة من النار ، واستشعار عظم النعمة التي أنعم الله تعالى بها عليه ، فهذه انفعالات نفسيه جاءت هذه الصيغة ناقلة لها ، وهذه صيغة تتآزر في دلالتها مع ماجاء من عناصر التوكيد التي سبق الحديث عنها .

وبهذا فإن صورة القسم في هذا الموضع تناسب حال المقسم عليه والمقسم له ومقام القسم ، وحال المقسم الذي صدر منه القسم .

ومع مناسبة صورة القسم لجميع ذلك فإن بينها وبين سياقها الخاص الذي وردت فيه من سورة الصافات تناسباً يقوي صلة القسم بهذا الموقع الخاص من السورة .

ومن وجوه هذا التناسب أن القسم هنا موجه من المؤمن في الجنة إلى قرينه الذي كان ينكر البعث ويؤمن بأن المصير في الآخرة واحد ؛ فأقسم له يوبخه بما علم من تفاوت مصيريهما بعد أن دخل الجنة ثم اطلع عليه فرآه في سواء الجحيم ، ولما كان المقسم عليه على هذا النحو ؛ جاء القسم في سياق خاص يعرض فيه حال أهل الجنة

ونعيمهم [(١)] ، وحال أهل النار وعذابهم [(٢)] ، فاشتمل على هذين الوصفين ، وبهذا ينتظم القسم مع هذا السياق لأنه قسم يشير بعناصره وأغراضه إلى هذين المصيرين ، وعلى هذا يقوم معناه ·

ولما كان الوصول إلى أحد هذين المصيرين مبنياً على الإيمان بوحدانية الله تعالى وقدرته على كل شيء أو الكفر بذلك ؛ جاء القسم باسم الجلالة – وهو ذو صلة بمعنى التوحيد – في السياق الذي فصلت فيه السورة حال الفريقين ، وعلى هذا فإن للقسم موقعاً دلالياً هاماً يلفت بقوة إلى القضية الرئيسية المعول عليها في الحالين ·

ومن وجوه اتصال القسم بسياقه الخاص أن إنكار قرين المقسم هنا قد جاء على سبيل التعجب من حصول البعث والجزاء إذ ﴿ **يقول أإنك لمن المصدقين * أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمدينون** ﴾ [(٣)] ، قال ابن كثير : « أي أأنت تصدق بالبعث والنشور والحساب والجزاء ، يعني يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد والكفر والعناد » [(٤)] ؛ فلما كان إنكار قرينه قد جاء في صورة التعجب من الأمر المنكر وهو البعث ؛ جاء القسم من هذا المؤمن ذا صيغة دالة على التعجب ، وكأنه رد على ذلك الموقف الذي كان منه ، أي أنه كما كان القرين يتعجب من إيمانه في الدنيا ، فإنه يتعجب الآن مما آل إليه هذا القرين ، ومن كونه كاد أن يورده ذلك المصير ·

ويتفق مع هذه الدلالة ما جاء له الاستفهام في قوله : ﴿ **أفما نحن بميتين * إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين** ﴾ [(٥)] ؟ ؛ لأن من دلالات هذا الاستفهام

---

(١) انظر الآيات : ٤٠ – ٦١ ·

(٢) انظر الآيات : ١٩ – ٣٩ ، و ٦٢ – ٧٣ ·

(٣) الآية ٥٢ ، ٥٣ ·

(٤) تفسير ابن كثير ٤ / ٨ ·

(٥) الآية ٥٨ ، ٥٩ ·

- على أنه خطاب من المؤمن لجلسائه في الجنة - التعجب من عظم النعمة وتكامل السعادة لأن من كان في مثل حاله تلك قد يقول : أيدوم لي هذا ؟ وإن كان على يقين من دوامه ·

وبهذا تتناغم دلالات الأساليب في السياق مع دلالة القسم الوارد فيه تناغماً يؤاخي بين العناصر الدلالية لتؤدي في تكامل بديع الدلالة العامة للسياق ·

وبين القسم الذي بين أيدينا وسورته التي ورد فيها اتصال وثيق ؛ فهو كما يتصل بالجزء الخاص الذي ورد فيه من السورة ، يتصل أيضاً بالسياق العام للسورة ·

وأول ذلك أن هذه السورة تؤكد على إثبات التوحيد من جهة خاصة ذات صلة بما كان يزعمه كفار قريش من نسبة البنات إلى الله - سبحانه - وجعلهم الملائكة إناثاً ، وقولهم أن بينه وبين الجنة نسباً ؛ ولهذا تبدأ السورة بقسم يقسم فيه الله تعالى على إثبات وحدانيته ، ويكون المقسم به في هذا القسم الملائكة ، وذلك في قوله تعالى : **﴿ والصافات صفا * فالزاجرات زجرا * فالتاليات ذكراً * إن إلهكم لواحد * رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق ﴾** [1] .

ثم يأتي عقب هذا القسم الحديث عن الشياطين وهم في موقع الخزي ؛ إذ يقذفون بالشهب [2] ، ويأتي في أثناء السورة تشبيه ثمار شجرة الزقوم برؤوس الشياطين في القبح [3] ، وفي ذلك إيماء إلى بعد زعم المشركين الذي زعموا في صلة الخالق - سبحانه - بها · ، ثم تعرض السورة بعد ذلك الافتتاح وصف أحوال أهل النار

---

(١) الآيات ١ - ٥ ·

(٢) في الآيات ٧ - ١٠ ·

(٣) في الآيات ٦٢ - ٦٨ ·

وأهل الجنة وبعض القصص المؤيدة لموضوع السورة [١] ، ثم لاتلبث أن تعود إلى الموضوع الرئيس فتبسط القول فيه ، وذلك من قوله تعالى : ﴿ **فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون * أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون** ﴾ [٢] إلى قوله سبحانه : ﴿ **وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون * سبحان الله عما يصفون** ﴾ [٣] . ثم تختتم السورة بالوعيد لأصحاب هذا القول [٤] .

ولما كانت السورة تتجه إلى إثبات قضية التوحيد من جهة الرد على هذه الفرية الغريبة ، وهذا الشرك العجيب ، جاءت صورة القسم الذي ورد في السورة مساوقة لهذا الاتجاه من ناحيتيه ، فجمعت القسم باسم الجلالة واستعمال التاء في الأسلوب ؛ لأن هذه الصورة القسمية ذات اختصاص بقضية التوحيد وبالتعبير عن التعجب والاستغراب من الأمور التي يتأتى فيها ذلك ، وقد سبق أن وقف البحث على صلة القسم باسم الجلالة مع التاء بمثل هذه الوجوه الشركية الغريبة وبخاصة نسبة الولد إلى الله تعالى وتأنيث الملائكة ، وتكاد هذه الصلة تطرد حتى تصبح ظاهرة أسلوبية في القسم بـ (تالله) .

ويتسق هذا القسم أيضاً مع السورة، في ميلها العام إلى عرض قضاياها في

---

(١) انظر الآيات ١١ - ١٤٨ . مما يشهد بأن هذا الجزء من السورة يمثل عرضاً خاصاً لموضوعات تؤيد الغرض الرئيس للسورة التفتت إليه الآيات ثم عادت ، مما يشهد بذلك أن الآية « تبدأ بقوله : << فاستفتهم >> وهي الكلمة ذاتها التي تبدأ بها الآية ١٤٩ : (فاستفتهم ألربك . . .) وهي موضع العودة إلى الغرض الأول الذي افتتحت به السورة وكأن هذه الكلمة بوقوعها في صدر موقعي الالتفات والعودة،علامة ومفتاح هام لقراءة هذا الجزء من السورة بوصفه استطراداً واستدلالاً لموضوع السورة ، وهي بهذا لافت قوي إلى الربط بين ماقبلها ومابعدها .

(٢) الآية ١٥٩ ، ١٥٠ .

(٣) الآية ١٥٨ ، ١٥٩ .

(٤) انظر الآيات ١٦١ - ١٨٢ ، وهي آخر السورة .

حكاية إنكار منكريها وفي إثباتها، بأسلوب تعجبي صورته الاستفهام [١] .

ويردف هذا الموضوع إثبات قضية البعث والجزاء [٢]،ويصاحب عرض هذه القضية وصف أحوال الذين ظلموا يوم الدين [٣] ، وتربط الآيات بين مصيرهم وسبب شقائهم في قوله تعالى : ﴿ **احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون ۞ من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم** ﴾ [٤] ، وهو اتخاذ الشركاء من دون الله تعالى ، ويؤكد هذا المعنى أيضاً في قوله تعالى : ﴿ **إنا كذلك نفعل بالمجرمين ۞ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون** ﴾ [٥] ، ثم يؤكد أيضاً في آيات تالية لهذه الآيات ويأتي استثناء عباد الله المخلصين من العذاب في قوله : ﴿ **إنكم لذائقوا العذاب الأليم ۞ وماتجزون إلا ماكنتم تعملون ۞ إلا عباد الله المخلصين ۞ أولئك لهم رزق معلوم** ﴾ [٦] .

فكل هذه الآيات تؤكد أن القضية التي يحاسب عليها هؤلاء المعذبون إنما هي الشرك بالله تعالى وعدم الإيمان بوحدانيته ، ولذلك لاينجو من هذا العذاب إلا الموحدون ، وهؤلاء هم الذين ورد وصف حالهم في الجنة [٧] ، وهم الذين (قال قائل منهم إني كان لي قرين ...) الآيات ، ثم أقسم مؤكداً البعث والجزاء الذي كاد قرينه أن يصده عنه ، ومشيراً باختياره لاسم الجلالة في القسم إلى التوحيد الذي به فاز ذلك الفوز العظيم ، وبالبعد عنه هوى قرينه في سواء الجحيم ، وهذه هي علاقة القسم بهذا

---

(١) انظر الآيات : ١١-١٧ ، ٢٥ ، ٣٦ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٨ -٥٩ ، ٧٣ ، ٨٥ - ٨٧ ، ٩١ -٩٢ ، ٩٥ ، ١٢٤ - ١٢٦ ، ١٣٨ ، ١٤٩ - ١٥٧ ، ١٧٦ .

(٢) انظر الآيات : ١١ - ١٩ .

(٣) انظر الآيات : ٢٠ - ٣٩ .

(٤) الآية : ٢٢ ، ٢٣ .

(٥) الآية ٣٥ ، ٣٦ .

(٦) الآيات ٣٨ - ٤١ .

(٧) انظر الآيات : ٤٠ - ٦١ .

الموضوع الذي صاحب عرض قضية التوحيد .

ولهذا المعنى تأتي موضوعات السورة والقصص التي وردت فيها مؤكدة على أخذ الله تعالى للمجرمين المشركين واستثناء عباده المخلصين من ذلك ، وتكرر هذا الاستثناء في السورة كثيراً [١] ، وأكدت السورة عقب كل قصة على قضية الإيمان بتكرار قوله تعالى : ﴿ **إنه من عبادنا المؤمنين** ﴾ [٢] ، تنبيهاً على ما ينال به النصر والتأييد من الله تعالى .

ومن وجوه صلة القسم بالسورة أن خاتمة السورة قد صرحت - في أثناء ردها المباشر لقضية نسبة الولد إلى الله تعالى والتزاوج المفترى - صرحت باستثناء عباد الله المخلصين من قوله : ﴿... **ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون * سبحان الله عما يصفون * إلا عباد الله المخلصين** ﴾[٣]، واستثناؤهم من قوله : لمحضرون ، ذو صلة وثيقة بما تم في الموقف القسمي الذي أنجى الله تعالى فيه عبده المؤمن ولم يجعله - بنعمته - من المحضرين .

ومن ذلك أيضاً ما جاء في نهاية السورة من قول الحق سبحانه - مؤكداً هذه السنة التي لاتتبدل ، وهي نصر الله تعالى لعباده المخلصين في الدنيا والآخرة وعذابه للكافرين -: ﴿ **وإن كانوا يقولون * لو أن عندنا ذكراً من الأولين * لكنا عباد الله المخلصين * فكفروا به فسوف يعلمون * ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون * وإن جندنا لهم الغالبون** ﴾ [٤] . والموقف الذي يقسم فيـه المؤمـن في الجنـة هو موقف نصر الله تعالى لأوليائه الموحديـن

---

(١) تكرر ورود قوله تعالى(إلا عباد الله المخلصين) أربع مرات ، وذلك في الآيات : ٤٠ ، ٧٤ ، ١٢٨ ، ١٦٠ .

(٢) تكررت هذه الآية أربع مرات أيضاً ، أنظر الآيات : ٨١ ، ١١١ ، ١٢٢ ، ١٣٢ .

(٣) الآيات ١٥٨ - ١٦٠ .

(٤) الآيات : ١٦٧ - ١٧٣ .

في الآخرة وعذابه للكافرين والمشركين .

ومن ناحية أخرى فإن هذا القسم - بما فيه من دلالة التعجب - يتساوق مع مواقف متعددة عجيبة ونادرة وغريبة اشتملت عليها السورة ، ومن ذلك على سبيل المثال : موقف الكافرين من البعث واختصامهم بعضهم مع بعض في النار ، ثم موقف المؤمن مع قرينه ، وقد شرح البحث دلالاته ، ومنها الحديث عن شجرة الزقوم وكونها تنبت في أصل الجحيم فلا تحترق ، ثم تصوير ثمرها بأغرب صورة وهي صورة رؤوس الشياطين ، ثم ماتضمنته بعض القصص من ذلك ؛ كنجاة نوح عليه السلام ، وكقصة إبراهيم في النار التي أضرمها له قومه فلم تحرقه ، وكقصته مع ابنه الذي كاد أن يذبحه ، وكذلك ما في نجاة موسى وهارون ولوط ويونس - عليهم السلام - من خوارق العادات ، ثم حكاية ذلك الزعم العجيب الذي كان يقوله كفار قريش في إفتراء وجرأة على الله تعالى [١] .

وليس ما ذكر هنا بمستقصٍ جميع وجوه صلة القسم بالسورة التي ورد فيها ، وإنما هي دلائل يتوصل بها إلى معرفة اختصاص هذا القسم بسورته وقوة اتصاله بها ، وذلك يشير إلى أن لكل قسم في القرآن موقعه الأشبه به ، وهو موقع يتسق معه القسم في خصائصه ومعانيه وتراكيبه ودلالاته ، وكذلك الشأن في كل قسم حاول هذا البحث أن يثبت له ارتباطاً بموقعه .

---

(١) راجع السورة .

العلاقة بين قسم المؤمن في الجنة وقسم المشركين في النار :

لهذا الموضع القسمي الذي صدر من المؤمن في الجنة علاقة بالموضع الذي سبقه وهو قوله : ﴿ **قالوا وهم فيها يختصمون * تالله إن كنا لفي ضلال مبين * إذ نسويكم برب العالمين**﴾ (١) ، وقد لفت إلى وجود العلاقة بين الموضعين مايلحظ بينهما من تقابل عجيب تظهر فيه علاقة كل عنصر من عناصر الموضع السابق بعناصر هذا الموضع ولنتأمله على النحو التالي :

فأول مايلفت من ذلك اتحاد صورة المقسم به وهي : (تالله) - وهي الصورة التي دعت إلى تناول هذا النوع من القسم في جزء خاص من هذا البحث ، وتبع ذلك ملاحظة العلاقة بين مواضع القسم التي اتحدت فيها صورة القسم - ثم نتابع التأمل فنجد أن القسم في الموضع السابق الذي جاء في سورة الشعراء يصدر من المشركين في موقف خاص وهو الموقف الذي يعقب كبكبتهم وأصنامهم في الجحيم ، على حين يصدر القسم في الصافات من المؤمن وهو في نعيم الجنة .

ومعنى هذا أن مكان القسم الأول هو الجحيم ، ومكان القسم الآخر هو جنات النعيم ، ولكن هذا القسم (قسم سورة الصافات) يقوله المؤمن وهو يطلع على النار فيرى قرينه الذي كاد أن يغويه في الدنيا في سواء الجحيم، وفي هذا ربط بين القسمين، وتأتي لفظة الجحيم مؤيدة لهذا الربط بين الموضعين ؛ فقد قيل قبل القسم في الشعراء: ﴿ **وبرزت الجحيم للغاوين** ﴾ (٢) ، وقيل قبل قسم الصافات : ﴿ **فاطلع فرآه في سواء الجحيم** ﴾ (٣) ؛ وعلى هذا فالقسمان متناسبان من جهة أن الأول قسم يقال في الجحيم ، والآخر قسم يقال في جنات النعيم ، ولكنه يقال بعد اطلاع على الجحيم ، وعلى هذا فزمان القسمين واحد وهو الدار الآخرة .

---

(١) سورة الشعراء ، الآيات ٩٦ - ٩٨ .

(٢) سورة الشعراء ، الآية ٩١ .

(٣) سورة الصافات ، الآية ٥٥ .

وبين الموضعين ارتباط كذلك من جهة السياق الذي ورد فيه كل منهما ؛ فقسم الشعراء وارد في سياق حديث المشركين بعضهم إلى بعض وهم يختصمون في النار ، أما قسم سورة الصافات فيأتي في سياق حديث المؤمنين بعضهم إلى بعض وهم يتساءلون في الجنة .

ثم ننظر من ناحية أخرى فنجد أن القسم في سورة الشعراء تحسر وندم من المشركين على ما كان منهم في حياتهم الدنيا من التفريط، واعتراف بأنهم كانوا في ضلال مبين إذ أشركوا به سبحانه ، أما القسم في الصافات فهو فرحة واغتباط بما ناله المؤمن من الفضل، وبنجاته من قرينه الذي كاد أن يرديه في الضلال الذي تردى فيه المشركون .

ثم نلمح التقابل بين الموضعين أيضاً في اللغة المعبر بها في كل ، ولننظر على سبيل المثال إلى صورة المقسم عليه ؛ ففي الموضع السابق عبر المشركون عن تمكنهم في الضلال المبين يوم أن كانوا في الدنيا يشركون بالله - بقولهم : ﴿...**إن كنا لفي ضلال مبين * إذ نسويكم برب العالمين** ﴾ (١) ، أما المؤمن فقد عبر عما أقسم عليه بقوله : ﴿ **إن كدت لتردين * ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين** ﴾ (٢) ويلحظ في الموضعين استعمال (إن) المخففة من الثقيلة ، كما يلحظ دخولها على الفعل الناسخ كما هو الغالب فيها ، ولكنها في الموضع السابق داخلة على (كان) لإرادة تحقيق كينونتهم في الضلال المبين ، وأما في موضع الصافات فهي داخلة على (كاد) لإرادة تحقيق مقاربة إغواء قرينه له لتأكيد عظم النعمة في نجاته منه .

وقد ذكر اسم الرب في الموضعين لأن المشركين يرجون به الرحمه في ذلك الموقف والمؤمن يستشعر به ماحل به من الرحمة، وهو في الشعراء مضاف إلى العالمين :

---

(١) سورة الشعراء ، الآية ٩٧ ، ٩٨ .

(٢) سورة الصافات ، ٥٦ ، ٥٧ .

﴿ **إذ نسويكم برب العالمين** ﴾ [١] ، لكونه يعبر عن العظمة والتنزيه في سياق ندمهم على اتخاذ الشركاء معه ، وإضافته إلى (العالمين) أنسب لهذا المعنى ، ومن جهة أخرى فإن المقصود من ذكره في ذلك المقام طلب الرحمة والرغبة في الاعتداد بإيمانهم وهم في جهنم ، فأضافوا اسمه سبحانه (الرب) إلى مايشير إلى سعة ملكه ورحمته . أما في موضع الصافات فقد أضيف اسم الرب إلى ضمير المؤمن المتكلم بالقسم ليشعر بقرب ربه منه واكتناف رحمته له في الدنيا والآخرة حتى لم يجد في سياق التعبير عن هذه النعمة إلا أن يقول : ﴿ **ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين** ﴾ [٢] .

وإذا نظرنا إلى القسمين في سياقيهما من سورتيهما ، وارتباطهما بالسياق القرآني العام ، وجدنا الأول - وهو قسم الشعراء - يرد في سياق وصف مصير المشركين وماينتظرهم في الجحيم ، في حين يأتي القسم الثاني - في سورة الصافات - في سياق وصف ما أعد للمؤمنين في جنات النعيم ، وهذان موقفان متجاوران - في الغالب - في السياق القرآني ، وهذا رابط آخر بين القسمين .

وبالإضافة إلى جميع هذه العلاقات التي تربط القسمين أحدهما بالآخر ؛ فإنهما يردان متواليين في ترتيب مواضع القسم باسم الجلالة في القرآن الكريم ، فترتيب قسم الشعراء في هذا النوع هو التاسع ، وترتيب قسم الصافات هو العاشر ، وهذا التوالي يشير إلى مابينهما من علاقات .

والموضعان هما آخر موضعين وردا في القسم باسم الجلالة وفق ترتيب المصحف ، ولعل ذلك يلفت - في ضوء كون المقسم به فيهما هو اسم الجلالة وكونهما في سياق الحديث عن أهل النار وأهل الجنة وفي ضوء مابينهما من علاقات - لعل ذلك الترتيب يلفت إلى قضية الإيمان بمقتضيات هذا الاسم العظيم وما جمعه من الأسماء والصفات

---

(١) سورة الشعراء ، الآية ٩٨ .

(٢) سورة الصافات ، الآية ٥٧ .

الإلهية والتوحيد ، ومايترتب على ذلك من الجزاء للمؤمنين بها والكافرين ؛ فمجيء هذين القسمين آخر المواضع التي أقسم فيها باسم الجلالة يناسب موضع حكايتهما ومكان ورودهما في الجنة والنار والمقام الذي يقالان فيه ، وهو اليوم الآخر، ولعل في هذا لفتاً إلى المصير وأنه إما إلى جنة وإما إلى نار .

وهذا يعني أن لموقع القسم في القرآن الكريم دلالات بلاغية تضارع ما لعناصره في مواضعها ، وأن الدلالتين معاً تشكل الدلالة السياقية العامة للنوع الذي ينتمي إليه القسم ، وهذا يؤيد أن للقسم في القرآن الكريم سياقاً متصلاً ذا دلالات خاصة ، ينبغي توخي البحث عنها واستنباطها من خلال التأمل والتدبر لمواقع الأسلوب وصلة بعضها ببعض ، وهو ما حاوله هذا البحث في مواطن متعددة .

الفصل الثالث

القسم بعزة الله تعالى

تناول البحث في الفصلين السابقين القسم باسمين من أسماء الله تعالى ، هما : اسم الرب سبحانه ، واسم الجلالة . وفي هذا الفصل نتناول القسم بصفة من صفات الله تعالى لم يرد في القرآن الكريم القسم بصفة غيرها من صفاته جل وعز ، وهي صفة العزة .

وقد ورد القسم بهذه الصفة في موضع واحد من القرآن الكريم ، وذلك قوله تعالى : ﴿ **قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين** ﴾[1]. ووقع هذا القسم في سياق ما جاء من قصة آدم عليه السلام في سورة (ص) .

وقد جاء القسم في هذا الموضع صادراً من إبليس - لعنه الله - والمقسم له هو الله تعالى .

والصورة المقسم بها هنا هي لفظ العزة مضافاً إلى ضمير المخاطب : (فبعزتك) ، أما المقسم عليه فهو إغواء بني آدم أجمعين - كما يتضح من الآية .

وسنقف فيما يأتي على خصوصية مجيء القسم على هذه الصورة ، ووجه علاقته بالموقع الذي ورد فيه ، وغير ذلك مما يسفر عنه التأمل في الآية في ضوء السياق الخاص لها ، والسياق العام للسورة .

---

(١) سورة ص ، الآية ٨٢ .

القسم بعزة الله تعالى : (فبعزتك)

قوله تعالى :﴿ **قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين** ﴾ [١] .

جاء هذا القسم مسنداً إلى إبليس - اللعين - في سياق ماورد من قصة آدم - عليه السلام - في سورة ص ؛ وذلك أن الله تعالى بعد أن خلق آدم من طين ، وسواه ونفخ فيه من روحه أمر الملائكة بالسجود له ،؛ ﴿ **فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين** ﴾[٢]؛ فأخرجه الله تعالى من جنته ، وطرده من رحمته [٣]؛ فلما وقع هذا القول على إبليس ﴿ **قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون * قال فإنك من المنظرين * إلى يوم الوقت المعلوم * قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين * قال فالحق والحق أقول * لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين** ﴾ [٤] .

وأكثر المفسرين [٥] على أن قوله : (فبعزتك...) قسم أقسم به إبليس ؛ فالباء عندهم في هذه الآية للقسم .وقد جاء في سورة الأعراف حكاية عن إبليس أيضاً قوله تعالى : ﴿ **قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم** ﴾[٦] ، وحكى عنه مثل ذلك في سورة الحجر ، قال تعالى: ﴿ **قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين** ﴾[٧] ، وقد

---

(١) سورة ص ، الآية ٨٢ ، ٨٣ .

(٢) سورة ص ، الآيه ٧٣ ، ٧٤ .

(٣) انظر الآيات : ٧٥ - ٧٨ .

(٤) سورة ص ، الآيات ٧٩ - ٨٥ .

(٥) انظر على سبيل المثال :

الكشاف ٣٨٤/٣ ، والتفسير الكبير ٢٣٤/٢٦ ، وتفسير القرطبي ٢٢٩/١٥ ، والتسهيل لعلوم التنزيل ١٨٩/٣ ، وتفسير النسفي (ضمن مجمع التفاسير ٢٩٦/٥) ، وروح المعاني ٢٢٨/٢٣ .

(٦) سورة الأعراف ، الآية ١٦ .

(٧) سورة الحجر ، الآيه ٣٩ ، ٤٠ .

عد بعض المفسرين الباء في هذين الموضعين للقسم [١] ، وقال بعضهم : إن قسمه بالإغواء لاينافي قسمه بعزته سبحانه لأن الإغواء أثر من آثار قدرة الله تعالى وعزته ومظهر من مظاهرها[٢]، والأظهر كون الباء في الموضعين للسببية لا للقسم كما ذهب إليه بعض المفسرين ، ومعنى هذا أنه في سورة (ص) في قوله : (فبعزتك) أقسم بعزة الله على إغواء بني آدم ، ولكنه في الأعراف والحجر بين سبب عزمه على الإغواء وعليه فإن كون آية (ص) قسماً لايقتضي أن يكون ما في الأعراف والحجر كذلك ، وإن كان المقام واحداً .

والمقسم به في هذا الموضع عزة الله سبحانه ، والمراد بها سلطانه وقهره وقدرته[٣]. والمقسم عليه بذلك هو قوله : (...لأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين) أي : لأضلن بني آدم أجمعين عن دينك وطاعتك بتزيين المعاصي لهم إلا من أخلصته منهم لعبادتك وعصمته مني فإني لا أقدر على إضلاله [٤] . وقرىء: المخلصين ، على صيغة الفاعل أي : الذين أخلصوا قلوبهم وأعمالهم لله تعالى [٥]. وقد أضاف المستثنى إلى الله تعالى في قوله : (إلا عبادك) « تنبيهاً على أن غيرهم قد انسلخوا من التشرف بعبوديته بالنسبة إلى من أطاعوه »[٦].

وقد جاء المقسم عليه - كما هو حاله دائماً - مؤكداً بعدد من وسائل التوكيد ؛ فقد أكده إبليس - مع القسم - باللام ونون التوكيد الثقيله : لأغوينهم ، وبالتوكيد

---

(١) انظر : الكشاف ٣٩١/٢ ؛ والتفسير الكبير ٣٨/١٤ ، ١٨٥/١٩ ، والبحر المحيط ٢٧٤/٤ ، ٢٧٥ ، وتفسير أبي السعود ٢١٨/٣ ، ٢١٩ ، ٧٨/٥ ، ٢٣٨/٧ .

(٢) انظر : تفسير أبي السعود ٢١٨/٣ ، ٢١٩، ٧٨/٥ ، ٢٣٨/٧ .

(٣) تفسير الطبري ١١٩/٢٣ ، والتفسير الكبير ٢٣٤/٢٦ ، وتفسير النسفي وتنوير المقياس من تفسير ابن عباس (ضمن مجمع التفاسير ٢٩٦/٥) ، وروح المعاني ٢٢٨/٢٣

(٤) انظر : المصادر السابقة .

(٥) انظر : تفسير أبي السعود ٢٣٨/٧ ، وروح المعاني ٢٢٨/٢٣ .

(٦) نظم الدرر ٤٢٧/١٦ .

المعنوي في قوله : أجمعين ، وهذا التأكيد يعبر عن شدة حسده وبغضه وعداوته لبني آدم ، ويصور قوة إصراره على الانتقام منهم بصدهم عن سبيل الله تعالى ، فهذه الوسائل المؤكده التي جرت على لسانه في هذا الموقف تعرب عن قدر مابلغه من الحسد والكراهية والعدواة ٠

وتتسق العناصر اللغوية المعبر بها في هذا الجواب مع دلالة التأكيد هنا ؛ فيأتي التعبير عن بني آدم بضمير الغائب المشعر بالمباعدة التي تقتضيها العدواة ، وبصيغة الجمع المقتضية للشمول ، وكذلك الشأن في تعبيره عن الإغواء بصيغة المضارع للدلالة على تجدد هذا الأمر واستمراره منه ، وأنه سيكون منه مرة بعد مرة ، وفيه إشارة على عزمه على الإقامة على هذا الأمر لايتحول عنه أبداً ٠

وواضح من هذا أن الغرض من القسم على هذا الأمر وتأكيده على هذا النحو لايراد به تحقيقه للمخاطب ، لأنه هنا عالم الغيب والشهادة سبحانه ، بل يراد به الإفصاح عن تلك الانفعالات القوية التي تحركت في نفس إبليس - اللعين - في ذلك الموقف الذي عدّ فيه آدم سبب غوايته ، لاسيما بعد طرده من جنة الله تعالى ورحمته ٠

وقد جاءت صورة المقسم به الذي أقسم به إبليس في هذا الموضع على أصل مايقتضيه المقام فأضيفت فيها العزة إلى ضمير المخاطب - سبحانه وتعالى : فبعزتك، على حين جاء القسم بـ (عزة فرعون) المسند إلى السحرة في سورة الشعراء على سبيل العدول عن الخطاب إلى الغيبة ؛ لأن في هذه الصورة تعظيماً وتفخيماً للمخاطب ، ولأغراض أخرى اقتضاها المقام والسياق هناك ، ولنا أن نسأل : فلِمَ لَمْ يأت القسم هنا على نحو ما جاء عن السحرة ، فيقال : فبعزة الله لأغوينهم أجمعين ، بالإضافة إلى اسمه سبحانه ، مع أن المقام - في خطاب الله تعالى - أكثر اقتضاء للتعظيم والتفخيم الذي يفيده العدول ؟!

والجواب عن ذلك : أن إضافة العزة إلى اسم فرعون في قسم السحرة إنما كان

لأنه قسم صادر من السحرة في مقام التزلف والتقرب إلى فرعون والانتصار له ، وفي مجيء المقسم به الصادر منهم على صورة الإضافة إلى الاسم الظاهر مايناسب التعبير عن معان تتعلق بهذا المقام ، وقد بسطت في موضعها من البحث [١]، على حين نرى أن القسم الذي صدر من إبليس هنا يأتي على الأصل في التعبير بالإضافة إلى ضمير المخاطب : (فبعزتك) ؛ لأنه لايحتاج في إثبات العزة لمخاطبه - سبحانه - إلى مثل مااحتاج إليه السحرة في إثباتها لفرعون ، إذ هو الله الحق ذو العزة والجلال ؛ فجاء التعبير متسقاً مع مقام المخاطب ، وكان ذلك تفخيماً وتعظيماً له سبحانه في معزل عن التصنع والمداراة ، وبخاصة في مقام قسم إبليس - اللعين - على أمر يتضمن مخالفته ومعصيته له سبحانه ، لأنه يعلم أن ما أقسم عليه لايكون إلا بإذنه وقدرته ، وعلى هذا فصورة المقسم به هنا مناسبة لمقام المخاطب .

ومن ناحية أخرى فإن قوله : (فبعزتك) قد جاء في سياق محاورة بينه وبين الله تعالى ، وقد اقتضت هذه المحاورة شيوع ضمير الخطاب في هذا السياق ، وبخاصة فيما جرى على لسان إبليس من مثل : (خلقتني من نار - خلقته من طين - فأنظرني - عبادك) ، فجاء القسم في هذا السياق على النحو الذي شاع فيه فقال : فبعزتك ، معبراً بضمير المخاطب .

وفي إقسام إبليس بعزة الله تعالى في هذا الموضع مايناسب المقسم عليه وهو تأكيده على إغواء بني آدم إلا المخلصين منهم الذين عصمهم الله تعالى ، لأن عزته سبحانه هي مصدر اقتداره على ذلك ، وسبب تحقق ذلك له ، فهو من باب القسم بالسبب على المسبب تأكيداً لرسوخ العلاقة بينهما ، المفضية إلى رسوخ المقسم عليه ، إذ لاريب أن ما أسند إلى عزة الله تعالى فلا راد له إلا هو ، ولهذا لم يستثن من هذا القسم إلا من أخلصه الله تعالى لعبادته . وواضح هنا أنه اختار المقسم به المناسب للمقسم عليه .

---

(١) انظر : ص ٥٢٠ من هذا البحث .

وثمة وجه آخر من التفسير تظهر به دقة العلاقة بين عنصري القسم هنا ، وذلك أن القسم الصادر من إبليس هنا يراد به المبالغة في هذا الإغواء إلى أقصى درجاته وأبعدها عن الحق (يدل عليه القسم أولاً ، ثم ما جاء في الجواب من المؤكدات) ، ومن أقوى درجات الغواية أن تأخذ الغاوي العزة بالإثم فلا ينتصح لناصح ولايستمع لداع ولا يرده عن غوايته راد ، كما قال تعالى : ﴿ **وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم** ...﴾[1] ؛ فإن الغاوي يبلغ درجة من التشبث بالإثم يصبح معها في كبرياء عن الحق ، وهذا هو عين ماوقع فيه إبليس حين أمر بالسجود فأبى واستكبر ، ولهذا يقسم إبليس على إغواء بني آدم حتى يوردهم هذا المصير الذي ورده ؛ فتأخذهم العزة بالإثم كما أخذته ، فكأنه يقول : فبعزتك لأغوينهم غواية تأخذهم فيها العزة بالإثم ، أي أنه سيجتهد فيها حتى تبلغ هذا المبلغ ، ومن هنا يظهر أن قسمه بالعزة يناسب ماتضمنه المقسم عليه من معنى العزة .

وفي القسم بالعزة في هذا المقام إيماء إلى أن الأمر كله مرده إلى عزة الله تعالى وقوته ، فهو الذي يهدي ، وهو الذي يضل . وقد قرن سبحانه بين هذا المعنى واسمه (العزيز) في قوله : ﴿... **ومن يضلل الله فما له من هاد * ومن يهد الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذي انتقام** ﴾[2] .

وهذا الذي ذكرته هنا وجه من وجوه المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه - دقيق. ومن هذا الوجه - أيضاً - تتضح خصوصية القسم بعزة الله في سياق حكاية قصة استكبار إبليس عن السجود وإيغاله في العزة التي أخذته في ذلك الموقف .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٠٦ .

(٢) سورة الزمر ، الآية ٣٦، ٣٧ . ويؤيد صلة دلالة هذه الآيات بالعلاقة التي ذكرتها بين طرفي القسم ، يؤيد ذلك أن هذه الآيات تأتي في سورة الزمر الواقعة في ترتيب المصحف بعد سورة (ص) التي جاء فيها هذا القسم ، والقرآن كله سياق متصل سابقه بلاحقه ، وأوله بآخره ، على نحو دقيق .وهذا ضرب من ضروب الإعجاز فيه .

ومن عجيب النظم القرآني أن تلك الآية التي تحدثت عن ذلك الذي تأخذه العزة بالإثم وهي قوله تعالى : ﴿ **وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم...** ﴾[١]- تقع في سورة البقرة في سياق مماثل لسياق سورة ص ؛ فهي واردة في وصف صنف من الناس ﴿ **...يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام...** ﴾[٢]، وهذا الصنف من الناس كما وصفه القرآن ذو خصومة شديدة تجعله في كبرياء عن الحق فتأخذه العزة بالإثم كما ورد في الآية .

وليس معنى الخصومة ببعيد عن سياق سورة (ص)؛ فإن فكرة الخصومة تشيع فيها ؛ فمن ذلك ابتداء السورة بالحديث عن موقف الكافرين وشقاقهم [٣] ، ثم قصة الخصمين اللذين تحاكما إلى داود عليه السلام [٤] ، ثم دلالة الآيات في قصة أيوب عليه السلام على خصومته مع زوجه [٥] ، ثم اختصام أهل النار الذي أشارت إليه بعض آيات السورة بعد ذلك : (... إن ذلك لحق تخاصم أهل النار)[٦] ، ثم يأتي بعد ذلك كله قصة اختصام الملأ الأعلى وهي قصة آدم عليه السلام التي أقسم فيها إبليس على إغواء ذريته [٧]، وهي آخر هذه السورة .

وواضح من هذا أن سياق الخصومة في سورة (ص) يماثل ماورد في ذلك السياق الخاص من سورة البقرة ، الذي وصف فيه ذلك الصنف من الناس الذي تأخذه العزة بالإثم بأنه ألد الخصام ، وهذا التماثل في السياق يلفت إلى الصلة بين هذين الموقعين من القرآن الكريم في الدلالات المعبر عنها في كل منهما .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٠٦ .

(٢) سورة البقرة ، الآيات ٢٠٤- ٢٠٦

(٣) سورة ص ، الآيات ١ - ٧ .

(٤) انظر الآيات : ٢١ - ٢٥ .

(٥) انظر الآيات : ٤٣ ، ٤٤ .

(٦) انظر الآيات : ٥٩ - ٦٤ .

(٧) انظر الآيات : ٦٩ - ٨٨ .

والتماثل بين هذين السياقين يتحقق من جانب آخر وهو اشتمال كل منهما على التحذير من إغواء الشيطان الرجيم ، ففي سورة (ص) ارتبط ذلك السياق بالحديث عن قصة إبليس وقسمه بعزة الله على إغواء بني آدم ، وكذلك الشأن في ذلك الجزء من سورة البقرة فقد جاء فيه التحذير من اتباع خطوات الشيطان وقرن به إثبات صفة العزة لله تعالى ، قال تعالى في ذلك السياق من سورة البقرة : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولاتتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين * فإن زللتم من بعد ماجاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم** ﴾[1] .

ومجيء هذا التحذير - في سورة البقرة - بعد التنبيه على ذلك الصنف الذي تأخذه العزة بالإثم مناسب لحركة السياق في سورة (ص) التي جاء فيها التحذير من الشيطان وحكاية قصة قسمه على إغواء بني آدم بعد ذكر صنف من الكافرين في عزة وشقاق ، وفي كلا السياقين إثبات لصفة العزة لله تعالى .

وبسبب من هذه العلاقات الدقيقة بين السياقين تهيأ اللفت إلى الارتباط بين علاقة عنصري القسم في سورة (ص) ،(تلك العلاقة المرتبطة بسياق السورة العام) ، و ذلك السياق الخاص من سورة البقرة ، الذي يصف هذا النوع من الناس ، في تناسق وتعانق عجيب .

وقد جاء في أول هذه السورة (سورة ص) الحديث عن كفار قريش وإعراضهم عن الذكر وكونهم في عزة وشقاق ، وذلك في القسم الوارد في قوله تعالى : (ص والقرآن ذي الذكر * بل الذين كفروا في عزة وشقاق) ؛ وعلى هذا فإن السورة مفتتحة بالحديث عن عزة الذين كفروا وشقاقهم ؛ فهم يواجهون هذا الذكر بالإعراض والتكذيب لما هم فيه من التكبر والعزة التي تصرف العصاة عن الحق ، وهم في ذلك أنموذج واضح لما أقسم عليه إبليس من إغواء بني آدم إغواءً مبالغاً فيه - كما هو ظاهر من

---

(١) الآية ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

تأكيده لذلك على الوجه الذي مر - حتى يجعلهم في عزة وشقاق . وهذا تناسب دقيق جداً .

وعلى هذا فإن للقسم المحكي عن إبليس في القصة الواردة في هذه السورة علاقة خاصة بالمضمون الذي افتتحت به ، ويزيد من قوة الارتباط بين الموضعين هذا التناغم البديع بين لفظي العزة في قوله : في عزة - فبعزتك ؛ فهذا كله مما يرسخ صلة القسم بالسياق الذي ورد فيه ، ويفسر اختصاص موقع هذه القصة في سورة (ص) بهذا القسم ، دون غيره من المواقع التي حكيت فيها هذه القصة في سور أخرى .

وإذا علم أن المقصود من ذكر هذه القصة - كما يقول الرازي - « المنع من الحسد والكبر ، وذلك لأن إبليس إنما وقع فيما وقع فيه بسبب الحسد والكبر ، والكفار إنما نازعوا محمداً عليه السلام بسبب الحسد والكبر ، فالله تعالى ذكر هذه القصة هاهنا ليصير سماعها زاجراً لهم عن هاتين الخصلتين المذمومتين »[1] ، إذا علم هذا فإن علاقة قسم إبليس والموقف الذي أقسم فيه ، بموقف الكافرين من الرسول ﷺ - تبدو واضحة جلية من خلال صلة السياق القسمي الذي أقسم فيه إبليس ودوافعه وموقفه ، بالسورة وأغراضها وما جاء في أولها - على وجه الخصوص .

ويمكن النظر إلى جانب آخر من مناسبة القسم لسورته فيما تكرر من ذكر أسماء الله تعالى المناسبة للقسم ، فقد تكرر ذكر مايدل على العزة والقهر - وهو ماتضمنه المقسم به - في قوله سبحانه : ﴿ **أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شك من ذكري بل لما يذوقوا عذاب * أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب** ﴾[2] فذكر اسمه تعالى (العزيز) في معرض الحديث عن حسد كفار قريش المقابل لحسد إبليس حين امتنع عن السجود لآدم معترضاً على ما وهبه الله تعالى - بعزته - من الفضل والتكريم ، ثم ورد بعد ذلك في السورة أيضاً قوله سبحانه :

---

(١) التفسير الكبير ٢٢٧/٢٦

(٢) سورة ص الآية ٨ ، ٩ .

﴿قل إنما أنا منذر ومامن إله إلا الله الواحد القهار * رب السموات والأرض ومابينهماالعزيز الغفار * قل هو نبأ عظيم * أنتم عنه معرضون﴾(١)
فذكر هنا اسميه تعالى (القهار) و (العزيز) في سياق الحديث عن إعراض هؤلاء الكفار عن الحق الذي أنذروا به ، وجاء بعده الربط بين هذا الموقف وموقف إبليس الذي حكته السورة .

وفي كل هذا يلمح التناسب الدقيق والترابط العميق الذي يصل أجزاء السورة وسياقها العام بالموقف القسمي واختيار عناصر القسم فيه ، فيأتي القسم بعزة الله متسقاً مع هذا السياق أتم الاتساق ، بالإضافة إلى مناسبته لسياقه الخاص الذي ورد فيه ، ومناسبته للمقسم عليه ، ومجيء عناصره على مايقتضيه حال المتكلم بالقسم ، والمخاطب به ، والمقام الخاص للقسم . والوفاء بكل واحد من هذه المقتضيات يتم في بلاغة معجزة يخيل إلى الناظر معها أن عناصر القسم وتراكيبه لم تأت على النحو الذي جاءت عليه إلا للتعبير المناسب له وحده دون غيره .

---

(١) سورة ص ، الآيه ٦٥ - ٦٨ .

الباب الثالث

القسم بأسماء القرآن الكريم

من أنواع القسم في القرآن الكريم القسم بأسماء القرآن نفسه ، وقد جاء هذا النوع من القسم في خمسة مواضع [(١)] ، وهي - وفق ترتيب المصحف - على النحو التالي :

١ - قوله تعالى : ﴿ **يس * والقرآن الحكيم * إنك لمن المرسلين** ﴾[(٢)].

٢ - قوله تعالى : ﴿ **ص والقرآن ذي الذكر * بل الذين كفروا في عزة وشقاق** ﴾ [(٣)].

٣ - قوله تعالى : ﴿ **حم * والكتاب المبين * إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون** ﴾ [(٤)].

٤ - قوله تعالى : ﴿ **حم * والكتاب المبين * إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين** ﴾ [(٥)].

---

(١) يرى بعض المفسرين أن من هذا النوع قوله تعالى : (وكتاب مسطور) سورة الطور ، الآية ٢ ، وفيه خلاف لأن الكتاب المقسم به هنا يحتمل أن يكون القرآن ، وأن يكون اللوح المحفوظ ، وأن يكون جنس الكتاب فيراد به القسم بجميع الكتب السماوية السابقة . (انظر : زاد المسير ٤٦/٨ ، وتفسير القرطبي ٥٩/١٧) .

- وعند بعضهم أن منه قوله سبحانه : (والنجم إذا هوى) سورة النجم ، الآية ١ ، اعتماداً على أنه النجم النازل من القرآن . (انظر : معاني القرآن للفراء ٩٤/٣ ، وتفسير الطبري ٢٤/٢٧ ، وتفسير القرطبي ٨٢/١٧) .

- وقيل إن منه قوله تعالى : (فلا أقسم بمواقع النجوم) سورة الواقعة ، الآية ٧٥ ، ، فالمراد بالنجوم عند بعضهم نجوم القرآن على المعنى الذي سبق . (انظر : تفسير البغوي ٢٨٩/٤ ، وزاد المسير ١٥١/٨ ، وتفسير القرطبي ٢٢٤/١٧) .

- ولايصح أن تكون هذه المواضع من القسم بأسماء القرآن الكريم إلا على سبيل الاحتمال الذي لايمتنع معه أن يراد بها غير القرآن ، ولهذا لايمكن القطع بكونها من هذا النوع .

(٢) سورة يس ، الآيات ١ - ٣ .

(٣) سوره ص ، الآية ١ ، ٢ .

(٤) سورة الزخرف ، الآيات ١ - ٣ .

(٥) سورة الدخان ، الآيات ١ - ٣ .

٥ - قوله تعالى :{ ق والقرآن المجيد * بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب } (١) .

والمقسم في جميع هذه المواضع هو الله تعالى . أما المقسم له فيحتاج في تعيينه إلى الوقوف على سياق كل موضع على حده .

ويأتي المقسم به في هذا النوع من القسم القرآني في صورتين رئيستين ؛ فواضح من الآيات السابقة أن الله تعالى قد أقسم باسمين من أسماء القرآن الكريم :

أحدهما : القرآن ؛ وذلك في ثلاثة مواضع هي : الأول والثاني والخامس .

والآخر : الكتاب ؛ وذلك في الموضعين : الثالث والرابع .

وقد جاء المقسم به في كل من هذه المواضع الخمسة مقيداً بوصف خاص ، وجاء هذا الوصف متنوعاً في مواضع القسم بلفظ (القرآن) فهو تارة : (القرآن الحكيم) وتاره (القرآن ذي الذكر) وتاره (القرآن المجيد) .

أما الموضعان اللذان أقسم فيهما بلفظ الكتاب ؛ فقد اتحد فيهما الوصف الذي أتبع به المقسم به وهو (المبين) ؛ فصورة المقسم به في الموضعين هي (الكتاب المبين) .

أما المقسم عليه ؛ فقد اختلفت صياغته من موضع لآخر ، واختلف المفسرون في تعيينه وتحديده ، وسيأتي بيان ذلك وتفصيله في كل موضع من هذه المواضع .

وسيقف البحث - في هذا الباب - على خصوصية اختيار الاسم المقسم به ، والوصف الذي أتبع به في كل من هذه المواضع الخمسة ووجه اختصاص كل موضع بالصورة الخاصة المقسم بها فيه ، وسيكون ذلك في فصلين يمثلان الصورتين الرئيستين لهذا النوع من أنواع القسم القرآني وهما : القسم بلفظ القرآن ، والقسم بلفظ الكتاب .

---

(١) سورة ق ، الآية ١ ، ٢ .

وبين يدي ذلك نشير إلى ظاهرة مهمة تشترك فيها المواضع الخمسة التي ورد القسم فيها بأسماء القرآن الكريم ؛ وهي اقتران هذه المواضع بالحروف المقطعة في أوائل السور (١) .

وبالتأمل في هذه الظاهرة المصاحبة لجميع مواضع القسم بأسماء القرآن الكريم – نجد أنها تندرج تحت ظاهرة عامة في القرآن الكريم كله ، وهي أن هذه الحروف المقطعة – كما يرى ابن القيم –« لم تذكر قط في أول سورة إلا وعقبها بذكر القرآن ، إما مقسماً به ، وإما مخبراً عنه ، ما خلا سورتين : سورة (كهيعص)،و(ن) » (٢) .

والحق أن هذين الموضعين (في سورة مريم ، وسورة القلم) اللذين استثناهما ابن القيم لايخرجان فيما أتبعا به عن ذكر القرآن أو مايتعلق به ؛ لأن القضية المقسم عليها في سورة القلم ذات علاقة بإثبات القرآن من طريق الإشارة إلى أساطير الأولين وما فيها من التناقض والاختلاف المنافيين لما في القرآن من الحكمة وشواهد الكمال التي تشهد بكمال المرسل به وتنزهه عن تهمة الجنون التي رمي بها ، فقد قال تعالى في صدر سورة القلم : ﴿ **ن والقلم ومايسطرون * ما أنت بنعمة ربك بمجنون** ﴾ (٣) .

أما ما افتتحت به سورة مريم فقد جاء بعده مايشير إلى القرآن في قوله سبحانه: ﴿ **كهيعص * ذكر رحمة ربك عبده زكريا** ﴾(٤) ؛ فإذا كان التقدير : هذا ذكر رحمة ربك . . . ، أي هذاالجزء من القرآن الذي نوحيه إليك هو ذكر رحمة ربك لعبده زكريا (٥) ؛ فإن المذكور بعد الحروف المقطعة هو القرآن .

---

(١) تقدم أن هذه الحروف ليست من أنواع المقسم به في القرآن الكريم كما يرى بعض المفسرين ؛ انظر ص ٨٠ من هذا البحث .

(٢) التبيان في أقسام القرآن ص ١٢٦ .

(٣)سورة القلم ، الآية ١ ، ٢ .

(٤) سورة مريم ، الآية ١ ، ٢ .

(٥) انظر هذا المعنى في: معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣١٨/٣ ، وزاد المسير ٢٠٦/٥ .

وبهذا يطرد اقتران هذه الحروف المقطعة بذكر القرآن ، مقسماً به أو مخبراً عنه ، في جميع مواضع ورودها في أوائل سور القرآن الكريم . وعلى هذا فإن القسم بأسماء القرآن الكريم بعدها يدخل ضمن هذا الملحظ العام الذي يعضد العلاقة بين تفسير هذه الحروف وذكر القرآن الكريم بعدها ، من جهة الرأي القائل بأن لهذه الحروف صلة بالتنويه بإعجاز القرآن والتحدي بكونه منظوماً ومركباً من هذه الحروف .

وإذا كان الأمر كذلك فإن في مجيء القرآن الكريم مقسماً به بعدها - في ضوء هذا التحدي - زيادة تنويه بشأن القرآن ، وبهذا يتضح التلاؤم الخاص بين ذكر هذه الحروف وبين القسم بالقرآن الكريم ، في اتفاق كل من الأمرين في الإشارة إلى علو شأن القرآن والتنويه بإعجازه .

ومن هذا يتبين تآزر عناصر السياق في كل من هذه المواضع في الوفاء بالدلالة العامة له ، وهي تعظيم القرآن وتفخيمه ، وبخاصة في مقام إنكار الكافرين للرسالة التي تضمنها هذا القرآن .

وخلاصة القول أن لمجيء القرآن الكريم مقسماً به في هذه المواضع المخصوصه من بين تلك المواضع التي ورد فيها اقتران ذكر القرآن بالحروف المقطعة - خصوصيات تتعلق بتوفر الدواعي على قوة اللفت إلى المعجزة - في هذا الموضع - على نحو لايوجد في المواضع الأخرى ؛ فصورة القسم متسقة مع المواقع الخاصة التي وردت فيها ، فيما تقتضيه من التنويه بشأن القرآن في صورة قوية تتفق مع مايلوح من قوة إنكار الرسالة التي ظهرت في سياقات هذه المواضع الخمسة أكثر من غيرها ، كما سيتضح من دراسة هذه السياقات في الفصلين التاليين .

الفصل الأول
القسم بلفظ القرآن

في هذا الفصل نتناول الصورة الأولى من صور القسم بأسماء القرآن الكريم ، وهي الصورة التي جاءت بلفظ (القرآن) ، وقد وردت - كما ذكرنا - في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم ، نوجز الإشارة إليها فيما يلي :

١ - في صدر سورة يس : قوله تعالى : ﴿ **يس * والقرآن الحكيم** ﴾ [١].

٢ - في صدر سورة ص : قوله تعالى : ﴿ **ص والقرآن ذي الذكر** ﴾ [٢] .

٣ - في صدر سورة ق : قوله تعالى : ﴿ **ق والقرآن المجيد** ﴾ [٣] .

والقسم في هذه المواضع الثلاثة صادر من الله تعالى كما هو الحال في سائر مواضع هذا النوع من القسم القرآني . أما المقسم له الذي خوطب بالقسم فسنقف على تعيينه في كل من هذه المواضع فيما سيأتي ، وكذلك المقسم عليه المراد توكيده .

وقد تنوعت - كما هو واضح - الأوصاف التي أتبع بها المقسم به في كل من هذه المواضع؛ فللقرآن في كل منها وصف يغاير الوصف الذي وصف به في غيره؛ فهو في قسم يس (الحكيم) ، وفي قسم ص (ذي الذكر) ، وفي قسم ق (المجيد) .

وهذا التنوع يعني أن للمقسم به في كل موضع من هذه المواضع الثلاثة مبنىً خاصاً ، ويدعو إلى تتبع خصوصيات هذا المبنى في الموقع الذي ورد فيه وعلاقته به.

وقد جاء القسم في المواضع الثلاثة بعد الحروف المقطعة في أوائل السور ، وقد أشرت إلى دلالة هذه الظاهرة في صدر هذا الباب . وجاءت الحروف التي سبقت القسم بلفظ (القرآن) متنوعة كما يلحظ في الآيات ، وسيأتي بيان وجه اختصاص كل موضع بالحرف أو الحروف التي اقترن بها .

وسنتناول - فيما سيأتي من هذا الفصل- كل موضع من هذه المواضع لنقف على

---

(١) سورة يس ، الآية ١ ، ٢ .

(٢) سورة ص ، الآية ١ .

(٣) سوة ق ، الآية ١ .

خصوصيات الصورة المقسم بها فيه ، ووجه تنوع الوصف الذي وصفت به ، وعلاقتها بالموقع الخاص الذي وردت فيه ، وغير ذلك من الظواهر الخاصة في كل موضع ، بالإضافة إلى دراسة خصائص التراكيب وأغراض الأساليب الداخلة في بناء القسم ، والمصاحبة له ، وقيمتها في دلالة الأسلوب ، وعلاقتها بعناصره ٠

الموضع الأول : القسم بـ (القرآن الحكيم) :

قوله تعالى : ﴿ **يس * والقرآن الحكيم * إنك لمن المرسلين * على صراط مستقيم * تنزيل العزيز الرحيم * لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون * لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون** ﴾ [١].

في هذا الموضع يقسم الله تعالى « بوحيه وتنزيله لنبيه محمد ﷺ إنك يا محمد لمن المرسلين بوحي الله إلى عباده » [٢]. فالقسم هنا صادر من الله تعالى، والمقسم له هنا هو الرسول ﷺ، ولكن إثبات هذا الأمر يشمل أيضاً كل من يسمع هذا الخطاب، وبخاصة الذين كفروا بهذه الرسالة كما سيأتي في بيان الغرض من هذه المؤكدات .

ويأتي القسم بالقرآن في هذا الموضع بعد قوله : (يس)، وقد اختلف في تفسيره، فقيل معناه : ياإنسان، على لغة طيء وقيل هو كذلك بالحبشية ، وقيل معناه : يارجل، وقيل : ياسيد البشر، والمقصود به محمد ﷺ، وقيل : هو قسم أقسم الله تعالى به وهو من أسمائه سبحانه. وقيل : هو من أسماء الرسول ﷺ ، وقيل : بل هو من أسماء القرآن وكل هجاء في القرآن اسم من أسماء القرآن ، وقيل فيها غير ذلك مما فسرت به الحروف المقطعة [٣].

وقد أقسم الله تعالى في هذا الموضع بالقرآن موصوفاً بـ (الحكيم) أي : ذي

---

(١) سورة يس ، الآيات ١ - ٧ .

(٢) تفسير الطبري ٢٢ / ٩٧ .

(٣) انظر على سبيل المثال : تفسير الطبري ٩٧/٢٢ ، ومعاني القرآن للفراء ٣٧١/٢ ، وكتاب لغات القرآن برواية ابن حسنون المسندة إلى ابن عباس ، ص ٣٩ ، وتفسير البغوي ٥/٤ ، وزاد المسير ٧ /٣ ، ٤ ، والكشاف ٣١٣/٣ ، وتفسير البيضاوي ص ٥٨١ ، والبحر المحيط ٣٢٣/٧ .

وقد تقدم أن هذه الحروف التي افتتحت بها بعض سور القرآن الكريم ليست مما أقسم الله تعالى به . انظر ص ٨٠ من هذا البحث .

الحكمـة المحكم بما فيـه من الأحكام والحجج البينـات [١] ، أو المحكـم فلا يتعرض لبطلان وتناقض كما قال سبحانه : ﴿ ... **أحكمت آياته** ... ﴾ [٢] ، والمحكم في النظم والمعاني فلا يلحقه خلل [٣] . وقيل : قد يكون وصف بذلك لأنه دليل ناطق بالحكمة كالحي، ويتأتى هذا على سبيل الاستعارة المكنية، أوأنه وصف بصفة المتكلم به [٤].

وقد ذكر سيد قطب في بيان معنى وصف القرآن بالحكمة، وهي من صفات العقلاء، أن « التعبير على هذا النحو يخلع على القرآن صفة الحياة والقصد والإرادة وهي من مقتضيات أن يكون حكيماً . ومع أن هذا مجازاً إلا أنه يصور حقيقة ويقربها فإن لهذا القرآن لروحاً ! وإن له لصفات الحي الذي يعاطفك وتعاطفه حين تصفي له قلبك، وتصغي له روحك ! وإنك لتطلع منه على دخائل وأسرار كلما فتحت له قلبك وخلصت له بروحك » [٥] .

والحق أن الله تعالى قد أقسم بالقرآن الحكيم؛ فأطلق الوصف دون تحديد وجه من الحكمة دون وجه ، وعلى هذا فهو الحكيم في كل مايصح أن يوصف بهذا الوصف من جميع الوجوه المتأتّية فيه، في أحكامه، ونظمه، ومعانيه، وأساليبه، ومناهج دعوته، وتناسقه وتناسبه، ومجمله ومفصله، وسائر الفضائل المعربة عن حكمته وحكمة المتكلم به سبحانه .

---

(١) تفسير الطبري ٩٧/٢٢ ، وتنوير المقباس من تفسير ابن عباس (ضمن مجمع التفاسير ١٩٥/٥).

(٢) سورة هود ، الآية ١ .

(٣) تفسير القرطبي ٥/١٥ ، وفتح القدير ٣٦٠/٤ .

(٤) الكشـاف ٣١٤/٣ ، وتفسير النسـفي (ضمن مجمع التفاسير ١٩٥/٥) ، وتفسـير أبي السعـود ١٥٨/٧ وروح المعاني ٢١١/٢٢ ، ٢١٢ ، ومحاسن التأويل للقاسمي ٤٩٩/١٤ .

(٥) في ظلال القرآن ٥ / ٢٩٥٨ .

أكد الله تعالى بهذا المقسم به أن محمداً ﷺ من المرسلين على صراط مستقيم ، أي على طريق لا اعوجاج فيه من الهدى والإسلام [١] ، وعبر عنه بالتنكير للتفخيم والتعظيم [٢] . وفي قوله : ﴿ **على صراط مستقيم** ﴾ وجهان ، أحدهما : أنه خبر بعد خبر ، أي : إنك لمن المرسلين . إنك على صراط مستقيم ، والآخر : أنه من صلة الإرسال ، أي : إنك لمن الذين أرسلوا على صراط مستقيم [٣] .

وقال الزجاج - مؤيداً الوجه الأول : « وأحسن ما جاء في العربية أن يكون (لمن المرسلين) خبر (إن) ويكون قوله : (على صراط مستقيم) خبراً ثانياً ، فيكون المعنى : إنك لمن المرسلين إنك على صراط مستقيم »[٤]، ولعله جعل هذا التركيب أحسن ما جاء في العربية من هذا النسق؛ لأنه يتيح للمؤكد الأول أن يعمل في الجملة الثانية (على صراط مستقيم) عمله في الجملة الأولى (إنك لمن المرسلين)، دون أن يتكرر ذكره ، وهو بهذا يدخل في المقسم عليه المؤكد بالقسم ، وهذا الجزء من الكلام يحسن تأكيده إظهاراً له في الصورة المتوخاة من تأكيده بالقسم على سبيل الإيماء بكونه قد أصبح بهذا القسم أمراً مؤكداً ، ولهذا تدخل المؤكدات - غالباً - على جواب القسم .

أما قوله : (تنزيل العزيز الرحيم) بنصب (تنزيل)؛ فعلى معنى: نُزِّل تنزيل العزيز الرحيم ، وهي قراءة حفص عن عاصم المثبتة في المصحف ، وقرىء بالرفع على تقدير : هو تنزيل ... ، وبكلا الوجهين قرأ قراء الأمصار كما يقول الطبري [٥] .

---

(١) تفسير الطبري ٩٧/٢٢ .

(٢) تفسير أبي السعود ١٥٩/٧ .

(٣) معاني القرآن للفراء ٣٧٢/٢ ، وتفسير الطبري ٩٧/٢٢ ، وتفسير البغوي ٥/٤ .

(٤) معاني القرآن وإعرابه ، للزجاج ٢٧٨/٤ ، وانظر : زاد المسير ٤/٧ .

(٥) تفسير الطبري ٩٧/٢٢ ، وانظر : تفسير البغوي ٥/٤ ، وانظر في القراءتين : كتاب السبعة في القراءات ص ٥٣٩ ، والنشر في القراءات العشر ٣٥٣/٢ .

وعلى الوجهين فإن هذا القول من المقسم عليه في هذا الموطن، وقد عبّر عنه القرآن بالتنزيل « بياناً لكمال عراقته في كونه منزلاً من عند الله عز وجل، كأنّه نفس التنزيل وإظهاراً لفخامته الإضافية بعد بيان فخامته الذاتية بوصفه بالحكمة ... وعلى كل تقدير ففيه تأكيد لمضمون الجملة القسمية » [١].

ومن هذا يتبين أن الخبر المؤكد هنا هو قوله : ﴿ **إنك لمن المرسلين * على صراط مستقيم * تنزيل العزيز الرحيم** ﴾، وقد أكد هذا الخبر بالقسم ، وإنّ واللأم ، واسمية الجملة، وتقدير إنّ في التركيب على النحو الذي تكون فيه الجمل المتتالية هنا أخباراً متوالية ، وقد ذكرت قبل قليل أن التأكيد الداخل في جواب القسم معضد للتأكيد القسمي ، وأنه يظهر الخبر في الصورة المؤكدة التي يرمي إلى تحقيقها القسم ، وهذا نسق عام في كثير من مواضع القسم في القرآن الكريم .

ولكن لمثل هذه المؤكدات شأناً آخر في إثبات الخبر لدى المخاطب وهو هنا الرسول ﷺ ، وتأكيد هذا الخبر له لا يتأتى إلا على سبيل التسلية والتأييد، والإيماء إلى الموقف المعارض المنكر لهذا الخبر، وقد ذكر بعض المفسرين [٢] أن هذا القسم رد على الكفار الذين أنكروا الرسالة وحكي عنهم ذلك في قوله سبحانه : ﴿ **ويقول الذين كفروا لست مرسلاً قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب** ﴾ [٣]، وذكر الألوسي[٤]أنه الإنكار المحكي

---

(١) تفسير أبي السعود ١٥٩/٧ .

(٢) انظر على سبيل المثال : تفسير البغوي ٥/٤ ، وتفسير القرطبي ٥/١٥ ، وتفسير الخازن (ضمن مجمع التفاسير ١٩٥/٥) ، وتفسير أبي السعود ١٥٨/٧ ، وفتح القدير ٣٦٠/٤ ، وروح المعاني ٢١٢/٢٢ .

(٣) سورة الرعد ، الآية ٤٣ .

(٤) انظر : روح المعاني ٢٢ / ٢١٢ .

في آخر سورة فاطر [١] - وهي التي تسبق يس - فجاء في أول هذه السورة القسم على إثبات ما أنكروه في آخر التي سبقتها ·

وفي الجمع بين الفرضين يقول ابن عاشور : « وتأكيد هذا الخبر ··· باعتبار كونه مراداً به التعريض بالمشركين الذين كذبوا بالرسالة ؛ فهو تأنيس للنبي ﷺ، وتعريض بالمشركين، فالتأكيد بالنسبة إليه زيادة تقرير، وبالنسبة للمعنى الكنائي لرد إنكارهم، والنكت لا تتزاحم » [٢].

والقسم للكافرين على قضية ينكرونها لا يجدي في إثبات المقسم عليه إلا على الوجوه التي ذكرت في صدر هذا المبحث؛ وذلك أن التأكيد في مثل هذا الضرب من القسم يتكىء على ما للقسم من رهبة عند هؤلاء المخاطبين الذين كانوا يتوقون الأيمان الفاجره ويخشون عاقبتها ، فسلامة المقسم - مع رسوخ هذه الفكره لديهم - أعظم دليل على صدقه ، وأن القسم أجدى في مخاطبة أرباب الجدل [٣] .

ولكن القسم في هذا الموضع لا يعتمد في تأكيده للمقسم عليه على ملابسات المقام فحسب، بل إن في تركيبه مايؤكد المقسم عليه ويدفع إلى الإيمان المطلق بصحته، وذلك واضح فيما أشار إليه الرازي من أن في القسم هنا دليلاً على المقسم عليه، فالقرآن معجزة والمعجزة هي دليل كونه مرسلاً ، وإنما سيق هذا الدليل في صورة اليمين لتكون الدواعي إلى الإصغاء إليـه والاهتمام به أقوى ؛ فيتشربه الفؤاد فيقع في السمع وينفع في القلب [٤].

---

(١) انظر الآيات : ٤٢ - ٤٥ من سورة فاطر ·

(٢) التحرير والتنوير ٣٤٦/٢٢ ·

(٣) التفسير الكبير ٤١/٢٦ · وانظر ماسبق في ص ٨٨،٨٩من هذا البحث ·

(٤) التفسير الكبير ٤١/٢٦ · (بتصرف) · ولي تعليق هنا على قوله في هذا الموضع من تفسيره : «الثالث : هو أن هذا ليس مجرد الحلف وإنما هو دليل خرج في صورة اليمين ·· » ؛ لأنه يفيد أن القسم يمكن أن يكون - في حالة من حالاته - مجرد صيغة تأكيد لا تدل على المقسم عليه ، وذلك ما لايكون أبداً ؛ لأن القسم في كل موضع من مواضعه قائم على أن المقسم به يؤكد المقسم عليه بما تقوم بينهما من علاقات ، وما علاقة الاستدلال التي ذكرها الرازي هنا إلا واحدة من تلك العلاقات ·

وفي إشارة الرازي إلى كون القرآن (المقسم به) دليلاً على صدق الرسالة (المقسم عليها) - لفت إلى علاقة خاصة بين عنصري القسم ، وهي علاقة يقوم فيها المقسم به شاهداً على المقسم عليه ودليلاً عليه ، وفي ضوء هذه العلاقة يمكن تفسير خصوصية القسم بالقرآن واختياره مقسماً به في هذا الموقع ·

ويؤكد خصوصية اختيار المقسم به في هذا الموضع ودلالته على المقسم عليه - من هذا الوجه أيضاً - أبو السعود ؛ في قوله : « وفي تخصيص القرآن بالإقسام به أولاً وبوصفه بالحكيم ثانياً تنويه بشأنه وتنبيه على أنه كما يشهد برسالته ﷺ من حيث نظمه المعجز المنطوي على بدائع الحكم ، يشهد بها من هذه الحيثية أيضاً لما أنّ الإقسام بالشيء استشهاد به على تحقق مضمون الجملة القسمية وتقوية لثبوته فيكون شاهداً به ودليلاً عليه قطعاً »[1].

وفي هذا النص تفسير لخصوصية وصف المقسم بـ (الحكيم)، وذلك أنه وصف يشير إلى جملة من وجوه الإعجاز في هذا القرآن المقسم به، وعليها تقوم دلالة المقسم به على المقسم عليه، وهذه هي قيمة هذا الوصف في العلاقة بين عنصري القسم ·

غير أن الرازي يثير هنا إشكالاً ؛ وهو أن « كون القرآن حكيماً عندهم [أي الكافرين] لكون محمد رسولاً ، فلهم أن يقولوا إن هذا ليس بقسم »[2] ؛ أي أن إيمان هؤلاء الكافرين بكون القرآن حكيماً لابد أن يسبقه إيمان بكون محمد ﷺ رسولاً ؛ فكيف يكون هذا قسماً مثبتاً للرسالة ، وهم يحتاجون لكي يؤمنوا بالمقسم به (المؤكد للمقسم عليه) إلى الإيمان بالمقسم عليه ؟!

وقد أجاب عن ذلك من وجهين: أحدهما : «أن كون القرآن معجزة بَيِّنٌ إن أنكروه

---

(١) تفسير أبي السعود ٧ / ١٥٨ ، ١٥٩ ·

(٢) التفسير الكبير ٢٦ / ٤١ ·

قيل لهم : **فأتوا بسورة من مثله** » [١] أي : أن قضية الإعجاز مقررة عندهم فيصح كون القرآن مقسماً به لإثبات الرسالة ، وهو الحكيم المعجز بشهادة فصحائهم وبلغائهم . والآخر : أن التأكيد هنا مستمد من ثقة المخاطبين في تعظيم المقسم للمقسم به ؛ لأنهم يعلمون أنه لا يقسم بالقرآن كاذباً ، وذلك أنه قد جرى العرف على « أن العاقل لايثق بيمين غيره إلا إذا حلف بما يعتقد عظمته . . . وكان من المعلوم أن النبي ﷺ وأصحابه يعظمون القرآن فحلفه به هو الذي يوجب ثقتهم به » [٢] .

وإذا كان الإيمان بكون القرآن حكيماً أمراً مقرراً عند هؤلاء الكافرين ؛ فإن ذلك يقتضي أن يؤمنوا بالرسالة، وعلى هذا يمكن أن يفسِّر مجيُء المقسم به (وهو القرآن) موصوفاً بـ (الحكيم) وجه التعريض بموقف الكافرين من المقسم عليه ؛ لأن الإيمان بصدق الرسالة يتأتى من الإيمان بكونه حكيماً ، وهو ما أقروه وعرفوه واشتهر عنهم ، ولكنهم يجحدونه حسداً واستكباراً ، وعلى هذا فإن إختيار صورة المقسم به مناسبة للمقام الخاص الذي جاء هذا القسم فيه لإثبات الرسالة على نحو خاص يقوم على الرد على موقف الكافرين المبني على الكبر والجحود بما استيقنته أنفسهم [٣] . وهذا يشير إلى أن في القرآن نفسه - وهو المتضمن للرسالة - دليلاً على صدقها وصحتها، ويومىء لهؤلاء المنكرين إلى أنه ليس ثمة شيء أكثر تأكيداً لصحتها من هذا القرآن الحكيم الذي استقر في أنفسهم كونه حكيماً .

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/٤١ . وانظر : الآية ٢٣ من سورة البقرة .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) علل القاسمي إيثار وصف القرآن بالحكمة بقوله : « ولما كانت منزلة الحكمة من المعارف منزلة الرأس ، وكانت أخص أوصاف التنزيل أوثرت في القسم به دون بقية صفاته لذلك » . (انظر : محاسن التأويل ١٤ / ٤٩٩١) وهذا تعليل عقلي يفسر القسم بالشيء في معزل عن المقسم عليه ، وهذا مما يأباه النظر البلاغي .

ويؤيد مناسبة صورة المقسم به هنا لهذا الموقف الخاص - على النحو الذي بُيِّن- أن هذا الإنكار قد صرحت به الآيات التي سبقت القسم في آخر سورة فاطر وهي الآيات التي حكت عنهم هذا الموقف ، يقول تعالى : ﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير مازادهم إلا نفوراً * استكباراً في الأرض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً** ﴾ (١) .

وواضح من هذا صلة القسم وعناصره بالسياق الخاص الذي ورد فيه ، وهي الصلة التي جعلته يقع في صدر سورة يس بعد أن حكت الآيات في آخر السورة التي سبقتها - وهي سورة فاطر - ذلك الموقف الخاص من الكافرين تجاه الرسالة ، وهو موقف يجمع فيه الكافرون بين التكذيب استكباراً وبين المكر للرسول ﷺ ، كما جاء عنهم في الآيات السابقة : (استكباراً في الأرض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله . . .) وقد صرح القرآن بأن من هذا المكر محاولة قتله ﷺ في قوله سبحانه: ﴿ **وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين** ﴾ (٢) .

فلما كان هذا الموقف الذي أعربت عنه الآيات الواردة في آخر سورة فاطر متضمناً مواجهة الرسالة بتكذيبها استكباراً، والمكر بالمرسل بها، ومنه محاولة قتله ، جاء القسم في أول سورة يس بما يعرّض بسبب تكذيبهم وهو الاستكبار وذلك قوله : ﴿ والقرآن الحكيم ﴾ - على الوجه الذي تقدم بيانه - ، وجاء في سياق هذا القسم - أيضا - الحديث عن نصر الله تعالى لنبيه بنجاته من محاولة قتلهم إياه ومكرهم له ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ **وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً**

---

(١) سورة فاطر ، الآية ٤٢ ، ٤٣ .

(٢) سورة الأنفال ، الآية ٣٠ .

فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾ [١]، وهذا ضرب من صلة القسم وعناصره بسياقه السابق واللاحق - دقيق جداً .

ومن وجوه ارتباط القسم بسياقه الخاص علاقته بما افتتحت به السورة من الحروف المقطعة وهو قوله سبحانه (يس) ، فبين هذا الافتتاح والقسم الذي تلاه وهو القسم بـ (القرآن الحكيم) علاقة عامة وأخرى خاصة ؛ فالعلاقة العامة هي اشتراك كل من الأمرين في التنويه بشأن القرآن وإعجازه على النحو الذي سبق تفصيله في صدر هذا الفصل [٢] .

أما العلاقة الخاصة فيمكن تأملها من خلال تفسير (يس) ، فإذا فسرت وفق لغة طيء بـ : ياإنسان، أوفسرت بأنها اسم من أسماء الرسول ﷺ، أوفسرت بأنها علم على السورة ؛ فهي بالمدلولات الثلاثة تشير - كما يرى بعض الباحثين [٣] - إلى معجزة (الإنسان الكامل) المتمثلة في الرسول ﷺ ، ويؤيد كون الرسول ﷺ قد استوعب صفات الإنسان الكامل أن الله تعالى يقول فيه مطلقاً لفظ (الناس) : **﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ﴾** [٤].

وإذا كانت (يس) تشير إلى تحقق معجزة الإنسان الكامل -وفق هذا التفسير- ويؤيدها ما جاء في السياق القرآني من إطلاق لفظ (الناس) عليه ، وكأنما هو الناس جميعاً ، فإن مجيء القسم بالقرآن الحكيم عقب هذه الإشارة مناسب لما تضمنته من معنى (الإنسان الكامل) ، بوصف هذا القرآن منهجاً لهذا ، (الإنسان الكامل) وقد تحقق ذلك في صفوة الناس محمد ﷺ؛ فقالت فيه عائشة رضي الله

---

(١) سورة يس ، الآية ٩ . وقيل إن هذه الآية نزلت في وصف الكيفية التي نجى الله تعالى بها نبيه من مكر الكافرين حين حاولوا قتله والمكر به عليه الصلاة والسلام؛ انظر : لباب النقول في أسباب النزول ص ١٨٢ .

(٢) انظر ص ٣٨٢ من هذا البحث .

(٣) انظر : معجزات قلب القرآن ، للأستاذ هاشم دفتردار : ص ٢٨٠ ، ٢٨١ .

(٤) سورة النساء ، الآية ٥٤ .

عنها : « فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن » [١] ومن هنا نلحظ علاقة دقيقة تجري في السياق وتنتظم كل أجزائه في نسق واحد وفي ترابط عجيب .

ولوصف المقسم به هنا بالحكيم وكونه من صفات العقلاء ، صلة بالرد على مطاعن الكافرين فيه وفي المرسل به ، في سياق إثبات الرسالة لهؤلاء المنكرين ، وبخاصة رميه بالجنون ، ففي هذا الوصف الذي اشتمل عليه المقسم به تنويه بحكمة هذا القرآن وشأن الرسول الذي بعث به ؛ فلهذا الوصف في هذا السياق قيمة ذات صلة بما دل عليه (يس) من معنى (الإنسان الكامل) فهو وصف يشير إلى ما فيه وما في الكتاب الذي بعث به من معاني الحكمة وأماراتها الواضحة المشهورة الشاهدة ببطلان تهمة الجنون وسائر ما وصفوه به من نعوت باطلة .

ولهذه العلاقة نظائر أخرى في القسم القرآني؛ فقد أقسم الله تعالى في قوله : ﴿ **ن والقلم وما يسطرون * ما أنت بنعمة ربك بمجنون** ﴾ [٢] ، أقسم في هذا الموضع بالقلم وما سطر به من العلوم والمعارف وغير ذلك من أساطير الأولين ، على نفي الجنون عن رسوله ﷺ مستدلاً على ذلك بما أنعم الله تعالى به عليه من القرآن الحكيم الشاهد بالكمال في العقل والعلم وسائر الصفات، ثم ذكر في المقسم عليه - أيضا - قوله: ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ [٣]، فنوه في هذا السياق بشأن الرسول ﷺ وخلقه العظيم الذي تقدم- في حديث عائشة رضي الله عنها- أنه هو القرآن الحكيم الذي أنعم الله به عليه.وكل ذلك وارد في سياق إثبات الرسالة ومصدرها والرد على افتراءات المشركين ، وفي كلا الموضعين اقترن المقسم به بالحروف المقطعة .

---

(١) الحديث في : صحيح مسلم (بشرح النووي) ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض ، ٦ / ٢٦ .

(٢) سورة القلم ، الآية ١ ، ٢ .

(٣) سورة القلم ، الآية ٤ .

فهذه المعاني متسقة ومترابطة في السياق القرآني ، وهي تؤيد ما أثبته هنا من الصلة بين المقسم به المقيد بوصف الحكيم وبين (يس) - بالتفسير السابق - . وهذا الاتصال الوثيق بين هذين القسمين - قسم سورة يس وقسم سورة القلم - يؤكد ما تكررت إشارة هذا البحث إليه من وجود سياق عام يربط مواضع القسم في القرآن الكريم بعضها ببعض .

أما مناسبة القسم بالقرآن الحكيم على إثبات الرسالة ومصدرها للسياق العام لسورة يس ؛ فيتضح جانب منها في تعليل بعض المفسرين لتسمية هذه السورة بـ « قلب القرآن »، فقد قالوا : إنها سميّت بذلك لأنها عنيت بتقرير أصول الإيمان الرئيسة الوحدانية - الرسالة - البعث، فكل مافيها ليس إلا تقريراً لهذه الأصول [(١)]؛ والقرآن الحكيم المقسم به هنا قد عنى بتقرير هذه الأصول وكل ما فيه يندرج تحت تقرير هذه الأصول ؛ والرسالة المقسم عليها لم تكن إلا لإثبات هذه الأصول التي تضمنها القرآن الحكيم وتثبيتها في المرسل إليهم .

وعلى هذا تكون عناصر القسم : المقسم به والمقسم عليه ، المفتتح بها هنا عنواناً لما ضمته السورة من جمعها للعناية بالأصول التي ضمها هذا القرآن وجاءت بها هذه الرسالة فيكون القسم - في مجمله - تنويهاً بهذه العناية التي رشحت هذه السورة لأن تسمى « قلب القرآن » .

وإذا كان الأمر كذلك فلا أقل من أن تفتتح السورة وتختتم - أيضاً - بالتنويه بشأن القرآن الذي جمعت هذه السورة قضاياه ، والرسالة المقسم عليها ؛ فكما افتتحت بالقسم بالقرآن الحكيم على إثبات الرسالة جاء في نهايتها قوله سبحانه : ﴿ **وما علمناه الشعر وماينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين * لتنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين** ﴾ [(٢)]، فاشتمل على تنزيه القرآن والتنويه به ، وإثبات الرسالة ، وهما المقسم به والمقسم عليه اللذين افتتحت بهما السورة . وبين ذلك بسطت السورة الحديث في تقرير تلك الأصول .

---

(١) انظر : التفسير الكبير ١١٣/٢٦ ، ونظم الدرر ٨٤/١٦ فما بعدها ، والتحرير والتنوير ٣٤٤/٢٢ .

(٢) سورة يس ، الآية ٦٩ ، ٧٠ .

فهذا هو وجه صلة القسم وعناصره بالسياق العام للسورة التي ورد فيها ، ووجه انتظامه معها .

وثمة وجوه أخرى تربط بين القسم وبعض أجزاء السورة ؛ ومن ذلك ماجاء فيها من بسط قصة أصحاب القرية التي جاءها المرسلون، فالموقف الخاص لأصحاب هذه القصة يماثل الموقف القسمي الذي صدرت به السورة وهو موقف كفار قريش ، بجامع مابينهما من المبالغة في التكذيب والإنكار ، والاعتداء على رسل الله تعالى ، وقد تقدم أن الموقف الخاص الذي أقسم فيه في صدر هذه السورة جمع فيه الكافرون من قريش بين الإنكار والمكر والاعتداء ، وهذا هو وجه صلة قصة أصحاب القرية بالسياق الخاص الذي جاء فيه القسم .

ومن وجوه ارتباط القسم بسورته أن هذا القرآن الحكيم الذي أقسم الله تعالى به على إثبات الرسالة وعلى أنه (تنزيل العزيز الرحيم) قد اشتمل على كثير من مظاهر عزة الله تعالى ورحمته ، ولما كانت هذه السورة جامعة لما اشتمل عليه القرآن ، شاع فيها أيضا الحديث عن كثير من مظاهر عزة الله ورحمته ، فكان هذا الجزء من المقسم عليه ممهداً لهذا الشيوع ، وقد لحظ أستاذنا الدكتور حسن باجودة أن مجيء هذين الاسمين الكريمين من أسمائه سبحانه : (العزيز - الرحيم) في صدر السورة دون سواهما يلقي « ضوءاً كبيراً على الكثير جداً من الآيات في هذه السورة المباركة التي تتجلى فيها قدرة الفعال لما يريد وعزته ، ورحمة البر الرحيم التي وسعت كل شيء » (١) .

وإذا كان القسم بالقرآن الحكيم يلفت أولئك الكافرين إلى ما استقر عندهم من دلائل حكمته ؛ وهو ماتضمنته آياته المحكمات ؛ فإن ذلك يلفت أيضاً إلى حكمة منزله وقائله سبحانه وتعالى ؛ ولهذا جاء في السورة - بعد حكاية قصة أصحاب القرية وتكذيبهم وأخذ الله تعالى لهم - اللفت إلى دلائل قدرة الله تعالى وعزته

---

(١) تأملات في سورة يس ص ١٧ ، ١٨ . وقد أبان أستاذنا ذلك في ص ١٨ فما بعدها ، وانظر ص ٦٢ . وفي الكتاب - في مجمله - بيان لجريان هذين الوصفين في السورة .

ورحمته الناطقة بحكمته ، وصدر كل لفت بقوله : (وآية لهم ...) ؛ مشيراً إلى إحياء الأرض الميته ، وجعل الجنات وتفجير العيون ، وخلق الأزواج كلها ، وانسلاخ النهار من الليل ، وجريان الشمس وتقدير منازل القمر ونظام الفلك ، وحمل الناس في الفلك [١]، فكل ذلك أشير إليه بوصفه : آية لهم ، وكأنما هي آيات ناطقات كآيات القرآن الحكيم الذي تحيا به القلوب والنفوس ، فتثمر الخير ، وتعمر العالم ، وتخرجه من الظلمات إلى النور [٢]، وهي آيات متسقة في نظام كنظام هذا الكون في إبداعه وتناغم أجزائه وترابطها، اتساقاً محكماً يشهد بأنها (تنزيل العزيز الرحيم) ، ولكن أكثر الناس لايؤمنون بل هم كما عقب سبحانه على الآيات السالفات بقوله : **﴿ وماتأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ﴾**[٣]، والتعقيب بهذه الآية يشمل موقف الكافرين من الآيات جميعها : الكونية والقرآنية.

وهذا نظر دقيق تظهر به الصلة الوثيقة العميقة بين القسم بالقرآن الحكيم وبين هذه الآيات التي نوهت بتلك الآيات الكونية .

وبعد، فصلات القسم بسياقه العام أكثر وأدق من أن نستقصيها في هذا

---

(١) انظر الآيات : ٣٣ - ٤٤ .

(٢) يلاحظ هنا أن ترتيب هذه الأمور في الذكر في الآيات المشار إليها هنا في سورة يس يأتي على نحو يشي بعلاقة التمثيل بين آيات الكون وآيات القرآن ، فآية إحياء الأرض تحكي إحياء القرآن للقلوب وهو ما جاء بعد ذلك في السورة نفسها في قوله سبحانه : (... إن هو إلا ذكر وقرآن مبين . لتنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين) (٦٩ ، ٧٠) ، ثم ذكر عقب آية إحياء الأرض مايتبع ذلك من جعل الجنات وتفجير العيون وجني الثمار وهو مقابل الخير الذي يثمر عنه إحياء القرآن للقلوب ، وهكذا آيات الليل والنهار والشمس والقمر فهي تقابل حركة الخروج من الظلمات إلى النور ، ولو ذهبنا في تتبع هذه العلاقات مذهب الاستقصاء لشغلنا ذلك عن غيره ، وحسبي هنا أن أشير إلى أن علاقة إحياء الأرض بالماء بإحياء النفوس بالقرآن علاقة مطردة في البيان القرآني وسيأتي تفصيل آخر لهذا الملحظ في مواضع تالية .

(٣) الآية : ٤٦ .

الموضع ، وإنما هي علامات وأمارات نحاول أن نضعها بين يدي القارىء لتطلعه على وجه مجيء هذا القسم في هذه السورة . وكذلك الشأن في الجوانب المختلفة التي وقفنا عندها في هذا الموضع وغيره .

الموضع الثاني : القسم بـ (القرآن ذي الذكر) :

قوله تعالى : ﴿ **ص والقرآن ذي الذكر * بل الذين كفروا في عزة وشقاق * كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص * وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب * أجعل الآلهة إلهاً واحد إن هذا لشيء عجاب * وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد * ماسمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق * أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شك من ذكري بل لما يذوقوا عذاب** ﴾ (١) .

هذا القسم يرد - كما هو واضح - في سياق الحديث عن تكذيب الكافرين للرسالة وتعجبهم مما تضمنته من الدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك ، وتعجبهم من كون الرسول ﷺ بشراً ، وما تبع ذلك من رميهم الرسول عليه الصلاة والسلام بالسحر . وتوضح الآيات أيضاً السبب الذي دعاهم إلى التكذيب بالرسالة وهو حسدهم للمرسل بها وذلك في قوله سبحانه : (أأنزل عليه الذكر من بيننا . . .) الآيات. وهذا سياق يشبه - في مجمله - سياق القسم السابق الوارد في سورة يس .

وكما كان القسم في صدر سورة (يس) مسبوقاً بالحروف المقطعة جاء هذا القسم مسبوقاً بقوله : ص ؛ وقد اختلف في معناه؛ فقال بعضهم : هو من المصاداة من صاديت فلاناً أي عارضته ، وعلى هذا ذكروا أن معناه : صاد بعملك القرآن أي عارضه به . وذكر بعضهم أنه قسم أقسم الله به وأنه من أسمائه سبحانه أو من أسماء القرآن ، أو هو مفتاح أسماء الله تعالى التي أولها ص. وذهب بعضهم إلى أن المعنى : صدق الله أو صدق محمد ﷺ . وقيل: هو في معناه كقولك : وجب والله ، نزل والله، وحق والله ، فهو جواب لقوله : (والقرآن. . .) كما يقال : حقاً والله.

---

(١) سورة ص ، الآيات ١-٨ ، وانظر الايات ٩-١٦ .

وفي ذلك وجوه أخرى أثبتها المفسرون (١).

والقسم هنا صادر من الله تعالى . وقد روي أن هذه الايات قد نزلت عقب موقف جرى بين الرسول ﷺ وقومه من كفار قريش؛ وذلك أنه لما مرض أبوطالب جاءته قريش وجاءه الرسول ﷺ « فشكوه إلى أبي طالب، فقال : ياابن أخي ماتريد من قومك ؟ قال : ياعم إنما أريد منهم كلمة تذل لهم بها العرب وتؤدي إليهم الجزية بها العجم . قال : وما الكلمة ؟ قال : كلمة واحدة، قال : ماهي ؟ قال : لا إله إلا الله ، فقالوا: أجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ ... فنزل فيهم القرآن : ﴿ **ص والقرآن ذي الذكر...** ﴾» (٢).

وهذه الرواية تشير إلى أن القسم الوارد في صدر هذه الايات يراد به الرد على أولئك المشركين فيما اعترضوا به على الوحدانية وماتبع ذلك من مواقفهم من أصول الرسالة التي حكيت في هذا السياق ، وأن المخاطب به هو الرسول ﷺ ، ويؤيد كونه عليه السلام مخاطباً في هذا الموضع قوله سبحانه عقب حكاية تلك المواقف الصادرة منهم :﴿ **اصبر على مايقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب** ﴾ (٣).

والغرض من التوكيد القسمي في هذا الموقف تسلية الرسول ﷺ ، كما تقدم في سورة يس ، وصرح بهذا الغرض في الآية السابقة وعطف عليه اللفت إلى قصة داود عليه السلام ومابعدها من القصص الواردة في هذه السورة ؛ فربط فيها بين الأمر بالصبر والأمر بذكر حال الأنبياء السابقين ، لأن المراد من الأمرين تسلية الرسول ﷺ والتخفيف عنه في المواقف التي كان يلقى فيها مايلقى من استكبار قومه وعنادهم وشقاقهم .

---

(١) انظر : تفسير الطبري ٧٤/٢٣ ، ٧٥ ، تفسير البغوي ٤٧/٤ ، الكشاف ٣٥٨/٣ ، زاد المسير ٩٧/٧ التفسير الكبير ١٧٤/٢٦ ، تفسير الخازن ، وتنوير المقباس (كلاهما ضمن مجمع التفاسير ٢٦٠/٥) ، البحر المحيط ٣٨٣/٧ ، فتح القدير ٤١٩/٤ ، وروح المعاني ١٦١/٢٣ .

(٢) أسباب النزول ، للواحدي ص ٤٢٤ ، وانظر : لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي ، ص١٨٣ ، ١٨٤.

(٣) سورة ص ، الآية ١٧ .

ويضاف إلى هذا قضية توكيد الرسالة ، وهي القضية الظاهرة الواضحة في سياق هذا القسم ، فالقسم يوجه هؤلاء الكافرين إلى (القرآن ذي الذكر) ويقرن به التصريح بمواقفهم منه ، وفي ذلك زيادة لفت إلى دليل الرسالة مع بيان عدم انتفاعهم بهذا الدليل ويكون في هذا القسم تأكيد أن القرآن ذو ذكر ، وهو مضمون مؤكد للرسالة ، وقد يكون الخطاب هنا لكل من يصح أن يكون مخاطباً، وعلى هذا يكون اللفت إلى ذلك بالتأكيد القسمي عاماً لجميع المخاطبين .

والمقسم به في هذا الموضع هو قوله : (والقرآن ذي الذكر) ؛ فقد أقسم الله تعالى هنا بالقرآن موصوفاً بـ (ذي الذكر) ، وفي تفسيره وجهان : أحدهما : ذي الشرف، قال تعالى : ﴿ **وإنه لذكر لك ولقومك...** ﴾[1]، وقال تعالى : ﴿ **لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم...** ﴾[2] وهو من قولهم : لفلان ذكر في الناس، كما يقال : له صيت . والآخر : ذي التذكير ذكركم الله به ، وذي البيان ؛ أي بيان قصص الأولين والآخرين [3]، ومايحتاج إليه من الأمور الشرعية والأحكام والوعد والوعيد[4].

واختار الطبري أن يكون المراد به التذكير « لأن الله أتبع ذلك قوله : (بل الذين كفروا في عزة وشقاق) فكان معلوماً بذلك أنه إنما أخبر عن القرآن أنه أنزله ذكراً لعباده ذكرهم به وأن الكفار من الإيمان به في عزة وشقاق »[5]، وهو يعول في هذا الاختيار على علاقة معنى المقسم به بما بعده وهو قوله : (بل الذين كفروا في عزة

---

(١) سورة الزخرف ، الآية ٤٤ .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية ١٠ .

(٣) انظر على سبيل المثال : تفسير الطبري ٢٣/٧٥ ، وتفسير البغوي ٤/٤٧ ، وتفسير الكشاف ٣/٣٥٩، والتفسير الكبير ٢٦/١٧٥، وتنوير المقباس من تفسير ابن عباس (ضمن مجمع التفاسير ٥/٢٠٦) ، وروح المعاني ٢٣/١٦٢.

(٤) روح المعاني ٢٣/١٦٢.

(٥) تفسير الطبري ٢٣/٧٥ .

وشقاق) ، وهذا يرجح أن يكون هذا القول - كما سيأتي - هو المقسم عليه ، لما بين هذين العنصرين في أسلوب القسم من علاقة تهيء أن يفسر أحدهما الآخر .

وعلى الرغم من أن العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه قد أشارت إلى المقسم عليه في هذا الموضع ، وعلى الرغم من وجود دلائل أخرى - سيأتي بيانها - تشير إلى كون المقسم عليه هو قوله : (بل الذين كفروا في عزة وشقاق) ، فضلاً عن ذهاب بعض المفسرين إلى كون هذه الآية هي المقسم عليه ؛ فإن المفسرين قد اختلفوا في تحديد جواب هذا القسم اختلافاً لا نظير له في أكثر مواضع القسم في القرآن الكريم.

ويمكن تصنيف آرائهم في ذلك على النحو التالي :

١ - القول بحذف الجواب :

ذهب كثير من المفسرين إلى أن الجواب في هذا الموضع محذوف واختلفوا في تقديره ؛ فقال بعضهم : حذف الجواب ودل عليه قوله تعالى : (بل الذين كفروا ...) والتقدير : والقرآن ذي الذكر ما الأمر كما يقول الكفار [١]. وذهب الزمخشري - في أحد وجهين في تفسيره لهذه الاية - إلى أن التقدير : إنه لمعجز ؛ دل عليه تقدم الحرف (ص) لما فيه من الإشارة إلى التحدي والإعجاز [٢]. وذهب ابن عبدالسلام[٣] إلى أن التقدير هنا: لنهلكن أعداءك؛ لأنه مردف بقوله:(كم أهلكنا من قبلهم من قرن...).

ويرى أبوحيان أن تقدير الجواب في هذا الموضع يعتمد على قياسه بالمذكور في نظيره، وذلك في قوله :« ينبغي أن يقدر ما أثبت هنا جواباً للقرآن حين أقسم به وذلك في قوله تعالى: ﴿ **يس * والقرآن الحكيم * إنك لمن المرسلين** ﴾[٤] ويقوي هذا

---

(١) انظر : تفسير الطبري ٧٥/٢٣ ، وتفسير الخازن (ضمن مجمع التفاسير ٢٦٠/٥).

(٢) الكشاف ٣٥٩/٣، وانظر: التفسير الكبير ١٧٤/٢٦، وتفسير البيضاوي ٥٩٩ ، وتفسير النسفي (ضمن مجمع التفاسير ٢٦٠/٥)، وتفسير أبي السعود ٢١٣/٧.

(٣) انظر : الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز ص ٢٣ .

(٤) سورة يس ، الآية ١-٣ .

التقدير ذكر النذارة هنا في قوله : ﴿ **وعجبوا أن جاءهم منذر منهم...** ﴾[١] وقال هناك [أي في يس] : ﴿ **لتنذر قوما...** ﴾[٢]، فالرسالة تتضمن النذارة والبشارة »[٣].

وهذا القياس الذي اعتد به أبوحيان غير مجد في تحديد جواب القسم؛ لأن القسم في كل موضع ذو علاقة بجوابه ، ومن ثم فإن الجواب يختلف باختلاف صورة القسم ، وهذا لايعني أن المضمون الذي يثبته القسم لايتحد في أكثر من موضع؛ فإن إثبات الرسالة هو المضمون العام في جميع مواضع القسم بالقرآن ، ومع ذلك فإن صيغة الجواب قد تباينت في هذه المواضع .

ويرى ابن القيم أن الجواب في هذا الموضع من النوع الذي يحذف لدلالة السياق عليه ؛ لأن في المقسم به مايدل على المقسم عليه فلا يحتاج إلى جواب « فإن في المقسم به من تعظيم القرآن ووصفه بأنه ذي الذكر، المتضمن لتذكير العباد مايحتاجون إليه، وللشرف والقدر ، مايدل على المقسم عليه، وكونه حقاً من عند الله ، وغير مفترى، كما يقوله الكافرون »[٤].

وواضح في هذا الرأي أنه يعتمد على دلالة المقسم به على مضمون المقسم عليه، وهذه العلاقة مطردة في جميع مواضع القسم في القرآن الكريم ، ومع ذلك لم يحذف الجواب - وإن بدا محذوفاً في بعضها - من جميع هذه المواضع إلا عندما يفسره السياق تفسيراً قاطعاً لا لبس فيه ، كما مر في بعض المواضع [٥].

---

(١) سورة ص ، الآية ٤ .

(٢) سورة يس ، الآية ٦ .

(٣) البحر المحيط ٣٨٣/٧ .

(٤) التبيان في أقسام القرآن ص ١١.

(٥) انظر: تفسير قوله تعالى:(ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) في ص ›› من هذا البحث.

وكذلك تفسير قوله تعالى: (ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) في ص ٢٣٩ .

وخلاصة القول في الحكم على هذه الآراء التي يرى أصحابها أن الجواب محذوف ويذهبون في تقديره تلك المذاهب؛ أن الجواب عنصر هام وثابت في أسلوب القسم، لأنه هو المؤكد، وأنه لايحذف أبداً، وإنما يترك ذكره إذا فسره المذكور في السياق تفسيراً لايحتاج معه إلى تلك التقديرات التي لايقوم عليها دليل ، وعند ذلك لايكون هذا حذفاً لأن الجواب معروف على وجه القطع ٠

٢ - وقيل إن الجواب مذكور :

وقد ذهب بعض أصحاب هذا الرأي إلى أن الجواب متقدم وهو قوله : (ﷺ) على معنى: وجب والله ونزل والله -على النحو الذي تقدم في بعض وجوه تفسير هذا الحرف- أو على معنى : صدق الله أو صدق رسوله ﷺ [١] وهذا القول يعول على كون الجواب يتقدم القسم وهو مخالف للبناء المعروف لأسلوب القسم، فضلاً عن تعويله على تفسير (ص) بالمعنى الذي سبق وهو لايسلم من اعتراض ٠

وذهب آخرون إلى أن الجواب هو قوله : ﴿ **كم أهلكنا من قبلهم من قرن. . .** ﴾[٢] ولما كان لايصح إلا باللام ذكروا أنها حذفت منه لأنه قد اعترض بين القسم والجواب كلام فجاء قوله (كم أهلكنا . . .) جواباً للقسم وللكلام المعترض به، والتقدير: لقد أهلكنا، وذكروا أن حذف اللام هنا كحذفها في قوله : ﴿ **قد أفلح من زكاها** ﴾ [٣] فإن تقديرها: لقد أفلح ، ولكنها حذفت منه لما اعترض بين القسم والجواب بكلام [٤].وواضح في هذا الرأي تكلف تقدير اللام ليوافق الكلام الصورة التي يأتي عليها الجواب في العرف النحوي ؛ لأن (كم) لايتلقى بها القسم ، ولهذا

---

(١) انظر: معاني القرآن للفراء ٣٩٦/٢، وتفسير الطبري٧٥/٢٣، وتفسير البغوي ٤٧/٤، والكشاف ٣٥٩/٣.

(٢) الاية ٣ ٠

(٣) سورة الشمس ، الآية ٩ ٠

(٤) انظر: معاني القرآن للفراء ٣٩٧/٢ ، وتفسير الطبري ٧٦/٢٣ ٠

استبعده ابن القيم وذكر أنهم لما لم يخف عليهم ذلك قدروا اللام هنا ليكون فيه مايتلقى به [١].

وذكر الأخفش الأوسط[٢] أن قوماً يزعمون أن الجواب هو قوله : ﴿ **إن كل إلا كذب الرسل...** ﴾[٣]، وهذا - كما يقول ابن القيم - أبعد من سابقه [٤]. وقيل: الجواب قوله : ﴿ **إن ذلك لحق تخاصم أهل النار** ﴾[٥]، وهو منقول عن الكوفيين والزجاج، واستبعده الكسائي[٦]، ورده الفراء في قوله: « وذلك كلام تأخر كثيراً عن قوله :(والقرآن) وجرت بينهما قصص مختلفة ؛ فلا نجد ذلك مستقيماً في العربية »[٧] واستبعده ابن القيم أيضاً [٨]. وذهب أبوحيان في أكثر هذه الأقوال إلى أنه يجب إطراحها[٩].

وأولى الأقوال بالصواب قول من ذهب إلى أن الجواب هو قوله سبحانه: (بل الذين كفروا في عزة وشقاق) ، وهو مروي عن قتادة ، واختاره غير واحد من المفسرين واستدلوا عليه بأن (بل) في توكيد مابعدها كـ «إن» المشددة ، وعلى هذا يتلقى بها القسم كما يتلقى بـ (إنّ)[١٠].

---

(١) التبيان في أقسام القرآن ص١١ .

(٢) معاني القرآن للأخفش الأوسط ٤٥٣/٢ ، وانظر: تفسير الطبري ٧٦/٢٣ ، والبحر المحيط ٣٨٣/٧ .

(٣) الآية ١٤ .

(٤) التبيان في أقسام القرآن ص ١١ .

(٥) الآية ٦٤ .

(٦) انظر معاني القرآن للفراء ٣٩٧/٢، وتفسير الطبري ٨٦/٢٣، وتفسير البغوي ٤٧/٤ ووصفه بالضعف، وتفسير الخازن (ضمن مجمع التفاسير ٢٦١/٥) ، والبرهان في علوم القرآن ١٩٣/٣ .

(٧) معاني القرآن للفراء ٣٩٧/٢ .

(٨) التبيان في أقسام القرآن ص١٢ .

(٩) البحر المحيط ٣٨٣/٧ .

(١٠)انظر:معاني القرآن للأخفش ٢٠/١-٢١ ، وتفسير الطبري ٧٦/٢٣، وتنوير المقياس من تفسير ابن عباس (ضمن مجمع التفاسير ٢٦١/٥)، والبرهان في علوم القرآن ١٩٣/٣، وروح المعاني ١٦٢/٢٣.

وسواء أكانت (بل) بمعنى (إن) أم لم تكن كذلك فإن اعتبار هذا القول جواباً للقسم لايشترط له أن يصدر بما يتلقى به القسم عند النحويين ؛ فقد ذكر ابن كثير في تفسيره للقسم في قوله تعالى : (ق والقرآن المجيد) أن « الجواب هو مضمون الكلام بعد القسم... وإن لم يكن القسم يتلقى لفظاً، وهذا كثير في أقسام القرآن كما... في قوله : (ص. والقرآن ذي الذكر بل الذين كفروا...) »[١]، ولهذا نقل في تفسير جواب هذا القسم قول بعضهم: إن الجواب « ماتضمنه سياق السورة بكمالها »[٢]، وهذا رأي له وجه من الصحة إذا علم أن للقسم علاقة وثيقة بالسورة كلها ، ولكنه يفيدنا هنا في تأكيد أن الجواب هو مايصلح أن يكون جواباً من خلال علاقته بالقسم ، وإن لم يكن مصدراً بما يصدر به الجواب في الغالب .

على أن في هذه الآية :(بل الذين كفروا في عزة وشقاق) من المؤكدات - غير كون (بل) بمعنى (إن) - مايجعلها موافقة لتركيب الجواب في أسلوب القسم ، وذلك أن تصديرها بـ (بل) الرابطة بين القسم والجواب يدل على أن في الكلام نفياً لما قبلها وإثباتاً لما بعدها فمعناها - كما يقول الألوسي - : « ليس الذين كفروا إلا في عزة وشقاق » [٣]؛ وعلى هذا فقد اشتمل الجواب على مضمون واحد من أقوى أساليب التوكيد وهو القصر . ويضاف إلى هذا أن في وجوه التعبير التي اشتمل عليها هذا القول مايفيد التوكيد ؛ فقد جاء التنكير في كلمتي :(عزة وشقاق) معبراً عن شدتهما وتفاقمهما وتفاخم الكفار فيهما[٤]، وجاء التعبير بحرف الجر في قوله (في عزة وشقاق) على سبيل الاستعارة التبعية للمبالغة في إحاطة هاتين الصفتين بالكافرين إحاطة الظرف بالمظروف[٥].

---

(١) تفسير ابن كثير ٢٢١/٤ .

(٢) المصدر السابق ٢٦/٤ .

(٣) روح المعاني ١٦٢/٢٣.

(٤) انظر : الكشاف ١٥٩/٣، وتفسير البيضاوي ٥٩٩، وتفسير النسفي (ضمن مجمع التفاسير ٢٦٠/٥) والتسهيل لعلوم التنزيل ٣٧٩/٣.

(٥) انظر : نظم الدرر ٣٢٣/١٦ ، والتحرير والتنوير ٢٠٦/٢٣ .

فجميع ماتقدم يدل دلالة واضحة على أن الجواب هو قوله سبحانه : (بل الذين كفروا في عزة وشقاق) وإن لم يكن فيه الأدوات التي يتلقى بها القسم عند النحويين ، وهو الأقرب إلى السياق ، ولهذا قال ابن القيم في هذا الرأي : « وأقرب ماقيل في الجواب لفظاً ، وإن كان بعيداً معنى ، عن قتادة وغيره : أنه قوله : بل الذين كفروا »[١] . وقد تبين مما سبق أنه يصلح أن يكون جواباً لهذا القسم من جميع الوجوه .

والمراد بـ (الذين كفروا) كفار مكة ، والعزة : الحمية والتكبر ، والشقاق : المشاقة والخلاف والعداوة [٢] . وذكر الرازي في تفسير هذه الآية أن المراد بـ (الذين كفروا) : « الكفار من رؤساء قريش الذين يجوز على مثلهم الإجماع على الحسد والتكبر عن الانقياد إلى الحق . والعزة ههنا: التعظيم ، ومايعتقد الإنسان في نفسه من الأحوال التي تمنعه من متابعة الغير لقوله تعالى : ﴿ **وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم** ﴾[٣] . والشقاق : هو إظهار المخالفة على جهة المساواة للمخالف أو على جهة الفضيلة عليه ، وهو مأخوذ من الشق كأنه يرتفع عن أن يلزمه الانقياد له بل يجعل نفسه في شق وخصمه في شق فيريد أن يكون في شقة نفسه ولا يجري عليه حكم خصمه » [٤] .

وعلى هذا فقد أقسم الله تعالى بالقرآن موصوفاً بـ (ذي الذكر) على أن الكافرين في عزة وشقاق عن الإيمان بالرسالة التي تضمنها هذا القرآن على الرغم مما فيه من الذكر المفضي إلى الإيمان بكونه من عند الله تعالى، وبكون محمد ﷺ مرسلاً به . ومعنى هذا أن العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه تتمثل في كون (القرآن ذي

---

(١) التبيان في أقسام القرآن ص ١٢ .

(٢) انظر : تفسير الطبري ٦٧/٢٣ ، وتفسير البغوي ٤٧/٤ ، وتنوير المقباس (ضمن مجمع التفاسير ٢٦٠/٥) .

(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٠٦ .

(٤) التفسير الكبير ١٧٥/٢٦ .

الذكر) دليلاً على صدق الرسالة التي هم منها في عزة وشقاق ، ففي المقسم به لفت إلى مايصحح الموقف المقسم عليه وإشارة إلى أن هذه الصفة الراسخة الواضحة في القرآن توصل حتماً إلى الإيمان بالرسالة ، ولكن الذين كفروا لم يؤمنوا استكباراً وجحوداً وحسداً ، فكان في موقفهم مخالفة لما كان متوقعاً، وكانت النتائج على خلاف ماتفضي إليه المقدمات .

ولما كانت العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه على هذا النحو جاء الربط بينهما بـ (بل) المشعر بانقطاع القسم عن الجواب للتعبير عن بعد مابين مايفضي إليه المقسم به من الإيمان ، وما آل إليه حال القوم من التكذيب والاستكبار .

وبين المقسم به والمقسم عليه تناسب من وجه آخر؛ وذلك أن في القسم بالقرآن موصوفاً بهذا الوصف ، واقترانه بالحروف المقطعة - تنويهاً بشأنه وتشريفاً له، وفي المقسم عليه بهذا القسم تحقيراً لموقف الكافرين المناقض لهذا التنويه والتشريف، فعلاقة التضاد هنا هي الرابطة بين عنصري القسم . وعلى هذا يكون الالتفات بـ(بل) - كما يرى سيد قطب - قد جاء على نحو « يوجه النظر بشدة إلى المفارقة العظيمة بين تعظيم الله تعالى لهذا القرآن، واستكبار المشركين عنه ومشاقتهم فيه وهو أمر عظيم »[١] .

وهذه العلاقة ذات أثر عظيم في إثبات المقسم عليه ؛ لأنه إذا ثبت بالقسم بـ (القرآن ذي الذكر) أنه عظيم ، وأنه ذو ذكر يدعو إلى الإيمان به؛ ثبت من كل الوجوه أن هؤلاء الكافرين لم يكذبوا به إلا لما هم فيه من العزة والشقاق؛ فهم كما قال الله تعالى عنهم: ﴿... **فإنهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون**﴾[٢]. ومن هذا يتضح أن العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه هي التي تشير إلى المضمون المقسم عليه دونما حاجة إلى تقدير أمر خارج عن الأسلوب، كما فعل بعض المفسرين فيما مر ذكره .

---

(١) في ظلال القرآن ٣٠٠٧/٥ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية ٣٣ .

وللوصف الذي وصف به المقسم به خصوصية هامة في تأكيد المقسم عليه لدى المخاطب ؛ وذلك أنه « لما كان القسم لايليق ولايحسن إلا بما يعتقد المقسم له شرفه؛ قال : (ذي الذكر) أي الموعظة والتذكير بما يعرف والعلو والشرف والصدق الذي لاريب فيه عند كل أحد ، فكل من سمعه اعتقد شرفه وصدق الآتي به. . . »[١].

وثمة علاقة خاصة بين القسم في هذا الموضع والموقع الخاص الذي جاء فيه؛ فصورة القسم الواقع هنا في صدر سورة (ص) مناسبة للسياق الخاص في صدر هذه السورة ولما ورد في آخر السورة التي سبقتها وهي سورة الصافات ، ويتم هذا التناسب على نحو دقيق يربط أول هذه السورة بآخر ماقبلها .

وذلك أن المتحدث عنهم في هذا القسم هم الذين حُكي عنهم في آخر سورة الصافات تمنيهم إنزال الذكر في قوله تعالى: **﴿ وإن كانوا ليقولون * لو أن عندنا ذكراً من الأولين * لكنا عباد الله المخلصين * فكفروا به فسوف يعلمون ﴾**[٢]؛ فلما اشتملت الآيات في آخر الصافات على ذلك ؛ افتتحت سورة (ص) بالقسم بالقرآن موصوفاً بما تمنوه : (والقرآن ذي الذكر)، وكأن القسم به يلفتهم إلى أن هذا هو القرآن ذي الذكر الذي تمنوا، فهل آمنوا ؟ لا: (بل الذين كفروا في عزة وشقاق) .

وعلى هذا فقد جاءت صورة القسم مناسبة للسياق الذي تقدمه . ومن ناحية أخرى فإنها تناسب أيضاً الموقع الخاص ، وهو صدر سورة (ص) ؛ فهو قسم على موقف كفار قريش في إنكارهم للرسالة وعجبهم من مجيء المنذر منهم ، ومما جاء به من المعتقدات، وعجبهم – على وجه الخصوص – من أن ينزل عليه (الذكر) من بينهم: **﴿ أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شك من ذكري بل لما يذوقوا عذاب ﴾**[٣]، فلما بني إنكارهم للرسالة على عجبهم من ذلك واستبعادهم له وحسدهم

---

(١) نظم الدرر ٣٢٣/١٦ .

(٢) سورة الصافات ، الآيات ١٦٧-١٧٠.

(٣) سورة ص ، الآية ٨ .

للمرسل بها؛ جاء القسم بـ (القرآن) الذي نزل على الرسول ﷺ موصوفاً بـ (ذي الذكر) ليناسب الوجه الذي بني عليه موقف الكافرين .

ومما سبق يتضح أن هذا القسم قد ربط بين سياقين لكل منهما صلة بالوصف الذي وصف به المقسم به فيه ، وهذا يشير إلى تمكن هذا القسم من الموقع الخاص الذي ورد فيه باتصاله مع ماقبله ومابعده اتصالاً وثيقاً .

وبين العناصر التي اشتملت عليها آية المقسم به: (ص والقرآن ذي الذكر) تناسب بديع ، فقد صدرت بالحرف المنبه على الإعجاز والتحدي وفي ذلك تنويه بالقرآن، ثم وصف بـ (ذي الذكر) وفي هذا الوصف إشارة إلى إعجازه أيضاً وتنبيه على علو قدره، وجاء التعبير بـ (ذي) في هذا الوصف؛ لأنها -كما يقول ابن عاشور- « تضاف إلى الأشياء الرفيعة فتجرى على متصف مقصود التنويه به »[1]. وكل ذلك يكشف عن نسق خاص تتآخى فيه العناصر اللغوية المعبر بها في هذه الآية ، وتتفق في الإشادة بعلو شأن القرآن .

ووصف القرآن بـ (ذي الذكر) بعد الحرف (ص) يتسق مع ظاهرة عامة في القرآن الكريم كله ؛ وذلك أن هذا الحرف إذا جاء وحده أو مع غيره من الحروف المقطعة في صدر السور القرآنية يغلب عليها أو تظهر فيها بوضوح العناية بفكرة (الذكر) بل إن لفظ الذكر بخاصة يرد بعد ذكر الحرف (ص)، وهذا ظاهر لمن تتبعه[2]، وهذا يعني أن

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠٣/٢٣ .

(٢) ورد الحرف (ص) - مفردا أومع غيره - في أوائل ثلاث سور من السور التي افتتحت بالحروف المقطعة في القرآن ؛ وهي:

١ - في أول سورة الأعراف : (المص. كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين . اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولاتتبعوا من دونه أولياء قليلاً ماتذكرون) (الآيات١-٣) .

٢ - في أول سورة مريم : (كهيعص. ذكر رحمة ربك عبده زكريا) (الآيات ١ ,٢).

٣ - في أول سورة ص : (ص والقرآن ذي الذكر) (الآية١) .

وواضح هنا صلة الحرف (ص) بفكرة الذكر في افتتاح كل من السور الثلاث ، ويتبع هذا شيوع ==

وصف المقسم به يناسب أيضاً الحرف الذي قرن به في أول هذه السورة ، ومن هذا يعلم وجه اقتران هذه الصورة المقسم بها دون غيرها من صور القسم بالقرآن بالحرف (ص) ووجه وقوعها هذا الموقع ، وإن لم تعلم الحكمة في اطراد اقتران (ص) بفكرة (الذكر) في جميع السور التي جاء فيها هذا الحرف ضمن الحروف المقطعة المفتتحة بها بعض سور القرآن .

ومن هذا يلحظ اتساق صورة القسم مع أدق خصوصيات السياق الذي وردت فيه من السورة ، مع مناسبتها للسياق القرآني العام في جانب من جوانبه، وهذا يكشف عن الدقة العجيبة في اختيار عناصر الصورة المقسم بها .

والأمر في هذا الاختيار يتجاوز السياق الخاص للقسم وارتباطه بالسياق العام للعناصر المصاحبة للقسم (كالحرف ص مثلاً) ، إلى مناسبة سياق السورة ، وقد وضح بما تقدم قبل قليل أن فكرة الذكر والألفاظ الدالة عليه ومشتقاتها تشيع في هذه السورة - شأنها شأن غيرها من السور التي ورد في افتتاحها ص - وإذا كان الأمر كذلك فإن الصلة وثيقة بين وصف المقسم به بـ (ذي الذكر) وبين السياق العام للسورة التي ورد فيها القسم. وكثيراً مايكون القسم في أوائل السور- كغيره مما تفتتح به السور - مضمناً الفكرة الجامعة السائدة في السورة كلها ، فهو عنوان للقضايا التي تعالجها ، أو مدخل يمكن التأتي منه إلى العناصر الهامة المكونة لسياقها . ولعل هذا هو الذي دعا بعض المفسرين إلى القول بأن جواب القسم هو « ماتضمنه سياق السورة بكمالها » (١).

== هذه الفكرة والألفاظ الدالة عليها في كل منها على النحو التالي :

١ - في سورة الأعراف : انظر الايات : ٢ ، ٣ ، ٢٦، ٥٧ ، ٦٣ ، ٣/٦٩ ، ٢/٧٤ ، ٧٦ ، ١٣٠ ، ١٦٥ ، ١٧١ ، ٢٠١ ، ٢٠٥ .

٢ - في سورة مريم : ٢ ، ١٦ ، ٤١ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٦٧ .

٣ - في سورة ص : ١ ، ٢/٨ ، ١٧ ، ٢٩ ، ٣٢ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٨٧ .

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٢٦/٤ .

ومن تمام التناسب أن هذه السورة التي شاع فيها الحديث عن أمور ذات صلة بالذكر وكثر فيها هذا اللفظ ومشتقاته - أنها كما ابتدأت بالقسم بـ (القرآن ذي الذكر) اختتمت بتأكيد الوصف الذي وصف به القرآن المقسم به في أولها والذي بنيت عليه السورة في قوله سبحانه : ﴿ **إن هو إلا ذكر للعالمين * ولتعلمن نبأه بعد حين** ﴾ [١].

والقسم وعناصره متسق مع أجزاء السورة وموضوعاتها، ومع القسم الآخر الذي ورد فيها عن إبليس في قوله تعالى : ﴿ **قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين** ﴾[٢]، ويمكن الرجوع في هذا إلى ماكتب في تفسيره؛ ففيه بيان لعلاقة قسم إبليس بالقسم الوارد هنا من جهة أنه قسم على إثبات أن الذين كفروا في عزة وشقاق ، وفيه بيان لوجوه الربط بين مضمون هذا القسم (قسم إبليس) وعناصره والسياق العام في سورة ص ، ويمكن الإفادة منه في استقصاء كثير من العلاقات الدقيقة بين القسم الذي بين أيدينا وسورته[٣]. ولهذا نكتفي بما سبق ذكره هناك.

وبعد ؛ فقد تبين مماسبق تناوله في هذا الموضع أن اختيار عناصر القسم لايراعى فيه جانب دون آخر ، بل تأتي هذه العناصر متسقة بعضها مع بعض ، ومناسبة للمقسم عليه والمقسم له، ومساوقة للموقع الخاص الذي ورد فيه القسم، وماقبله ومابعده، وذات ارتباط عميق ووثيق بالسياق العام للسورة التي ورد فيها القسم، بل بالسياق القرآني العام والظواهر المتعلقة به ؛ كل هذا تأتي عناصر القسم موافقة لمقتضياته، على نحو لامثيل له إلا في أسلوب القرآن ونظمه المعجز .

---

(١) الآية ٨٧ ، ٨٨ .

(٢) سورة ص ، الآية ٨٢ .

(٣) انظر : تفسير القسم بـ (عزة الله تعالى) الصادر من إبليس : ص . . . من هذا البحث .

الموضع الثالث: القسم بـ(القرآن المجيد):

قوله تعالى: ﴿ **ق والقرآن المجيد * بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب * أإذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد * قد علمنا ماتنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ * بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج** ﴾[١].

يرد هذا القسم في صدر سورة ق، في سياق الحديث عن موقف الكافرين من الرسالة وقضاياها؛ وبخاصة قضية البعث؛ فيقسم الله تعالى بـ(القرآن المجيد) على إثبات أن النبي ﷺ قد بعث إليهم لينذرهم بعذابه وعلى صحة ما أنذر به من البعث، وهو المفهوم من قوله سبحانه: ﴿ **بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب * أإذا متنا...** ﴾ الآيات.

ولم أجد - فيما اطلعت عليه من مصادر -ماينص على مناسبة نزول هذه الآيات، ولكن في الآيات نفسها مايوضح المقام الذي سيقت له.

ففيها- كما فسرها الزمخشري - « إنكار لتعجبهم مما ليس بعجب وهو أن ينذرهم بالخوف رجل منهم قد عرفوا وساطته فيهم وعدالته وأمانته، ومن كان على صفته لم يكن إلا ناصحاً لقومه... وإذا علم مخوفاً أظلهم لزمه أن ينذرهم ويحذرهم، فكيف بما هو غاية المخاوف ونهاية المحاذير، وإنكار لتعجبهم مما أنذرهم به من البعث... »[٢]. وعلى هذا فإن الكلام هنا وارد على سبيل الرد والإنكار على هؤلاء الكافرين في موقفهم الذي حكته الآيات، وهو لذلك يفتقر إلى التأكيد القسمي.

ويمكن أن يكون الرسول ﷺ مخاطباً بهذا القسم أيضاً، لأنه المخاطب بالقرآن كله، ولأن في سياق هذا القسم مايدل على أنه خوطب به، فقد ورد بعد انقضاء تقرير الرسالة والبعث على وجه الخصوص والرد على مقولات الكافرين فيها، ورد خطاب

---

(١) سورة ق، الآيات ١ - ٥.

(٢) الكشاف ٣/٤، ٤.

الله تعالى لنبيه في قوله سبحانه : ﴿ **فاصبر على مايقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب...** ﴾[١]. ومما يؤيد ذلك قول الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿ بل عجبوا... ﴾ الآيه: « يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ ماكذبك يامحمد مشركوا قومك أن لايكونوا عالمين بأنك صادق محق، ولكنهم كذبوك تعجباً من أن جاءهم منذر ينذرهم عقاب الله (منهم) يعني بشراً منهم من بني آدم ولم يأتهم ملك برسالة من عند الله »[٢].

ويأتي هذا التأكيد القسمي للرسول ﷺ على سبيل تسليته عما كان يلقاه من التكذيب والأذى، فيقسم الله تعالى لنبيه بالقرآن تذكيراً له بأعظم النعم التي أنعم بها الله تعالى عليه، وهي هذا القرآن، ووصفه بـ(المجيد) إشعاراً بمكانة المنزل عليه ومجده، وبشدة الاحتفاء بتكريمه وقوة الاعتناء بتشريفه عليه السلام، في سياق مشتمل على تكذيبه والتعجب مما جاء به. ويلحظ هنا وجه الاتفاق بين أول السورة وآخرها في أداء هذا الغرض، وهو وجه من وجوه ارتباط القسم الذي صدرت به السورة بمقصد من مقاصدها العامة .

وبالإضافة إلى ماتقدم فإن مجيء القسم في هذا الموقع يشير إلى الاهتمام بالموضوع المراد إثباته لدى كل من يصح أن يكون مخاطباً ، ويؤكد الحرص على اللفت إلى الأمر الهام الذي تتحدث عنه الايات .

وبين هذا الموضع والموضع الذي تقدم في صدر سورة (ص) تماثل في كثير من وجوه التركيب، ولذلك فإن ثمة ارتباطاً بين الموضعين في وجوه التفسير البلاغي للقسم، ولكنه لايبلغ حد التطابق التام لاختلاف العناصر اللغوية في الموضعين بعضها عن بعض .

وقد أشار بعض المفسرين إلى بعض وجوه الارتباط بين هذا الموضع وموضع(ص)

---

(١) الآية ٣٩ ، وانظر الآيات ٣٩ - ٤٥ .

(٢) تفسير الطبري ٢٦ / ٩٣ .

فقد لحظ الزمخشري أن الأسلوب فيهما واحد فقال : « الكلام في ﴿ ق والقرآن المجيد* بل عجبوا ﴾ نحوه في ﴿ ص والقرآن ذي الذكر * بل الذين كفروا ﴾ سواء بسواء لالتقائهما في أسلوب واحد »[١]، وأشار الرازي إلى بعض وجوه التماثل بينهما في قوله:« هذه السورة وسورة (ص) تشتركان في افتتاح أولهما بالحروف... والقسم بالقرآن، وقوله (بل)، والتعجب، ويشتركان في شيء آخر، وهو أن أول السورتين وآخرهما متناسبان... »[٢].

ومن وجوه الصلة بين القسمين أنهما واقعان في سياق إثبات الرسالة ؛ولكنه في سورة ص « صرف العناية إلى تقرير الأصل الأول وهو التوحيد بقوله: **﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحداً... ﴾**[٣] وقوله تعالى**﴿... أن امشوا واصبروا على آلهتكم... ﴾**[٤]، وفي هذه السورة إلى تقرير الأصل الآخر وهو الحشر، بقوله تعالى: (أإذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد)... »[٥] وهذا يعني أن للقسم في كل من الموضعين سياقاً خاصاً يحتفى فيه بأصل من أصول الرسالة دون غيره ، وإن كان إثبات الرسالة هو المقصود الأهم والأعم في كلا السياقين .

ولما كان في القسم بالقرآن تنويه بشأنه ؛ تقدمه ذكر الحرف (ق) وهو من الحروف المقطعة التي ذكر في تفسيرها أنها تشير إلى إعجاز القرآن من طريق التحدي بكونه منظوماً من الحروف التي يعرفون ولكنه - مع ذلك - نوع وحده في البلاغة والبيان. وهذا يفسر بعامة علاقة القسم بالقرآن المجيد بذكر حرف من الحروف المقطعة قبله.

وفي تفسير هذا الحرف (ق) - على وجه الخصوص - أقوال منها: أنه اسم من أسماء الله تعالى أقسم به ، وفسره بعضهم بأنه مفتاح اسمه تعالى: القدير والقاهر

---

(١) الكشاف ٣/٤ .

(٢) التفسير الكبير ١٤٥/٢٨ .

(٣) سورة ص ، الآية ٥ .

(٤) سورة ص ، الآية ٦ .

(٥) التفسير الكبير ١٤٥/٢٨.

والقريب والقابض، وقيل: هو اسم من أسماء القرآن، وقيل: اسم للسورة[١]. ونقل في بعض التفاسير عن ابن عباس أنه اسم للجبل المحيط بالأرض ، وأنه من زمردة خضراء تخضر منه السماء[٢]، وروى هذا الرأي الأخير ابن كثير وعقب عليه بأنه من خرافات بني اسرائيل التي تناقلتها كتب التفسير دون تدقيق[٣]. وقيل معناه : قضي الأمر أو قضي ماهو كائن، واحتج القائلون بذلك بقول الشاعر:

قلنا لها قفي فقالت: قاف . . لا تحسبي أنا نسينا الإيجاف[٤]

وهو بهذا التفسير جزء من كلمة: قضي، فحذفت وبقي الحرف (ق) دالاً عليها، ورده ابن كثير لأن الحذف إنما يكون فيما دل عليه دليل[٥]. وقد قيل في تفسير هذا الحرف مايقرب من أحد عشر قولاً وصفها أبوحيان بأنها «متعارضة لا دليل على صحة شيء منها»[٦]. وليس في هذه التفسيرات مايوضح وجهاً من العلاقة بين القسم بالقرآن المجيد وهذا الحرف بخاصة كما تقدم في (يس) و(ص) .

والمقسم به الذي ورد عقب هذا الحرف هو : (القرآن المجيد)؛ فالقسم هنا بالقرآن كما كان كذلك في الموضعين السابقين ، ولكنه موصوف في هذا الموضع بوصف مغاير للوصفين : (الحكيم - ذي الذكر) اللذين وردا في صدر (يس) و (ص)؛ فقد وصف في هذا الموضع بـ (المجيد). وسيأتي الحديث عن خصوصية هذا الوصف في هذا الموقع وعلاقته بجميع عناصر القسم كما سبق في نظيريه.

(١) تفسير الطبري ٩٣/٢٦، وتفسير البغوي ٢٢٠/٤، وزاد المسير ٤/٨.

(٢) معاني القرآن للفراء ٧٥/٣، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ٤١/٥، وتفسير الطبري ٩٣/٢٦، وتفسير البغوي ٢٢٠/٤، وزاد المسير ٤/٨ .

(٣) تفسير ابن كثير ٢٢١/٤ .

(٤) معاني القرآن للفراء ٧٥/٣، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ٤١/٥، وتفسير البغوي ٢٢٠/٤، وزاد المسير ٤/٨. والشاهد قوله: قاف، أي : وقفت؛ فاستغنى بالجزء عن الكل .

(٥) تفسير ابن كثير ٢٢١/٤ .

(٦) البحر المحيط ١٢٠/٨ .

وقد ذكر المفسرون في معنى (القرآن المجيد) أنه القرآن الكريم [١]، وقيل: الشريف الكريم الكثير الخير[٢]، وقال الزمخشري :« المجيد: ذو الشرف على غيره من الكتب، ومن أحاط علماً بمعانيه وعمل بما فيه مجد عند الله وعند الناس، وهو بسبب من الله المجيد فجاز اتصافه بصفته »[٣]. وذكر الراغب أن « المجد: السعة في الكرم والجلال... وأصل المجد: من قولهم: مجدت الإبل إذا حصلت في مرعى كثير واسع... »[٤] ووصف القرآن به « لكثرة مايتضمن من المكارم الدنيوية والأخروية »[٥].

وللفظ (المجيد) - كما ذكر الرازي - معنيان: أحدهما: العظيم ، والآخر: كثير الكرم، « وعلى الوجهين القرآن مجيد ، أما على قولنا (المجيد) هو العظيم، فلأن القرآن عظيم الفائدة، ولأنه ذكرالله العظيم ، وذكر العظيم عظيم، ولأنه لم يقدر عليه أحد من الخلق، وهو آية العظمة، ويقال : ملك عظيم إذا لم يكن يغلب ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ **ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم** ﴾[٦]، أي الذي لايقدر على مثله أحد ليكون معجزة دالة على نبوتك، وقوله تعالى : ﴿ **بل هو قرآن مجيد * في لوح محفوظ** ﴾[٧] أي محفوظ من أن يطلع عليه أحد إلا بإطلاعه تعالى، فلا يبدل ولايغير و ﴿ **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه...** ﴾[٨] فهو غير مقدور عليه فهو عظيم ، وأما على قولنا (المجيد) هو كثير الكرم؛ فالقرآن كريم: كل من طلب منه مقصوده وجده، وإنه مغن كل من لاذ به ،

---

(١) تفسير الطبري ٩٣/٢٦، زاد المسير ٥/٨ ، والقرطبي ٣/١٧.

(٢) تفسير البغوي ٢٢٠/٤.

(٣) الكشاف ٣/٤. وانظر : البحر المحيط ١٢٠/٨.

(٤) مفردات القرآن ص ٧٠٢.

(٥) المصدر نفسه .

(٦) سورة الحجر ، الآية ٨٧ .

(٧) سورة البروج ، الآية ٢١ ، ٢٢ .

(٨) سورة فصلت ، الاية ٤٢ .

وإغناء المحتاج غاية الكرم ، ويدل عليه هو أن المجيد مقرون بالحميد في قولنا : (إنك حميد مجيد) فالحميد هو المشكور والشكر على الإنعام والمنعم كريم ؛ فالمجيد هو الكريم البالغ في الكرم »[١].

أقسم الله تعالى بالقرآن موصوفاً بهذا الوصف المتضمن لجميع هذه المعاني ، ولغيرها مما يدخل في هذا الوصف؛ فكل صفات العظمة والجلال والشرف والعلو والكرم متمثلة في هذا القرآن المجيد .

أما المقسم عليه؛ فقد اختلف في تعيينه كما اختلف فيه في الموضع السابق في قسم (ص) ؛ لأن النسق التركيبي في كلا الموضعين - كما تقدم - متماثل ، وللعلماء في ذلك قولان :

١ - القول بحذف الجواب :

واختلف أصحاب هذا القول في تقدير الجواب ، فذكر بعضهم أنه : والقرآن المجيد لتبعثن ، ودل عليه قوله: (أإذا متنا وكنا تراباً . . .) وذهب إلى هذا الزجاج والفراء والأخفش [٢]، وقيل تقديره: إنك جئتهم منذراً بالبعث فلم يقبلوا بل عجبوا ، وقيل: ما ردوا أمرك بحجة بل عجبوا[٣]، أو: والقرآن المجيد أنزلناه إليك لتنذر الناس [٤]. وجعل ابن القيم هذا الموضع مما اتحد فيه المقسم به والمقسم عليه وهو القرآن؛ فحذف جوابه لأن في المقسم به مايدل على المقسم عليه ، أو لأن المقصود هو المقسم به نفسه[٥]، وهو يعول في هذا على دلالة المقسم به على المقسم عليه، وقد

---

(١) التفسير الكبير ١٤٨/٢٨ .

(٢) انظر: معاني القرآن للفراء ٧٥/٣، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ٤١/٥، وتفسير البغوي ٢٢٠/٤، وزاد المسير ٥/٨، والإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز ص٢٣ ، وتفسير القرطبي ٣/١٧، والبحر المحيط ١٢٠/٨ .

(٣) البحر المحيط ١٢٠/٨ .

(٤) تفسير أبي السعود ١٢٥/٨ .

(٥) انظر : التبيان في أقسام القرآن ص ٢٦٧ .

تقدم في (ص) بيانها، أو على أن المراد من القسم تعظيم المقسم به وعلى هذا فالقسم بلا جواب ، وهذا لايكون ·

وهذه الآراء - كما هو واضح - تعتمد على دلالة السياق في تحديد المقسم عليه ولكنها لا تعدو أن تكون احتمالات لايجوز القطع بشيء منها، فضلاً عن أن الجواب لايحذف في أسلوب القسم، وإنما يترك - في بعض المواضع - إذ دل عليه السياق دلالة قاطعة·

٢ - القول بذكر الجواب :

وقد اختلف الآخذون بهذا القول في تعيين الجواب على أقوال ؛ منها : أن «ماقبل القسم يقوم مقام الجواب، وأن (ق) بمعنى: وقضي الأمر والقرآن المجيد، و (قضي الأمر) هو الجواب ، ودلت على ذلك (ق)· وقيل (ق) اسم للجبل فتقديره : هو (ق) والقرآن المجيد، والجملة تسد مسد جواب القسم »[(١)]· وعلى هذا الرأي يكون الجواب متقدماً على القسم وهو تركيب - كما سبق في (ص) - مخالف لبناء الأسلوب؛ لأن المؤكد وهو المقسم به يتقدم في التركيب القسمي ليمهد لتوكيد المقسم عليه ·

وذكر بعض البصريين[(٢)] أن الجواب هو قوله سبحانه: (قد علمنا ماتنقص الأرض منهم···) وجوّزه الزجاج على معنى: لقد علمنا؛ وحذفت اللام لأن ماقبلها عوض منها كما قال: (والشمس وضحاها···) إلى قوله: (قد أفلح من زكاها) فالمعنى : لقد أفلح[(٣)]· ورده الطبري « لأنه لايعرف في أجوبة الأيمان (قد) وإنما تجاب الأيمان إذا أجيبت بأحد الحروف الأربعة : اللام وإن وما ولا، أوبترك جوابها فيكون ساقطاً »[(٤)] · وذكر ابن كثير أن في قول من عد (قد علمنا)

---

(١) مشكل إعراب القرآن ٣١٨/٢· وانظر: تفسير الطبري ٩٣/٢٦ ، وهو اختياره ·

(٢) انظر: معاني القرآن للأخفش ٤٨٣/٢، وتفسير الطبري ٩٣/٢٦، وتفسير البغوي ٢٢٠/٤ ·

(٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٤١/٥· وانظر : زاد المسير ٥/٨، وتفسير القرطبي ٣/١٧، والبحر المحيط ١٢٠/٨· والآيات في سورة الشمس ، ١ - ٩ ·

(٤) تفسير الطبري ٩٣/٢٦ ·

هو الجواب نظراً[١]، وسيأتي بيان رأيه.

وذهب آخرون[٢] إلى أن الجواب هو قوله تعالى : ﴿ **مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾[٣] وروي عن الترمذي[٤] أنه قوله تعالى: ﴿ **إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد** ﴾[٥]. وهذان بعيدان؛ لا لأنه قد فصل بينهما وبين القسم بفاصل طويل ، بل لأن ثمة ماهو أكثر صلة بالمقسم به وأقرب موقعاً .

وقد وصف أبو حيان أكثر هذه الآراء بالضعف[٦]. وأضعف منها وأبعد ماروي عن بعض المفسرين[٧] من أن الجواب في سورة أخرى، دون تحديد الجواب أو السورة التي وقع فيها ، ولايستبعد أن يكون الجواب متأخراً عن القسم ، أو أن يكون الجواب هو سياق السورة كلها ، ولكن كونه في سورة أخرى فضلاً عن عدم تحديده ضرب من التكهن العجيب الذي يجب اطراحه في تفسير القرآن المجيد .

وأقرب ماقيل في تعيين جواب هذا القسم ماروي عن بعض الكوفيين وأيده بعض المفسرين [٨]، وهو أن الجواب: (بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم...)، وهو الأولى بالصواب لأن مالايحتاج إلى تقدير أولى مما يحتاج إليه ، ولقربه من المقسم به وعلاقته

---

(١) تفسير ابن كثير ٢٢١/٤ .

(٢) روي هذا عن ابن كيسان وعن الأخفش أيضاً؛ انظر: تفسير البغوي ٢٢٠/٤، وزاد المسير ٦/٨ ، وتفسير القرطبي ٣/١٧ ، والبحر المحيط ١٢٠/٨.

(٣) الآية ١٨ .

(٤) انظر : تفسير القرطبي ٣/١٧ ، والبحر المحيط ١٢٠/٨ .

(٥) الآية ٣٧ .

(٦) البحر المحيط ١٢٠/٨ .

(٧) انظر : زاد المسير ٦/٨ .

(٨) انظر : تفسير البغوي ٢٢٠/٤، وتفسير القرطبي ٣/١٧، والبحر المحيط ١٢٠/٨، وتنوير المقباس من تفسير ابن عباس (ضمن مجمع التفاسير ٥٩/٦) .

الوثيقة به - كما سيأتي -، ولا يدفعه أنه غير مصدر بما يصدر به الجواب من الأدوات التي ذكرها النحويون ، لأن ذلك - كما ذكر ابن كثير - ليس لازماً ؛ فالجواب « هو مضمون الكلام بعد القسم وهو إثبات النبوة وإثبات المعاد وتقرره وتحقيقه ، وإن لم يكن القسم يتلقى لفظاً وهذا كثير في أقسام القرآن »[١].

ويضاف إلى ماسبق أن في قوله تعالى : (بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب) من التراكيب المؤكدة مايتفق تمام الاتفاق مع السمة العامة في تركيب جواب القسم في القرآن الكريم ، وهي كونه مشتملاً - في أكثر المواضع - على عناصر التأكيد ·

فمن ذلك مايفيده التعبير بـ (بل) من معنى (إن) ومن معنى القصر الذي تم الإعراب عنه في الموضع السابق بما يغني عن إعادته ·

ومن ذلك أن عناصر التركيب هنا قد تآزرت في تأكيد قوة تعجب هؤلاء الكافرين من كون المنذر منهم ومن كونه ينذرهم بالبعث ، وقوة إنكارهم لذلك ، مع ماعندهم مما يدفع هذا الإنكار والتعجب ؛ فأول ذلك أن في التعبير عن الكافرين بالإضمار قبل الذكر في قوله: (بل عجبوا) « إشارة إلى أنه إذا ذكر شيئاً خارجاً عن سنن الاستقامة انصرف إليهم، والعجب من تغير النفس لأمر خارج عن العادة »[٢]. ثم قال بعده (منهم): « لأن العادة عندهم وعند جميع الناس أنه إذا كان النذير منهم لم يداخلهم في إنذاره شك بوجه من الوجوه··· »[٣]. ويأتي الأسلوب على هذا النحو موافقاً المعنى موافقة تشي فيها الكلمات بأدق المعاني التي اشتمل عليها السياق ، وتصف المشاعر المتوارية في نفوس المتحدث عنهم ، وتكشف منذ اللحظة الأولى أن هذا الإنكار والتعجب ليس إلا حسداً واستكباراً لأن عندهم من الدلائل مايوجب الإيمان · ويرى ابن عاشور أنه « وصف الرسول ﷺ ابتداء بصفة (منذر) قبل

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٢٢١/٤ ·

(٢) نظم الدرر ٤٠٣/١٨ ·

(٣) المصدر نفسه ·

وصفه بأنه (منهم) ليدل على أن ما أنذرهم به هو الباعث الأصلي لتكذيبهم إياه وأن كونه منهم إنما قوى الاستبعاد والتعجب »[١].

ولما كان هذا هو ما أدى إليه السياق اللغوي حتى الآن سجل عليهم القرآن الكفر بإظهارهم في موضع الإضمار في قوله : (فقال الكافرون) أي الذين جاءهم منذر منهم فلم يؤمنوا، « إيذاناً بأنهم لم يخف عليهم شيء من أمره ولكنهم ستروا تعدياً بمرأى عقولهم الدالة على جميع أمره دلالة ظاهرة »[٢].

ومن الأساليب التي تعبر عن قوة إنكارهم واستبعادهم وتعجبهم الاستفهام الإنكاري في قولهم: (أإذا متنا وكنا ترابا) ففيه « تقرير للتعجب وتأكيد للإنكار»[٣]. ويترك الجواب في الشرط الذي تضمنته جملة الاستفهام، فلايرد عنهم قولهم: أإنا لمبعوثون، كما قالوه في مواضع أخرى من القرآن ، كقوله سبحانه: **﴿أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون﴾**[٤] لأنهم في هذا السياق يبالغون في إنكار البعث واستبعاده فلا يجري على لسانهم ذكره بوصفه جواباً للشرط، بل يخفون إلى التصريح به في جملة خبرية حاسمة واثقة : ذلك رجع بعيد، وفي ذلك مافيه من المسارعة إلى الإنكار ، وكيف يصرحون به والمقدمة التي أثبتوها في الشرط تؤكد -في معتقدهم- أن من يموت ويصير تراباً لايبعث، فالأمر إذن - في عرفهم - أقل من أن يصرح به ولو كان بعده إنكار صريح .

ويأتي في هذا السياق حكاية قولهم : (هذا شيء عجيب) بعد قوله: (بل عجبوا) ، لتأكيد تعجبهم، وهو يتفق مع الاستفهام الإنكاري التعجبي الذي ورد بعده.

ومما سبق يظهر أن السياق يتجه إلى إظهار قوة إنكار هؤلاء الكافرين وشدة تعجبهم إزاء الرسالة والبعث ، وهذا يشير إلى وجه العلاقة بين الأمر المقسم عليه

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧٩/٢٦ .

(٢) نظم الدرر ٤٠٤/١٨. وانظر : تفسير البيضاوي ص ٦٨٦، وتفسير أبي السعود ١٢٥/٨ .

(٣) تفسير أبي السعود ١٢٥/٨ .

(٤) سورة الصافات ، الآية ١٦، وانظر : الإسراء ٤٩ ، ٩٨ ، المؤمنون ٨٢ ، والواقعة ٤٧ .

والمقسم به ، من جهة أن في (القرآن المجيد)بما فيه من معاني المجد التي تقدم بسطها مايشهد بجلال مصدره ، ومن ثم بصدق المنذر الذي أنزل عليه هذا القرآن ، كما يشهد بصدق الأخبار التي تضمنها، ومنها البعث ، ولكن الذين كفروا في عجب غريب عجيب ، وليس لهم أن يعجبوا وبين أيديهم القرآن المجيد الذي فيه من صفات العظمة والشرف والرفعة والجلال مايبطل العجب ويدفع الإنكار .

والتناسب بين المقسم به والمقسم عليه يتحقق هنا من أن في القسم بالقرآن ووصفه بـ(المجيد) ، واقترانه بالحروف المقطعة، تمجيداً للقرآن وتعظيماً لشأنه، وفي المقسم عليه تعريضاً بسلوك الكافرين وذماً لموقفهم الذي لم يهدهم إليه مقتضى مجد القرآن وعظمته، بقدر ماهداهم إليه حسدهم واستكبارهم .

وعلى هذا فإن العلاقة بين طرفي القسم في هذا الموضع تماثل العلاقة بينهما في قسم صدر سورة (ص)، ولهذا ربط بينهما بـ (بل) كما ربط بينهما هناك، وقد تقدمت الإشارة إلى دلالات هذا الربط ، وما فيه من التعبير عن المفارقة بين مضموني المقسم به والمقسم عليه. وتقدم كذلك الحديث عن أثر هذه العلاقة في إثبات المقسم عليه والدلالة على مضمونه دون حاجة إلى تقدير أمور خارجة عن الأسلوب. ومضى كذلك بيان مناسبة وصف المقسم به لحال المخاطب. وكل ذلك يمكن تأمله في ضوء ماتقدم .

وللوصف الذي وصف به المقسم به وجه ارتباط بما جاء بعده في قوله سبحانه حكاية عن الكافرين في إنكار البعث : (...ذلك رجع بعيد)؛ ففي وصف المقسم به بـ(المجيد) المشير إلى بعد منزلته في الشرف مايتصل باستبعادهم لما تضمنه هذا القرآن من الإخبار بالبعث ، وكأن السياق يومىء إلى أن الذي يستأهل أن يوصف بالبعيد- في شرفه وعلو منزلته - هو هذا القرآن الذي لايتورعون عن وصف ما أخبر به بأنه بعيد .

ويلفتهم ذلك - أيضا - إلى أن أمر البعث بسبب من إنزال هذا القرآن المجيد ؛ فإن الذي أنزل هذا القرآن من ذلك المكان البعيد مكاناً ومنزلة ووصل السماء بالأرض، قادر على أن يصل الأرض بالسماء فيبعث الخلائق ويجمع أشتاتهم ويحاسبهم ،

ويسلك القسم هنا مسلكهم في تصور القضية، فإنهم إنما وصفوا البعث بأنه بعيد لأنهم يستبعدون أن يجمع الله التراب ، ويجمعهم ليوم الحساب .

ويتصل القسم - وفق هذا المعنى - بالسياق الخاص الذي ورد فيه ، فتأتي الإشارة بعد تقرير قدرة الله تعالى على جمعهم بعلمه - سبحانه - الذي لاتغيب عنه غائبة ، والعطف عليه بإثبات الكتاب الحفيظ وتكذيب الكافرين ، في قوله تعالى: **﴿ قد علمنا ماتنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ * بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج ﴾**[١]، تأتي الإشارة بعد ذلك إلى السماء والأرض في قوله سبحانه :**﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج * والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج * تبصرة وذكرى لكل عبد منيب * ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد * والنخل باسقات لها طلع نضيد * رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج﴾**[٢].

وكأن هذه الإشارة البليغة تلفت إلى مافي السياق من ذكر القرآن المجيد النازل من السماء ، ومايرتبط به من صفة العلو والرفعة ، وإلى البعث الذي تصعد فيه الخلائق من الأرض إلى السماء، وما يرتبط به من وصف موقف أولئك الكفار بالدنو والحقارة[٣]، ويأتي ذلك في صورة الاستدلال على صحة البعث وإمكانه بما يرى من علاقة السماء بالأرض وإحيائها بالماء وإخراج النبات . وفي ذلك - أيضاً - إيماء إلى أن شأن (القرآن المجيد) في إحياء النفوس ، شأن الماء النازل لإحياء الأرض ؛ فمنها

---

(١) الآية ٤ ، ٥ .

(٢) الآيات ٦ - ١١ .

(٣) من هذا الباب ما جاء في تصوير من اتبع هواه وأعرض عن الحق في قوله تعالى: (ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه. . .) سورة الأعراف ، الآية ١٧٦.

ماينتفع به ومنها مالايكون كذلك . ولهذه العلاقة نظائر في السياق القرآني [١].

ومن هذه المعاني الدقيقة نستطيع أن ننفذ إلى وجه وثيق من وجوه ارتباط القسم وعناصره بصدر هذه السورة ، ووجه اتصال آيات هذا الصدر بكثير من المعاني ذات العلاقة بالقسم في نظم معجز وبديع .

وللقسم - بالإضافة إلى ارتباطه بالجزء الخاص من السورة التي ورد فيها - ارتباط بالسياق العام للسورة كلها ، وذلك أن السمة الغالبة على هذا السياق هي الإنذار والوعيد الشديد ، وهذا واضح من ابتدائها بقول سبحانه : ﴿ **ق والقرآن المجيد * بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم...** ﴾[٢]، ومضيها في بيان دلائل صدق هذا الإنذار ، وعاقبة الأمم المكذبة وتحقيق وعيد الله فيها [٣]، والحديث عن اطلاعه سبحانه على وساوس النفس وحركاتها وسكناتها وفي ذلك مافيه من التهديد والوعيد [٤]، ثم فيما ورد من وصف ذلك الوعيد[٥]، ويتبع ذلك إشارة سريعة إلى مصير المؤمنين [٦]؛ لأن السياق سياق إنذار ووعيد للمكذبين ، ولهذا لايلبث أن يعود مرة أخرى إلى الحديث عن مصير الأمم السابقة التي كانت أشد منهم بطشاً واللفت إلى الاعتبار بمآلهم، والإشارة إلى آيات الله في خلق السموات والأرض ، وتسلية

---

(١) انظر على سبيل المثال ماتقدم في قوله تعالى :(فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون) ص ١٨٧ من هذا البحث . ونظير ذلك أيضاً قوله تعالى: (والسماء ذات الرجع *والأرض ذات الصدع * إنه لقول فصل * وماهو بالهزل...) الآيات ١١-١٧ من سورة الطارق. ففي المقسم به في هذه الآيات استدلال على صحة البعث بما يكون بين السماء والأرض من علاقة الإحياء، وفي المقسم عليه إثبات لأمر ذي صلة بالقرآن ، وعلى هذا فقد ربط القسم بين ذلك الاستدلال وهذا الإثبات على نحو يماثل العلاقة التي ذكرناها .

(٢) انظر الآيات : ١ - ٥ .

(٣) انظر الآيات : ٦ - ١٥.

(٤) انظر الآيات : ١٦-١٨.

(٥) انظر الآيات : ١٩-٣٠.

(٦) انظر الآيات : ٣١-٣٥.

الرسول ﷺ(١)، ثم يعود السياق - أيضا - إلى وصف يوم البعث ، وتختتم السورة بقوله سبحانه : ﴿ **نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد** ﴾(٢)؛ فيربط هذا الختام بين القرآن والوعيد .

وعلى هذا فإن للقسم بالقرآن في صدر سورة ذات سياق يتسم بالإنذار والوعيد علاقة بهذا السياق من جهة أن القرآن هو المتضمن لهذا الوعيد، وهو الذي يذكر به من يخاف هذا الوعيد كما أشارت إليه خاتمة السورة .

أما وصف القرآن بـ (المجيد) في هذه السورة وارتباطه بسياقها؛ فذو صلة بظاهرة عامة في السياق القرآني ؛ وذلك أن للفظ (المجيد) علاقة بسياقي النذارة والبشارة معاً؛ لأن من معانيه: العظيم وهي صفة اقتدار على تحقيق المنذر به، والكريم وهي صفة رحمة يستبشر بها عباد الله الصالحون .

وإذا تتبعنا المواضع التي ورد فيها هذا اللفظ فإننا نجد أنه قد ورد - في غير سورة ق - ثلاث مرات في سورتي هود والبروج ؛ ونجد أن السياقات التي ورد فيها لاتخرج عن أن تكون سياق بشارة ونذارة معاً؛ فقد ورد هذا اللفظ في سورة هود في سياق بشارة الملائكة لإبراهيم عليه السلام: قال تعالى: ﴿**ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام...**﴾(٣) ومضى السياق بعد ذلك في حكاية القصة إلى قوله تعالى حكاية عن امرأة إبراهيم عليه السلام: ﴿ **قالت ياويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيء عجيب * قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد** ﴾(٤) ثم وصل بالحديث عن هذه البشرى والرحمة الحديث عن الوجه الآخر لصفة (المجيد) وهو العظمة التي يقتدر بها على إنزال العذاب بالمنذرين به ، فحكت الآيات بعد ذلك قصة

---

(١) انظر الآيات : ٣٦ - ٤٠ .

(٢) الآية ٤٥ . وانظر الآيات : ٤١ - ٤٥ .

(٣) سورة هود ، الآية ٦٩ .

(٤) سورة هود ، الآية ٧٢ ، ٧٣ .

تعذيب قوم لوط[١]. وواضح في هذا السياق من سورة هود اجتماع البشارة والنذارة في قصة واحدة وارتباط وصف المجيد بها .

ثم تجد لفظ (المجيد) يرد في سورة البروج مرتين في سياق واحد يجمع بين البشارة والنذارة أيضاً ، وذلك قوله تعالى: ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير * إن بطش ربك لشديد *إنه هو يبدىء ويعيد * وهو الغفور الودود * ذو العرش المجيد * فعال لما يريد * هل أتاك حديث الجنود * فرعون وثمود * بل الذين كفروا في تكذيب * والله من ورائهم محيط * بل هو قرآن مجيد * في لوح محفوظ** ﴾[٢]. ويلاحظ في هذه السورة أنها ذات سياق شديد الوعيد والتهديد لأصحاب الأخدود .

وإذا كان هذا هو سياق هذا اللفظ في القرآن كله ؛ فإن لمجيئه في هذا الموضع من سورة ق وصفاً للقرآن المقسم به علاقة بما جاء فيها من النذارة والبشارة ، وبخاصة مافيها من الوعيد الشديد للمكذبين .

ويمكن أن نلحظ في الآيات التي ورد في سياقها لفظ (المجيد) في كل من سورتي هود والبروج ، بعض الأساليب والتراكيب والمواقف التي ورد نظيرها في سورة ق المفتتحة بالقسم بـ (القرآن المجيد) ؛ فتأمل على سبيل المثال ماحكي عن امرأة إبراهيم عليه السلام من مثل قولها: ﴿ **قالت ياويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب** ﴾[٣]؛ فنظيره في صدر سورة ق: ﴿ **بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب * أإذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد** ﴾[٤]، فثمة تماثل في الأساليب والتراكيب والدلالات ، وثمة

---

(١) انظر الآيات : ٧٤ - ٨٣ من سورة هود .

(٢) سورة البروج ، الآيات ١١ - ٢٢ .

(٣) سورة هود ، الآية ٧٢ .

(٤) سورة ق ، الآية ٢ .

تعجب من أمر ذي صلة بقدرة الله تعالى وعظمته التي يعبر عنها لفظ (المجيد) في أحد معنييه ، وتأمل مجيء (المجيد) في كلا السياقين.

ودع ذا ، وتأمل مجيء وصف (المجيد) في سياق سورة البروج الذي تقدم ، وما صاحبه من تراكيب وأساليب ومواقف لها نظائر في صدر سورة ق ، فانظر على سبيل المثال إلى قوله سبحانه: ﴿ **ذو العرش المجيد * فعال لما يريد** ﴾ [١] كيف قرن فيه بين هذا الوصف وبين اقتداره سبحانه على فعل مايريد، وارتباط ذلك بموقف تعجب امرأة إبراهيم عليه السلام وتعجب الكافرين من البعث، لأن لكل منهما ارتباطاً بالمجيد الفعال لما يريد. ثم انظر كيف حكي موقف الكافرين في قوله :﴿ **بل الذين كفروا في تكذيب** ﴾[٢] على نحو يشبه في تركيبه ماحكي عنهم في صدر سورة ق : (بل عجبوا ...) الآية .

وهذا يشهد بأن ثمة وشائج خفية وروابط قوية بين الألفاظ والتراكيب والأساليب في السياقات المتماثلة في القرآن الكريم [٣].

وثمة جانب آخر تظهر فيه صلة القسم بسياق السورة ، وذلك أن المقسم عليه في قوله تعالى: ﴿ **بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم**... ﴾ الاية ، يتضمن طلب إنزال الملائكة لأنه – كما يقول الطبري – يعني أنهم لم يكذبوا الرسول ﷺ لعدم يقينهم بصدقه ولكنهم كذبوه تعجباً من كونه منهم أي من كونه بشراً لا ملكاً[٤]؛ فلما كان القسم متضمناً هذا المعنى ورد بعده ذكر قوم لوط في سياق الإخبار عن تكذيب الأمم

---

(١) سورة البروج ، الآية ١٥ ، ١٦ .

(٢) سورة البروج ، الآية ١٩ .

(٣) ويكشف جميع ماتقدم في هذا الجانب عن وجود علاقات دقيقة وعميقة بين مواطن متعددة من القرآن العظيم ، حتى إنه ليمكن القول بأن هذه الوشائج والروابط والسياقات والعلاقات من الخفاء والغنى والتنوع والتداخل والتماسك بحيث لايمكن تبين بعض ملامحها إلا بعد طول التأمل والتبصر والتدبر ، ومع ذلك لايظفر إلا بقليل من كثير يظل يتراءى للناظر يجذبه إلى المزيد من البحث والتتبع . وهذا دليل من دلائل إعجاز هذا القرآن المجيد .

(٤) انظر : تفسير الطبري ٩٣/٢٦ .

السابقة في قوله تعالى : ﴿ **كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود * وعاد وفرعون وإخوان لوط * وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد**﴾[١]، لعلاقة قوم لوط بطلب إنزال الملائكة وماترتب على هذا الطلب من إنزال الهلاك بهم .

ولاريب أن لذكر كل من هذه الأقوام مناسبة مع الموقف القسمي، ولكننا لم نلحظ هنا إلا وجه مناسبة ذكر قوم لوط لهذا الموقف .

ومن وجوه التناسب بين القسم وسورته مناسبته لخاتمتها؛ وذلك أنه قد ذكر في أولها التنويه بشأن القرآن وأقسم به على مقولات الكافرين ثم جاءت الإشارة إلى تلك المقولات مع الأمر بالتذكير بالقرآن، في قوله عز وجل : ﴿ **نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد** ﴾[٢]، ويلحظ بين القسم الذي صدرت به السورة وبين خاتمتها تقابل بديع ؛ ففي القسم بيان تكذيب المشركين يقابله في الخاتمة تسلية الرسول ﷺ في قوله سبحانه : ﴿ **فاصبر على مايقولون** . . . ﴾[٣]، وفي القسم في صدر السورة إنكار للبعث في صورة الاستبعاد في قولهم: (ذلك رجع بعيد)، يقابله في الخاتمة إثبات للبعث وجعل مناديه من مكان قريب في قوله سبحانه :﴿ **واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب** ﴾[٤].

فانظر إلى هذا التناسق البديع بين القسم الذي ورد في أول السورة وبين آخرها .

ومما سبق نستطيع أن نقف على خصوصية مجيء عناصر القسم في هذا الموضع على النحو الذي جاءت عليه، وتناسبها مع كثير من مقتضيات السياق والمقام في الموقع الخاص، وفي السياق العام للسورة ، بل في سياقات قرآنية عامة ، ولايزال في الموضع حديث لمتأمل .

---

(١) سورة ق ، الآيات ١٢ - ١٤ .

(٢) الآية ٤٥ .

(٣) الآيات ٣٩ ، ٤٠ .

(٤) الآية ٤١ .

الفصل الثاني

القسم بلفظ الكتاب

الصورة الثانية من صور القسم بأسماء القرآن الكريم هي موضوع هذا الفصل ، وهي الصورة التي جاءت بلفظ (الكتاب)[١] ، وقد وردت في موضعين من القرآن الكريم ، كما أشرت إلى ذلك في صدر هذا الباب .

وقد وقع هذان الموضعان في صدر سورتين متتاليتين في القرآن الكريم ، هما : سورة الزخرف ، وسورة الدخان ، واشتركا في كثير من خصائص التركيب ، وخصوصيات الموقع .

ومن أظهر وجوه هذا الاشتراك اتحاد صورة المقسم به في الموضعين ؛ في لفظه وهو (الكتاب) ، ووصفه وهو (المبين) ، وفي وقوع القسم فيهما بعد الحرفين المقطعين (حم) .

وعلى هذا فصورة القسم هنا - في مجملها - مغايرة للصورة المقسم بها فيما جاء بلفظ (القرآن) ؛ لأن الأوصاف التي وصف بها المقسم به هناك قد تنوعت ، وكذلك الحروف المقطعة التي وقع بعدها القسم فإنها في المواضع السالفة متنوعة .

ولعل اتحاد صورة المقسم به في اللفظ والوصف في موضعي الزخرف والدخان ، وتكرر هذه الصورة فيهما بعد (حم) - يشير إلى علاقة خاصة بين هذين الحرفين وتلك الصورة المخصوصة التي أقسم بها .

ومن ناحية أخرى فإن اتحاد الصورة المقسم بها في الموضعين قد يشير إلى أنّ ثمة تماثلاً بين الأمرين المقسم عليهما فيهما ، وبين السياقين الخاصين اللذين وردا فيهما ، وبين السياقين العامين في السورتين ، ويؤيد هذا الاحتمال أن السورتين متجاورتان في النص القرآني ، والتجاور قرينة التماثل .

ومن أظهر وجوه التماثل بين الموضعين كون القسم فيهما من باب القسم بالشيء

---

(١) في المراد بالكتاب أقوال ذكرها المفسرون ، ولكن أظهرها - كما سيأتي بيانه - أن المراد به القرآن الكريم ، وهو مايكاد ينعقد إجماع المفسرين عليه ، ولهذا عد البحث القسم بالكتاب المبين قسماً باسم من أسماء القرآن الكريم .

على شأن من شؤونه ؛ فبين طرفي القسم في كل منهما من التماثل ما سماه المفسرون (اتحاد المقسم به والمقسم عليه) ووصفوا - لأجله - المقسم به والمقسم عليه بأنهما من واد واحد ، وذكروا أن ذلك من البلاغة عند العرب ·

وبالإضافة إلى ماسبق فإن الموضعين يلتقيان في كونهما - كغيرهما من مواضع القسم بأسماء القرآن الكريم - صادرين من الله تعالى ، ويلتقيان كذلك في توجيه الخطاب فيهما إلى الرسول ﷺ وسائر المخاطبين بهذا القرآن وبخاصة المنكرين للرسالة ·

وسنتناول - فيما يأتي - موضعي القسم بهذه الصورة في سورتي الزخرف والدخان في موقعيهما من السورتين ، لنقف على وجه اختصاصهما بها ، معتدين في ذلك بالعلاقة بين المقسم به والمقسم عليه في كل ، وعلاقة القسم بالمقام ، والسياق الخاص والعام ، ووجه اتساق القسم مع جميع ذلك في كل من الموضعين ، والخصوصيات والدلالات البلاغية لسائر التراكيب والأساليب فيهما ·

الموضع الأول : القسم بـ (الكتاب المبين) في صدر سورة الزخرف :

قوله تعالى : ﴿ **حم * والكتاب المبين * إنا جعلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون * وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم * أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين** ﴾ (١) .

يقسم الله تعالى في هذا الموضع بالكتاب المبين ، واختلف المفسرون في المراد به؛ فذهب بعضهم إلى أنه القرآن الكريم (٢)، وذهب آخرون إلى أن المراد به جميع الكتب المنزلة على الأنبياء ؛ على أن الكتاب اسم جنس ، وقيل : هو اللوح المحفوظ ، وقيل : المراد بالكتاب الكتابة والخط ، أقسم بها لكثرة منافعها(٣). والأظهر والأشهر عند أكثر المفسرين أن الكتاب المبين المقسم به هنا هو القرآن الكريم .

أما وصف المقسم به بالمبين ؛ فعلى معنى : المبين الذي أبان بركته وهداه ورشده ، والذي أبان طرق الهدى من طرق الضلالة وأبان ماتحتاج إليه الأمة من أمور الدين وأحكامه وفرائضه (٤) ، أوعلى معنى: البيِّن الواضح في معانيه وألفاظه لأنه نزل بلغتهم وأساليبهم(٥) ، واللفظ يحتمل المعنيين ، والكتاب الموصوف بهذا الوصف بينٌ في نفسه ، مبين لغيره ، من جميع الوجوه .

---

(١) سورة الزخرف ، الآيات ١-٥ .

(٢) تفسير الطبري ٢٩/٢٥، والكشاف ٤٧٧/٣، وزاد المسير ٣٠٢/٧، والتسهيل لعلوم التنزيل ٢٥/٤ ، وروح المعاني ٦٣/٢٥ .

(٣) انظر : التفسير الكبير ١٩٢/٢٧ ، و٢٣٧/٢٧ ، وتفسير القرطبي ٦١/١٦ ، والبحر المحيط ٥/٨ ، وروح المعاني ٦٣/٢٥ .

(٤) تفسير الطبري ٣٠/٢٤ ، وتفسير البغوي ١٣٣/٤ ، والكشاف ٤٧٧/٣ ، والتفسير الكبير ١٩٣/٢٧ ، وتفسير القرطبي ٦١/١٦ ، وتفسير أبي السعود ٣٩/٨ ، وروح المعاني ٣٦/٢٥ .

(٥) انظر : الكشاف ٤٤٧/٣ ، والتفسير الكبير ١٩٢/٢٧ ، وتفسير ابن كثير ١٢٢/٤ ، وتفسير أبي السعود ٣٩/٨ ، وروح المعاني ٦٣/٢٥ .

والجواب المؤكد بهذا القسم هو - كما ذكر بعض المفسرين[١] - قوله تعالى : ﴿ إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾« لكن لا على أن مرجع التأكيد جعله كذلك - كما قيل - بل ما هو غايته التي يعرب عنها قوله تعالى : ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ فإنها المحتاجة إلى التحقيق والتأكيد لكونها منبئة عن الاعتناء بأمرهم وإتمام النعمة عليهم وإزاحة أعذارهم ، أي جعلنا ذلك الكتاب قرآناً عربياً لكي تفهموه وتحيطوا بما فيه من النظم الرائق والمعنى الفائق وتقفوا على مايتضمنه من الشواهد الناطقة بخروجه عن طوق البشر ، وتعرفوا حق النعمة في ذلك وتنقطع أعذاركم بالكلية »[٢] .

والمعنى - كما يقول الطبري - « إنا أنزلناه قرآناً عربياً بلسان العرب إذ كنتم أنتم أيها المنذرون من رهط محمد ﷺ عرباً . . . لتعقلوا معانيه وما فيه من مواعظه ولم ينزله بلسان العجم فيجعله أعجمياً ، فتقولوا نحن عرب وهذا القرآن أعجمي لانفقه معانيه » [٣]. فالضمير في قوله جعلناه يرجع إلى القرآن الكريم وإن لم يجر له ذكر لدلالة المعنى عليه[٤]. وواضح من نص الطبري أن معنى قوله : (جعلناه) : أنزلناه ، وهو ماذكره غيره من المفسرين ، وقيل معناه : سميناه ووصفناه ، وقيل : بيناه ، وقيل : صيرناه [٥].

وقوله سبحانه : (وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم) إما أن يكون معطوفاً على الجملة المقسم عليها فيكون من جواب القسم ، وإما أن يكون مستأنفاً مقرراً لما قبله من علو شأن القرآن الذي أفاده الإقسام به[٦] ، والأقرب إلى السياق أن يكون

---

(١) انظر : الكشاف ٤٧٧/٣ ، والتفسير الكبير ١٩٢/٢٧ ، والبحر المحيط ٥/٨ ، وتفسير أبي السعود ٣٩/٨ ، وروح المعاني ٦٤/٢٥ .

(٢) تفسير أبي السعود ٣٩/٨ ، وروح المعاني ٦٤/٢٥ .

(٣) تفسير الطبري ٢٩/٢٥ .

(٤) انظر : تفسير القرطبي ٦١/١٦ ، والبحر المحيط ٥/٨ .

(٥) انظر : تفسير البغوي ١٣٣/٤ ، تفسير القرطبي ٦١/١٦ ، والبحر المحيط ٥/٨ .

(٦) انظر : تفسير أبي السعود ٣٩/٨ ، وفتح القدير ٥٤٧/٤ .

من جواب القسم لأنه معطوف على قوله : (إنا جعلناه . . .) ، ولأن الجملتين قد ربطتا - بالإضافة إلى أداة العطف - بالضمير في (إنه) أي : القرآن ، وباتفاقهما في إثبات أمور ذات صلة بالقرآن الكريم .

ومعنى قوله : (أم الكتاب) : أصل الكتاب الذي منه نسخ هذا الكتاب ، وهو اللوح المحفوظ؛ فالقرآن مثبت عند الله تعالى في هذا اللوح، كما قال تعالى : ﴿ **بل هو قرآن مجيد * في لوح محفوظ** ﴾[١] ، وقال تعالى : ﴿ **إنه لقرآن كريم * في كتاب مكنون** ﴾[٢] ، وقيل : أم الكتاب هي الآيات المحكمات لقوله تعالى : ﴿ **هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب . . .** ﴾[٣] « ومعناه أن سورة حم واقعة في الآيات المحكمات التي هي الأم »[٤] ، والأول - وهو كونه اللوح المحفوظ - أقرب إلى السياق لأن الحديث هنا عن إثبات أمور تتعلق بالقرآن الكريم كله لا بسورة منه كما دل عليه الربط بين هذه الجملة وسابقتها، ويؤيده أيضاً قوله (لدينا) وماتبعه من التعظيم والتشريف في قوله : (لعلي حكيم) .

ومعنى قوله : (لعلي) : لذو علو ورفعة ، وقيل رفيع الشأن على سائر الكتب لكونه معجزاً بينها ولكونه عالياً عن وجوه الفساد ، وقيل : ذو مكانة عظيمة وشرف وفضل(٥) . وقوله : (حكيم) معناه : محكم ممنوع من الباطل واللبس والزيغ ، أو قد أحكمت آياته ثم فصلت فهو ذو حكمة ، أو : محكم بكونه في أعلى درجات

---

(١) سورة البروج ، الآية ٢١ ، ٢٢ .

(٢) سورة الواقعة ، الآية ٧٧ ، ٧٨ . وانظر هذا الرأي في : تفسير الطبري ٣٠/٢٤ ، وتفسير البغوي ١٣٣/٤ ، والكشاف ٤٧٧/٣ ، وزاد المسير ٣٠٢/٧ ، وتفسير القرطبي ٦٢/١٦ ، والبحر المحيط ٥/٨ ، وتفسير ابن كثير ١٢٢/٤ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية ٧ .

(٤) البحر المحيط ٥/٨ .

(٥) تفسير الطبري ٣٠/٢٤، والكشاف ٤٧٧/٣ .٧٨ ، والبحر المحيط ٥/٨ ، وتفسير ابن كثير١٢٢/٤ .

الفصاحة والبلاغة وصحة المعاني ، وقيل : حاكم للمؤمنين بالجنة وللكافرين بالنار ، وحاكم على سائر الكتب[١]. والمقصود من وصفه بذلك الإخبار « عن منزلته وشرفه ، أي : أوكَذَّبتم بالقرآن يا أهل مكة ؟ فإنه عندنا لعلي شريف محكم من الباطل »[٢] « أي : منزلته عندنا منزلة كتاب هما صفتاه وهو مثبت في أم الكتاب هكذا »[٣].

ويأتي هذا القسم - كما هو واضح - في سياق إثبات أمور ذات صلة بالقرآن الكريم ، فيقسم الله تعالى بالكتاب المبين - وهو القرآن - مؤكداً أنه جعل قرآناً عربياً ليعقله المخاطبون به من مشركي العرب ، وأنه ذو مكانة رفيعة وقدر عظيم عند منزله الذي أرسل به نبيه محمداً ﷺ . ويعقب ذلك الإشارة إلى تكذيبهم بهذا الكتاب المبين والرسالة التي تضمنها ، وربط ذلك بالإخبار عن كثرة الرسل في الأمم السابقة وموقف أقوامهم منهم ، المماثل لموقف هؤلاء المشركين في قوله سبحانه : **﴿ أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين * وكم أرسلنا من نبي في الأولين * وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون ﴾**[٤]، وعليه فإن القسم وارد في سياق إثبات الرساله كما هو الشأن في الأقسام السابقة .

وفي السياق مايشير إلى أن الخطاب هنا موجه إلى المنزل عليهم هذا الكتاب المبين ، وبخاصة المسرفين الذين كذبوا به ؛ فقد تكررت ضمائر الخطاب الموجهة إليهم في قوله: (لعلكم - تعقلون - أفنضرب عنكم - أن كنتم) ثم قال مسمياً المخاطبين : (مسرفين) .

ويدل على اختصاص المسرفين بهذا الخطاب أيضاً مضمون القسم ، لأن معناه : إذا كان القرآن عربياً ، وأنتم عرب ؛ فقد عقلتموه ، وعقلتم مافيه من دلائل صدقه

---

(١) انظر : تفسير البغوي ١٣٣/٤ ، وزاد المسير ٣٠٢/٧ ، والكشاف ٤٧٨/٣ ، والبحر المحيط ٥/٨ ، وتفسير ابن كثير ١٢٢/٤ .

(٢) تفسير البغوي ١٣٣/٤ .

(٣) الكشاف ٤٧٨/٣ .

(٤) الآيات : ٥ - ٧ .

وإعجازه وجلال مصدره لأنه كتاب مبين عن ذلك بلسانكم ، فإن لم تفعلوا علم أن ذلك لم يكن لأمر في هذا (الكتاب المبين) وإنما لما في نفوسكم من الإسراف في الكبرياء والحسد، ولهذا قال بعد القسم: (أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين). وبهذا يلتقي هذا النسق اللغوي في دلالته مع دلالة القسم في الموضعين السابقين الواقعين في صدر سورتي (ص) و (ق).

ومن هذا يتضح أن القسم بالكتاب بوصف كونه مبيناً إنما يراد به - في هذا السياق - الإشارة إلى أن في هذا الكتاب نفسه مايبين عن براهين صدقه وعن كونه علياً حكيماً ؛ ففي ذكر المقسم عليه - بعد أن يكون المقسم به قد ألمح إليه ومهد له ودل عليه - مايجعله أكثر تمكناً وتأكيداً .

وعلى هذا فإن بين المقسم به والمقسم عليه من التناسب مايبلغ درجة الاتحاد ، وقد لحظ المفسرون ذلك ونسبوا إليه حسن القسم في هذا الموضع وبراعة تركيبه ؛ يقول الزمخشري : « أقسم بالكتاب المبين وهو القرآن ، وجعل قوله : (إنا جعلناه قرآناً عربياً . . .) جواباً للقسم ، وهو من الأيمان الحسنة البديعة لتناسب القسم والمقسم عليه وكونهما من واد واحد ، ونظيره قول أبي تمام :

* وثناياك إنها إغريض * »[1].

ووجه المناسبه بين عنصري القسم هنا - كما شرحه ابن المنير - « أنه أقسم بالقرآن ، وإنما يقسم بعظيم ، ثم جعل المقسم عليه تعظيم القرآن بأنه قرآن عربي مرجو به أن يعقل به العالمون : أي يتعقلوا آيات الله تعالى ، فكان جواب القسم مصححاً للقسم ، وكذلك أقسم أبو تمام بالثنايا وإنما يقسم الشعراء بمثل هذا للإشعار بأنه في غاية الحسن ، ثم جعل المقسم عليه كونها في نهاية الحسن لا أنها هي إغريض ، وهو

---

(١) الكشاف ٤٧٧/٣ . وانظر : تفسير البيضاوي ص ٦٤٦ ، والبحر المحيط ٥/٨ . وتمام بيت أبي تمام قوله: * ولآل توم وبرق وميض * والإغريض - كما في شرح التبريزي - « الطلع ، وقيل إن البرد يسمى إغريضاً » . انظر ديوان أبي تمام بشرح التبريزي ٢٨٧/٢ .

من أحسن تشبيهات الثنايا ، فجعل المقسم عليه مصححاً للقسم »[١].

ومن هذا تظهر قيمة الاتحاد بين المقسم به والمقسم عليه في تأكيد المضمون الذي يقصد القسم إلى إثباته ؛ لأنه يتيح لكل من عنصري القسم أن يؤكد الآخر ، فالمقسم به يمهد للمقسم عليه ، والمقسم عليه يؤكد ما أفاده المقسم به فيكون - كما ذكر ابن المنير - مصححاً له ، وكلاهما يؤكدان المضمون الواحد الذي اتفقا في الدلالة عليه .

ويرى الرازي أن « القسم بالشيء على حالة من أحوال نفسه يدل على كونه في غاية الشرف »[٢]، ولهذا ذكر في تفسيره لهذا الموضع أن « هذا النوع من الكلام يدل على تعظيم القرآن ؛ فقد يقول الرجل إذا أراد تعظيم رجل له حاجة إليه : أستشفع بك إليك ، وأقسم بحقك عليك »[٣] .

ومعنى هذا أن في مجيء القسم على هذا النحو من التركيب الذي يتحد فيه المقسم به والمقسم عليه - مايشير إلى عظمة الأمر المقسم عليه ، « ففي الإقسام بالقرآن على علو قدره عنده تعالى براعة بديعة وإيذان بأنه من علو الشأن بحيث لايحتاج في بيان إلى الاستشهاد عليه بالإقسام بغيره ، بل هو بذاته كاف في الشهادة على ذلك من حيث الإقسام به كما أنه كاف فيها من حيث إعجازه ، ورمز إلى أنه لايخطر بالبال عند ذكره شيء آخر أولى منه بالإقسام به »[٤].

وعليه فإن القسم بالكتاب المبين في هذا الموضع على كون القرآن عربياً مبيناً وكونه معظماً عند الله تعالى وعلياً حكيماً ، يشير إلى أنه ليس ثمة مايؤكد هذا المقسم عليه أولى من القسم بالكتاب نفسه موصوفاً بالوصف المناسب للمقسم عليه وهو كونه مبيناً ، وفي ذلك تعظيم للقرآن من الوجهة التي عني القسم بإثباتها وهي الإبانة ومايتبعها من صفات العلو والحكمة.

---

(١) الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال (بهامش الكشاف ٤٧٧/٣ ، ٤٧٨) .

(٢) التفسير الكبير ٢٣٩/٢٧ .

(٣) المصدر السابق ٢٣٧/٢٧ .

(٤) تفسير ابي السعود ٣٩/٨ . وانظر : التحرير والتنوير ١٥٩/٢٥ .

ويرى الألوسي أن البراعة في نحو هذا التركيب - زيادة على مافيه من رعاية المناسبة - : تتمثل في « التنبيه على أنه لا شيء أعلى منه فيقسم به ولا أهم من وصفه فيقسم عليه »[١] . ومن هذا يظهر أن التركيب يفيد أيضاً في تعظيم شأن المقسم به ، وعلى هذا فإن في هذا الاتحاد دلالة على تعظيم طرفي القسم (المقسم به والمقسم عليه)من جهة أن المقسم به هو أعلى مايقسم به على المقسم عليه ، وأن المقسم عليه أعظم وأفخم من أن يؤكد بغيره .

وفي اتحاد المقسم به والمقسم عليه دلالة أخرى ، وهي أن هذا التركيب يتيح للأمر المقسم عليه المراد توكيده ، وهو غالباً مايكون موضع شك وإنكار ، أن يقع موقع مالاشك فيه ولا إنكار ، وهو المقسم به الذي استقر في العرف اللغوي لهذا الأسلوب أنه أمر واضح مؤكد لغيره؛ ففي وقوع ماجرت العادة على القسم عليه موقع المقسم به - سواء أكان المقسم عليه هو نفسه أم غيره - إيماء إلى أنه من الوثاقة والظهور بحيث يصلح أن يؤكد به غيره ، وهذا أبلغ في تأكيده من مجرد القسم عليه .

ولعل هذه الخصوصيات والدلالات الدقيقة في هذا النوع من القسم هي التي جعلت « من البلاغة عندهم كون القسم والمقسم عليه من واد واحد »[٢] .

ولما كان القسم واقعاً في سياق إثبات الرسالة ، ومخاطباً المسرفين المكذبين استكباراً وحسداً ؛ اشتمل جوابه - بالإضافه إلى دلالات التوكيد التي أفادتها علاقة المقسم به بالمقسم عليه - على كثير من عناصر التوكيد وخصائص التراكيب التي اقتضتها أحوال السياق والخطاب .

فأكد قوله سبحانه : (إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون) بـ (إن) ، وبمجيء ضمير العظمة المتصل بها في قوله : (إنا) ، وبتكرار هذا الضمير في قوله : (جعلناه) ، وعبر فيه عن القرآن بضمير الغائب إشعاراً ببعد منزلته ومكانته ، ثم صرح

---

(١) روح المعاني ٢٥/٦٤ .

(٢) نظم الدرر ١٧/٣٧٨ .

به بعد الإضمار في قوله: (قرآنا) فكان ذكره على هذا النحو كالتفسير بعد الإبهام . ثم قال : (لعلكم تعقلون) فأفاد أنه جعل معقولاً متمكناً في العقول ؛ لأن التعبير بـ (لعل) مؤكد لمضمون الجملة إذا كانت - كما فسرها الرازي[1] - بمعنى : لكي ؛ ففي الكلام على هذا النحو مايشبه الضمان الشرطي ، إذ كأن المعنى : إذا كنا قد جعلناه عربياً فقد عقلتموه ، وقد تقدم ذكر طرف من هذه الدلالة . ولايفهم من (لعل) إذا كانت فيها دلالة الترجي أن المرجو بها غير متحقق الوقوع ؛ لأن « القادر إذا عبر بأداة الترجي حقق مايقع ترجيه ليكون بين كلامه وكلام العاجز فرق »[2].

ولأن هؤلاء المشركين كانوا ينكرون تعظيم القرآن « عناداً ، وإن كانوا يقرون بذلك في بعض الأوقات ؛ قال مؤكداً لذلك ، وتنبيهاً على أنه أهل لأن يقسم به ويزاد في تعظيمه لأنه لا كلام يشبهه ، بل ولا يدانيه بوجه : (وإنه) أي القرآن ، وقدم الظرفين على الخبر المقترن باللام اهتماماً بهما ليفيد بادىء بدء أن علوه وحكمته ثابتة في الأم وأن الأم في غاية الغرابة عنده (في أم الكتاب) ... وزاد في شرفه بالتعبير بلدى التي هي لخاص الخاص وأغرب المستغرب ، ونون العظمة فقال مرتباً للظرف على الجار ليفيد أن أم الكتاب من أغرب الغريب الذي عنده (لدينا) على ماهو عليه هناك (لعلي) .

ولما كان العلي قد يتفق علوه ولا تصحبه في علوه حكمة ، فلا يثبت له علوه ، فيتهور بنيانه وينقص سفوله ودنوه ؛ قال : (حكيم) أي بليغ في كل من هاتين الصفتين راسخ فيهما رسوخاً لايدانيه فيه كتاب فلا يعارض في عليّ لفظه ، ولا يبارى في حكيم معناه ... »[3] .

وعلى هذا فقد اجتمع في المقسم عليه من عناصر التوكيد وخصوصيات التراكيب مايفيد تأكيد مضمون القسم ، وهو شرف الكتاب المبين وعظمته وعلو شأنه ، وكل

---

(١) انظر : التفسير الكبير ٢٣٩/٢٧ .

(٢) نظم الدرر ٣٧٩/١٧ .

(٣) نظم الدرر ٣٨٠/١٧ ، ٣٨١ .

ذلك دال على كونه حقاً من عند الله تعالى ، وهو مايهدي إلى الإيمان بالرسول ﷺ ورسالته ، وهذه هي مقاصد هذا القسم ، وهو في ذلك كغيره من مواضع هذا النوع من القسم (أعني القسم بالقرآن الكريم) .

ويرد القسم في هذا الموضع عقب الحروف المقطعه ، كالأقسام السابقة ؛ فقد جاء قبله من هذه الحروف حرفان هما: (حم)، وللمفسرين في تفسيرهما - في هذه السورة وفي السور الأخرى التي افتتحت بهما - أقوال منها : أنها حروف مقطعه من أسماء الله تعالى ؛ فهي إما أن تكون من (الرحمن ، والرحيم) ؛ الحاء والميم منهما ، وإما أن تكون الحاء والميم من (الرحمن) على أن (الر) و (حم) و (ن) هي حروف الرحمن ، أو أنهما مفتاح كل اسم له - سبحانه - مبدوء بالحاء أو الميم . وقال بعضهم : معناها : حُمَّ الأمر ، أي : قضي الأمر . وقيل : هي اسم ، فهي عند بعضهم اسم من أسماء الله تعالى أقسم به ، وقيل : هو اسمه الأعظم ، واستدل القائلون بالاسمية بقول الشاعر :

يذكرني (حم) والرمح شاجر .·. فهلا تلا (حم) قبل التقدم

وقول الكميت :

وجدنا لكم في آل (حم) آية .·. تأولها مناتقي ومعرب

وفيها أقوال غير ذلك ، والذي ذهب إليه جمهور المفسرين هو أنهامن حروف التهجي كسائر ما افتتحت به السور القرآنية(١) .

وثمة مايربط بين القسم بالكتاب المبين وذكر هذين الحرفين اللذين افتتحت بهما السورة ؛ لأن هذا الكتاب المبين - كما يرى سيد قطب - « في صورته اللفظية من جنس هذين الحرفين . وهذان الحرفان كبقية الأحرف في لسان البشر - آية من آيات

---

(١) انظر هذه الآراء وغيرها في : مجاز القرآن ١٩٣/٢ ، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣٦٥/٤ ، وتفسير الطبري ٢٦/٢٤، ٢٧، وتفسير البغوي ٩٠/٤،وزاد المسير ٢٠٥/٧، ٢٠٦، وتفسير ابن كثير ٩٠/٤ وفتح القدير ٤٨٠/٤ .

الخالق ، الذي صنع البشر هذا الصنع ، وجعل لهم هذه الأصوات . فهناك أكثر من معنى وأكثر من دلالة في ذكر هذه الأحرف عند الحديث عن القرآن »[١]. ومعنى هذا أن السياق يربط في هذا الموضع بين المعجزة في خلق النطق والأصوات التي هي آلة البيان ، وبين المعجزة البيانية وهي الكتاب المبين المنظوم من جنس هذه الحروف .

ويؤيد وجه الصلة الذي ذكره سيد قطب هنا أن له نظائر في النظم القرآني ؛ فقد جاء الربط بين تعليم القرآن وخلق الإنسان وتعليمه البيان في قوله سبحانه: ﴿الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان * علمه البيان ﴾[٢].

ويرى ابن عاشور أن المقصود بوصف الكتاب بأنه عربي - في جواب هذا القسم في قوله سبحانه : (قرآناً عربياً) - « غرضان : أحدهما التنويه بالقرآن ومدحه بأنه منسوج على منوال أفصح لغة ، وثانيهما التورك على المعاندين من العرب حين لم يتأثروا بمعانيه بأنهم كمن يسمع كلاماً بلغة غير لغته ، وهذا تأكيد لما تضمنه الحرفان المقطعان المفتتحة بهما السورة من معنى التحدي بأن هذا كتاب بلغتكم وقد عجزتم عن الإتيان بمثله »[٣]. وهذا رابط آخر بين القسم وماسبقه من الحروف المقطعة .

ويمكن النظر إلى وجه آخر من التناسب بين القسم هنا ومجيء الحروف المقطعة قبله - من جهة ما في هذه الحروف من خفاء معانيها لأنها مما استأثر الله تعالى بعلمه ، وما يقابله في القسم من الوضوح المستفاد من ذكر الكتاب المبين فهذا ضرب من التناسب يقوم على الربط بين أمرين متقابلين ، وتظهر من تأمله خصوصية وصف الكتاب في هذا القسم بالمبين . ومن هذا يتضح أن للقسم علاقة بالموقع الخاص الذي ورد فيه .

والقسم بالكتاب المبين على ذاته في صدر هذه السورة ذو صلة بما جاء من تكرار الإشارة إلى الكتاب في السورة التي سبقتها وهي سورة الشورى ، وبخاصة في قوله

---

(١) في ظلال القرآن ٣١٧٦/٥ .

(٢) سورة الرحمن ، الآيات ١ - ٤ .

(٣) التحرير والتنوير ١٦١/٢٥ .

سبحانه : ﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ماكنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم * صراط الله الذي له مافي السموات ومافي الأرض ألا إلى الله تصير الأمور** ﴾(١) .

ووجه ذلك - كما يقول البقاعي - أنه « لما قدم آخر تلك أنه جعل ما أوحى إليه ﷺ نوراً يهدي به من يشاء ، وكان قد تقرر في السورة الماضية ماله من الجلالة بأنه تنزيله (٢)، وختم بأنه لا أمر يخرج عنه سبحانه إشارة إلى أنه يردهم عن غيهم وكانوا يمكرون أن يرجعوا، فاقتضى الحال غاية التأكيد ، وكان إقسام الله تعالى بالأشياء إعلاماً بجلالة ما فيها من الحكم وتنبيهاً على النظر فيما أودعها من الأسرار التي أهلها للإقسام بها - افتتح هذه بتعظيم هذا الوحي بالإقسام به حثاً على تدبر مافيه من الوجوه التي أوجبت أن يكون قسماً ، ثم تعظيم أثره »(٣).

ويقول ابن الزبير- في شرح جانب آخر من هذه الصلة : « لما أخبر سبحانه بامتحان خلف بني اسرائيل في شكهم في كتابهم بقوله : ﴿ ... **إن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب** ﴾(٤) ووصى نبيه ﷺ بالتبرىء من سيء حالهم والتنزه عن سوء محالهم فقال: ﴿ ... **ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب** ... ﴾(٥)، الآية ، وتكرر الثناء على الكتاب العربي كقوله : ﴿ **وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً** ... ﴾(٦) ، وقوله : ﴿ **الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان** ... ﴾(٧)وقوله:﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا**

---

(١) سورة الشورى ، الآية ٥٢ ، ٥٣ .

(٢) انظر على سبيل المثال : سورة الشورى ، الآيات ٣، ٧، ١٣، ١٥، ١٧، ٥١، ٥٢ .

(٣) نظم الدرر ٣٧٧/١٧ .

(٤) سورة الشورى ، الآية ١٤ .

(٥) سورة الشورى ، الآية ١٥ .

(٦) سورة الشورى ، الآية ٧ .

(٧) سورة الشورى ، الآية ١٧ .

ماكنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان... ﴾[١] إلى آخر السورة - أعقب ذلك بالقسم به ، وعضد الثناء عليه فقال : ﴿ **حم والكتاب المبين إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون *...** ﴾ »[٢].

ولعل مما يشير إلى دقة الصلة بين هذا القسم وآخر السورة التي سبقته ذلك التناغم البديع بين وصف القرآن الكريم في المقسم عليه بالعلي الحكيم في قوله سبحانه : (وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم) ، وبين مجيء هذين الوصفين - متواليين أيضاً - في صفة الله تعالى ، في سياق الحديث عن كيفية اتصال وحيه سبحانه بالبشر في قوله تعالى في آخر سورة الشورى : ﴿ **وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه مايشاء إنه علي حكيم** ﴾[٣].

وكما اتصل القسم بآخر السورة التي سبقته ، وبالسورة كلها من جهة مافيها من الإشارة إلى الكتاب وإنزاله ووجه النعمة في ذلك ، ومايتصل به من الأمور ؛ اتصل بما جاء بعده - في صدر سورة الزخرف - من الجهة نفسها ؛ وذلك أن صدر هذه السورة قد بسط الكلام في إثبات أهم القضايا التي تضمنها هذا الكتاب ، فكان في إثبات الرسالة والبعث والوحدانية [٤] ، ثم عقب على ذلك بقوله سبحانه : ﴿ **أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون** ﴾[٥] وهي إشارة إلى أنهم لم يؤمنوا بما جاء في هذا الكتاب حتى كأنهم قد أوتوا كتاباً من قبله فهم لايدعونه إلى مافي هذا الكتاب المبين .

وواضح مما سبق أن القسم متمكن في الموقع الذي وقع فيه تمكناً يؤيده الارتباط

---

(١) سورة الشورى ، الآية ٥٢ ، ٥٣ .

(٢) انظر : نظم الدرر ٣٨١/١٧ ، ٣٨٢ .

(٣) سورة الشورى ، الآية ٥١ .

(٤) انظر : الآيات ٦ - ٢٠ من سورة الزخرف .

(٥) سورة الزخرف ، الآية ٢١ .

الوثيق بين القسم وماسبقه من جهة ، وبين القسم ومالحقه من جهة أخرى ، وأن القسم بوقوعه هذا الموقع يربط بين سياقين متماثلين لكل منهما وجه اتصال بمضمونه ودلالته وعناصره .

والقسم -فوق ذلك كله- ذو علاقة بالسياق العام للسورة التي وقع في صدرها ، وأول مايلتفت إليه من ذلك أن السورة قد عنيت كثيراً بالتنويه بالقرآن الكريم وحكاية مقولات المشركين ومطاعنهم والرد عليها [١]، وهو أظهر فيما جاء بلفظ الكتاب خاصة ، وهو اللفظ المقسم به هنا ، وقد كثر مجيء هذا اللفظ ومشتقاته في السورة[٢].

ومما يشير إلى هذه المناسبة إشارة واضحة أن الوصف الذي وصف به المقسم به في صدر السورة يشيع في السورة شيوعاً يلحظ معه التلاؤم البديع بين القسم وسياقه العام ؛ فالمشرك يوصف في هذه السورة بأنه كفور (مبين) وذلك في قوله تعالى : ﴿**وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين**﴾[٣]، ويوصف مانسب إلى الله تعالى من الإناث بأنه ﴿**. . . ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين**﴾[٤] ، ووصف بهذا الوصف الرسول ﷺ في قوله سبحانه: ﴿**بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين**﴾[٥] ، ووصف به ضلال الكافرين في قوله :﴿**أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين**﴾[٦] ، وجاء هذا الوصف فيما حكي عن فرعون – وهو يستهزىء بموسى عليه السلام – في

---

(١) انظر على سبيل المثال : الآيات ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٣٠ - ٤٤، ٥٧-٦٢ ، ٧٨-٨٣.

(٢) ورد ذلك في الآيات : ٢ ، ٤ ، ١٩ ، ٢١ ، ٨٠ . وهو أكثر من لفظ القرآن ومشتقاته ، الذي لم يرد إلا في آيتين هما : ٣ ، ٣١ .

(٣) الآية ١٥ .

(٤) الآية ١٨ .

(٥) الآية ٢٩ .

(٦) الآية ٤٠ .

قوله سبحانه : ﴿ **أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين** ﴾[١]، ووصف الشيطان بأنه عدو مبين في قوله جل وعز : ﴿**ولايصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين** ﴾[٢]، وأخبر عن عيسى عليه السلام - بأنه قد جاء بالبينات وبأنه إنما جاء مبيناً ، في قوله سبحانه : ﴿ **ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم** . . . ﴾[٣] .

وشيوع هذا الوصف في السورة ، وهو الوصف الذي وصف به المقسم به ، يدل على أن لفكرة الإبانة شأناً عظيماً وأهمية خاصة في هذه السورة ، وفي ضوء هذا يمكن تفسير خصوصية اختيار وصف المقسم به بهذا الوصف ، كما يمكن أن يشير شيوع لفظ الكتاب في السورة إلى خصوصية تسمية المقسم به بهذا الاسم في هذا الموضع ، وكل ذلك يوضح وجه بناء الصورة المقسم بها في صدر هذه السورة :(الكتاب المبين) .

وبعد ؛ فقد وقفنا في الصفحات السابقة على كثير من دلالات التراكيب وخصوصيات العناصر اللغوية في بناء هذا القسم ، وعلاقتها بعضها ببعض ، وقيمة هذه العلاقة في تأكيد المضمون الذي يقصد القسم إلى إثباته وتحقيقه ، ووجه اختصاص القسم بالموقع الذي ورد فيه ، وصلته الدقيقة بسياقه الخاص ، والسياق العام في السورة التي ورد فيها . ولايزال في كل جانب من هذه الجوانب من الدلالات والخصائص في هذا الموضع مالو فرغت لتأمله دراسة مستقلة لوسعته ، ولكن حسبنا - في هذا البحث - أن ندل بما ذكر على مالم يذكر .

---

(١) الآية ٥٢ .

(٢) الآية ٦٢ .

(٣) الآية ٦٣ .

الموضع الثاني : القسم بـ (الكتاب المبين) في صدر سورة الدخان :

قوله تعالى : ﴿ **حم * والكتاب المبين * إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين * فيها يفرق كل أمر حكيم *أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين * رحمة من ربك إنه هو السميع العليم * رب السموات والأرض ومابينهما إن كنتم موقنين * لا إله إلا هو ربكم ورب آبائكم الأولين * بل هم في شك يلعبون * فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين** ﴾[١] .

يقسم الله تعالى في هذا الموضع بـ (الكتاب المبين) ، وهي الصورة التي ورد القسم بهافي الموضع السابق في سورة الزخرف ؛ وعليه فقد اتحدت صورة المقسم به في الموضعين . وقد تقدم أن الكتاب المبين هو القرآن الكريم . وثمة تشابه واضح بين هذا الموضع وسابقه ، فبالإضافة إلى اتحاد المقسم به ، تماثل الموضعان في مجيء القسم فيهما بعد الحرفين المقطعين : (حم) ، وقد تقدم تفسيره ، وتماثلا -أيضا- في كون المقسم عليه فيهما ذا صلة بالقرآن الكريم ، أي أن المقسم به والمقسم عليه - كما قال الزمخشري في الموضع السابق - من واد واحد .

وقد اختلف في تعيين الذي وقع عليه القسم ؛ فقال بعض المفسرين هو قوله سبحانه : (إنا أنزلناه في ليلة مباركة) والضمير في (أنزلناه) للكتاب المبين[٢] .

والليلة المباركة هي ليلة القدر في قول الأكثرين [٣]. « وقد أنكر بعض النحويين أن هذه الجملة جواباً للقسم ؛ لأنها صفة المقسم به ، ولاتكون صفة المقسم به جواباً للقسم »[٤]، ولهذا ذكروا أن الجواب هو قوله: (إنا كنا منذرين)[٥] ، وإليه

---

(١) سورة الدخان ، الآيات ١ - ١٠ .

(٢) انظر : تفسير الطبري ٦٤/٢٥ ، والكشاف ٤٩٩/٣ ، وزاد المسير ٣٣٦/٧ ، وتفسير البيضاوي ص ٦٥٥، وفتح القدير ٥٧٠/٤ .

(٣) انظر : تفسير الطبري ٦٤/٢٥ ، وتفسير البغوي ١٤٨/٤ ، وزاد المسير ٣٣٦/٧ ، وتفسير ابن كثير ١٣٧/٤ .

(٤) انظر : تفسير القرطبي ٢٥/١٦ ، وفتح القدير ٥٧٠/٤ .

(٥) انظر : المصدرين السابقين .

ذهب ابن عطيه فلا يحسن - عنده - وقوع القسم على (إنا أنزلناه...) ؛ لأنه من القسم بالشيء على نفسه ، وإنما هو اعتراض يتضمن تفخيم الكتاب [١] . على أن بعض المفسرين قد عدّ : (إنا كنا منذرين) جواباً ثانياً للقسم بغير عاطف [٢]. وقيل : هو جملة مستأنفة مقررة للإنزال ومعللة له على معنى : إنا أنزلناه لأن من شأننا الإنذار [٣].

وأرى أنه من جواب القسم ، ولا حاجة مع الاستئناف إلى عاطف لأنه رابط بين هذه الجملة وسابقتها على المعنى الذي ذكر ، أما كونه - وحده - جواباً وماقبله اعتراض فلا يؤيده مضيّ السياق بعده في الحديث عن تلك الليلة المباركة في قوله سبحانه : (فيها يفرق...)، فذلك يدل على أن قوله: (إنا أنزلناه في ليلة مباركة) ليس اعتراضاً لأن معتمد الكلام عليه فيما يلحق ، ويضاف إلى ذلك جواز وقوع القسم بالشيء على نفسه ، بل هو - كما ذكر المفسرون في الموضع السابق - من الأساليب البديعة لتناسب طرفي القسم .

وجملة (فيها يفرق كل أمر حكيم) إما أن تكون صفة أخرى لتلك الليلة بعد وصفها بـ (المباركة) ، أو مستأنفة لتقرير ماقبلها[٤]. وقوله : (أمراً من عندنا) في موقع نصب على الحال ، أو على معنى : يفرق كل أمر فرقاً وأمراً، أي : نأمر أمراً بتبيان ذلك وتفصيله [٥]، فهو قول متصل بالجملة السابقة .

---

(١) انظر : البحر المحيط ٣٢/٨ ، وتفسير أبي السعود ٥٨/٨ ، وفتح القدير ٥٧٠/٤ ، وروح المعاني ١١٢/٢٥.

(٢) تفسير أبي السعود ٥٨/٨ ، وفتح القدير ٥٧٠/٤ .

(٣) انظر : تفسير البيضاوي ص ٦٥٥ ، وتفسير أبي السعود ٥٨/٨ ، وفتح القدير ٥٧٠/٤ ، والتحرير والتنوير ٢٧٩/٢٥ .

(٤) فتح القدير ٥٧٠/٤ .

(٥) انظر : معاني القرآن للفراء ٣٩/٣ ، وتفسير الطبري ٦٥/٢٥ ، وتفسير البغوي ١٤٩/٤ ، وزاد المسير ٣٣٨/٧ .

ويرى الزمخشري أن قول الله تعالى : (...إنا كنا منذرين . فيها يفرق كل أمر حكيم) « جملتان مستأنفتان ملفوفتان فسر بهما جواب القسم الذي هو قوله تعالى : (إنا أنزلناه في ليلة مباركة) كأنه قيل : أنزلناه لأن من شأننا الإنذار والتحذير من العقاب ، وكان إنزالنا إياه في هذه الليلة خصوصاً لأن إنزال القرآن من الأمور الحكيمة ، وهذه الليلة مفرق كل أمر حكيم » [١].

ويفهم من نصه أن في الجمل الأربع من قوله : (إنا أنزلناه) إلى قوله : (إنا كنا مرسلين) - كما يقول ابن عاشور - « محسن اللف والنشر ؛ ففي قوله : (إنا أنزلناه في ليلة مباركة) لف بين معنيين ؛ أولهما : تعيين إنزال القرآن ، وثانيهما : اختصاص تنزيله في ليلة مباركة ، ثم علل المعنى الأول بجملة (إنا كنا منذرين) ، وعلل الثاني بجملة (فيها يفرق كل أمر حكيم) »[٢].

أما قوله سبحانه : (إنا كنا مرسلين) فقيل : هو بدل من قوله : (إنا كنا منذرين) ، وقيل : جواب ثالث للقسم ، وقيل : مستأنف [٣].

وليس ثمة مايدعو إلى وصف بعض الجمل المتقدمة بأنها جواب أول أو ثانٍ أو ثالث ؛ لأنها جمل اتصل بعضها ببعض ، فتلك الروابط التي ذكرها المفسرون - على اختلاف أنواعها : من نعت ، وبدل ، واستئناف ، ولف ونشر ، وغير ذلك - تصل بين تلك الجمل على نحو يجعلها كالجملة الواحدة ، وهذا الارتباط يشير إلى أن هذا الجزء من الكلام (من قوله : إنا أنزلناه ، إلى قوله : إنا كنا مرسلين) هو المقسم عليه في هذا القسم ، ويؤيده أنه الجزء الأكثر صلة بالمقسم به .

وقد اشتملت جمل المقسم عليه على غير واحد من أساليب التوكيد والتعظيم التي تزيده قوة وتحقيقاً ، ففي الجملة الأولى وهي قوله : (إنا أنزلناه في ليلة مباركة) التأكيد بإن ، وضمير العظمة في اسمها وخبرها ، واسمية الجملة ، وفيها التعبير عن

(١) الكشاف ٣/٥٠٠ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٥/٢٧٩ .

(٣) انظر : تفسير البيضاوي ص ٦٥٦ ، وتفسير أبي السعود ٨/٥٩ ، وفتح القدير ٤/٥٧٠ .

القرآن بالضمير في قوله : (أنزلناه) وهذا أسلوب من أساليب التعظيم ، وفي الجملة تنكير كلمة (ليلة) لتعظيمها ، ووصفها بالبركة - كما يقول ابن عاشور - للتنويه بها والتشويق إلى معرفتها[١]، وفي ذلك زيادة تفخيم لشأن القرآن الكريم الذي نزل فيها .

والجملة الثانية : (إنا كنا منذرين) تقع موقع الإستئناف لأنها - كما تقدم - معللة للإنزال ، والإستئناف من المواقع التي يؤكد فيها الكلام ، ولهذا اشتملت الجملة على التأكيد بإن ، وعلى ضمير العظمة في اسمها ، وجاء فيها التأكيد بفعل الكون الدال على ثبوت الأمر ورسوخه ، ودخل هذا الفعل على ضمير العظمة أيضاً ، ثم تكرر التعظيم في قوله بلفظ الجمع : (منذرين) .

وفي قوله : (فيها يفرق كل أمر حكيم) تنويه بشأن تلك الليلة التي أنزل فيها الكتاب المبين ، وفيه تفخيم لهذا الكتاب من جهة أنه من الأمور الحكيمة التي تكون في تلك الليلة . وزاد من هذا التفخيم تنكير لفظ الأمر في قوله (أمراً من عندنا) ، والتعبير بالعندية المشعر بعلو شأنه ؛ فهو- كما يقول أبو السعود - « بيان لفخامته الإضافية بعد بيان فخامته الذاتيه » [٢]. أما قوله : (إنا كنا مرسلين) ؛ ففيه من المؤكدات إن ، وضمير العظمة ، وفعل الكون ، وضمير العظمة المتصل به (كنا) ، والتعبير بصيغة الجمع في قوله (مرسلين) ، واسمية الجملة .

وكل هذه المؤكدات التي اشتملت عليها جمل المقسم عليه تزداد دلالتها التحقيقية بوقوعها جواباً للقسم ؛ وذلك أن من شأن القسم بالكتاب المبين أن يؤكد المقسم عليه جملة ، ومن ثم يقع هذا التأكيد على جميع خصوصيات التراكيب في الجمل المكونة لهذا الجواب .

وينشأ عن هذا سؤال هو : ما الغرض من ورود الكلام على هذا النحو المؤكد غاية التأكيد ، وما دلالته في هذا الموقع ؟

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧٧/٢٥ .

(٢) تفسير أبي السعود ٥٩/٨ .

والإجابة تقتضي الوقوف على المقسم له في هذا الموضع ؛ فالواضح من السياق أن الخطاب يوجه إلى النبي ﷺ، وإلى المخاطبين بهذا القرآن : مؤمنين وكافرين ، وأن للكافرين مزيد اختصاص بهذا الخطاب ؛ فأما دلالة السياق على كون الخطاب في هذا الموضع موجهاً إلى الرسول عليه الصلاة والسلام [١] ففي قوله سبحانه - عقب القسم - : (رحمة من ربك . . .) الآية ، وأما دلالته على عموم الخطاب للناس كافة فمأخوذة من قوله سبحانه - عقب الآية السابقة -: (رب السموات والأرض ومابينهما إن كنتم موقنين * لا إله إلا هو يحي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين) ، وأما دلالة السياق على أن للكافرين زيادة اختصاص به فواضحة في قوله تعالى - بعد الآيات السابقة دون فصل - : (بل هم في شك يلعبون) ، فهذا يدل على أن السياق معني - فيما مضى منه - بهذه الفئة الشاكة اللاهية .

والغرض من التأكيد القسمي وما صاحبه من المؤكدات يختلف باختلاف المخاطب؛ فهو للرسول ﷺ تثبيت وتسلية وتأييد ، ويلحظ هنا ماصحب القسم في هذا الخطاب من خصائص التعبير المماثلة للدلالة التي تعبر عنها تلك المؤكدات ؛ فقد جاء فيه لفظ الرحمة والرب في قوله : (رحمة من ربك) وهما لفظان مناسبان لمعنى التسلية والتلطف ، وجاء فيه إظهار الرب في موضع الإضمار لأن مقتضى الظاهر أن يقول : رحمة منا ؛ فأظهره - كما يقول الزمخشري - « إيذاناً بأن الربوبية تقتضي الرحمة على المربوبين »[٢]، وأضيف في هذا الخطاب لفظ الرب إلى ضمير الرسول ﷺ ، وقد مضى بيان اختصاص هذا النوع من الإضافة - لما فيه من التشريف والتفخيم - بمواضع التسلية والتأييد في تفسير القسم باسم الرب تعالى مضافاً إلى ضمير الرسول ﷺ. وواضح هنا أن اللغة المعبر بها تناسب في كثير من خصوصياتها الغرض من هذا الخطاب .

---

(١) من المعلوم أن الرسول ﷺ مخاطب بجميع القرآن ، ولكن المقصود هنا تحديد عناصر الخطاب على النحو الذي يهدي إليه السياق في هذا الموضع خاصة .

(٢) الكشاف ٥٠١/٣ ، وانظر : تفسير البيضاوي ص ٦٥٦ ، وتفسير أبي السعود ٥٩/٨ .

أما التأكيد للمؤمنين ؛ فلزيادة اليقين ، ويمكن أن تلحظ الإشارة إلى هذا الغرض من السياق نفسه ؛ فإن الآية التي تفيد عموم الخطاب للناس : مؤمنهم وكافرهم قد ختمت بقوله : (إن كنتم موقنين) فهذا يفيد - بالإضافة إلى التعريض بموقف الكافرين - التأكيد على أن هذا الكلام مؤكد ومثبت لمضمونه لمن كان موقناً ٠

ثم جاءت الإشارة إلى الغرض من هذه المؤكدات بالنسبة للمكذبين في قوله : (بل هم في شك يلعبون) ، فإن من احتواهم الشك احتواء الظرف للمظروف ، وهم -مع ذلك- يلعبون ، مفتقرون إلى جميع تلك المؤكدات ٠

وهكذا نجد أن السياق يومىء إلى أغراض المؤكدات التي تضمنها ، وهذا ضرب من بناء الكلام عجيب ، تشير فيه خصائص التركيب إلى دلالاتها وأغراضها ٠

ولاينحصر الغرض من هذه المؤكدات في موافقة مقتضيات الخطاب ؛ لأن لهذه العناصر المؤكدة - أيضا - قيمة في تحقيق مضمون السياق وهو التنويه بالقرآن العظيم والاحتفاء به ، وإثبات كونه حقاً من عند الله تعالى ، وذلك محقق للرسالة التي ورد القسم في سياق إثباتها ؛ فقسم الله تعالى بالكتاب المبين ، وماتبعه في المقسم عليه من المؤكدات يقع في سياق التنويه بالقرآن وعظمة إنزاله ، وعظمة النذارة وعظمة الرسالة ، وكل ذلك يعني أن المقصود من القسم - في مجمله - إثبات الرسالة من طريق إثبات عظمة الكتاب المبين الذي يهدي إلى منزله سبحانه ٠

ولما كان القسم هنا في سياق إثبات الرسالة كان المقسم به فيه هو القرآن الكريم لأنه يناسب هذا السياق من جهة أنه معجزة الرسالة ودليلها ، وقد فُصِّل هذا الجانب في المواضع السابقة المقسم فيها بالقرآن الكريم ٠

أما مجيء صورة المقسم به في هذا الموضع على نحو صورته في الموضع السابق خاصة ؛ فمرجعه إلى أن المقسم عليه في الموضعين يكاد يكون واحداً ، لأن معنى قوله سبحانه في موضع الزخرف : ﴿ **إنا جعلناه قرآناً عربياً** . . . ﴾[1] -كما ذكر

---

(١) سورة الزخرف ، الآية ٣ ٠

المفسّرون - إنا أنزلناه ، وكذلك فإن القسم في كل من الموضعين معنيّ بإثبات أمور ذات علاقة بالتنويه بشأن القرآن الكريم ٠

والتماثل بين هذا الموضع وموضع الزخرف الذي سلف في صورة المقسم به والمقسم عليه يفضي إلى تماثل في بعض وجوه العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه في كل من الموضعين ؛ ولكن ثمة - مع ذلك - علاقات خاصة بين طرفي القسم في هذا الموضع ٠

ومن العلاقات الخاصة بين طرفي هذا الموضع أن في القسم بالكتاب المبين على تعظيم إنزاله وما فيه من النذارة والرسالة - تعريضاً بأولئك المكذبين الذين هم في شك يلعبون ، من جهة أن هذا الكتاب المقسم به مبين عن وجه الحق الذي لايبقى معه شك لمتحير ، وأنه - كما يشير إليه المقسم عليه - عظيم محتفى بتنزيله في ليلة مباركة يكون من عظم شأنها ما أعربت عنه الآيات ممايظهر في أمر هذا الكتاب من الجد مالا يهون معه ماهم فيه من اللهو واللعب [١].

وهذه العلاقة تشير إلى وجه بناء القسم على هذا النحو الذي يتسق فيه طرفاه مع السياق الخاص الذي ورد فيه ، وهو مايفسر فروق الصياغة في المقسم عليه بين هذا الموضع والذي سبقه ، تلك الفروق ذات العلاقة بالسياق الخاص لكل قسم ٠

أي أن بناء المقسم عليه في الموضع السابق كان ذا علاقة بسياقه الخاص الذي وصف فيه المخاطبون بأنهم قوم مسرفون ؛ لأن ذلك الكتاب المبين المقسم به - وهو العربي الذي يعقلونه لكونه بلغتهم - يشهد بإسرافهم في الكبرياء والحسد ، فكان إثبات كونه عربياً وتمجيده في المقسم عليه متصلاً بوصفهم بالإسراف في ذلك السياق، على حين جاء بناء المقسم به مع المقسم عليه في هذا الموضع (الدخان) مناسباً للسياق الذي وصفوا فيه بأنهم (في شك يلعبون) على النحو الذي مضى بيانه ٠

أما العلاقات التي تماثل مامضى في قسم الزخرف ؛ فمنها اتحاد المقسم به

---

(١) من الملاحظ هنا أنه أضرب عن المعنى بـ (بل) في قوله : (بل هم في شك يلعبون) ، ويكاد هذا الأسلوب يطرد عقب القسم بالقرآن الكريم في جميع مواضعه التي سبقت ٠

والمقسم عليه ، وقد تقدم ذكر خصوصية هذا الاتحاد وقيمته في تأكيد مضمون القسم الذي يتوخى إثباته، ودلالته على تعظيم طرفي القسم ومن ثم تعظيم المضمون القسمي من الجهات التي تم تفصيلها ، وتقدم كذلك بيان قيمة مثل هذا التركيب في الإشارة إلى أن الأمر المقسم عليه من الظهور والوضوح بحيث يمكن الإقسام به ، وفي ذلك تعويل على ماجرى عليه العرف اللغوي من كون المقسم به - في الغالب - أمراً ظاهراً من شأنه أن يؤكد غيره ، وفي جميع هذه الوجوه مايظهر براعة هذا النوع من الكلام الذي يكون فيه المقسم به والمقسم عليه من واد واحد .

وبين القسم بالكتاب المبين ومجيء الحرفين المقطعين (حم) علاقات خاصة تفسر وجه اقترانهما ، وقد سبق بسطها في الموضع السابق ؛ فنكتفي من ذلك بما ذكر هناك .

وفي هذه العلاقة مايوثق الصلة بين القسم وسياقه الخاص الذي ورد فيه ، وقد تقدم في هذا الموضع مايوضح علاقة القسم بموقعه الخاص في صدر سورة الدخان ، ذلك الموضع الذي عنيت فيه السورة - على وجه الخصوص - بإثبات قضية الرسالة ، وبخاصة لأولئك الشاكين اللاعبين .

والملاحظ في هذا السياق الذي أقسم فيه بالقرآن الكريم أنه قد تضمن الإشارة إلى السماء والأرض في قوله سبحانه : (رب السموات والأرض ومابينهما . . .) ، ومجيء هذه الإشارة في مثل هذا السياق ذو علاقة بكون القرآن نازلاً من السماء إلى الأرض ، وهذا هو المقسم عليه في هذا الموضع . وقد أشرت في غير موضع إلى أن هذا الارتباط بين ذكر القرآن الكريم والسماء والأرض يتكرر في غير موضع من القرآن الكريم ، وبخاصة في مواضع القسم [١].

---

(١) انظر على سبيل المثال : ماورد من ذلك في تفسير القسم بـ (القرآن المجيد) في صدر سورة (ق) ، ص ٤٢٦ من هذا البحث . وتأمل قوله تعالى : (والسماء ذات الرجع . والأرض ذات الصدع . إنه لقول فصل . .) سورة الطارق الآيات ١١-١٣؛ فقد أقسم بالسماء والأرض في صورة من صور العلاقة بينهما على أن هذا القرآن قول فصل وماهو بالهزل . ولايخفى على المتتبع اطراد هذه العلاقة في البيان القرآني .

ومن ناحية أخرى تتسق صورة القسم مع ماتقدمت الإشارة إليه في الموضع السابق ، من كثرة التنويه بالقرآن وحكاية مقولات المشركين فيه ، في سورة الزخرف التي سبقت هذه السورة ، وما صاحب ذلك من شيوع لفظ الكتاب ، ووصف المبين فيها .

ويرى البقاعي أن افتتاح سورة الدخان - ومنه القسم - يناسب ماختمت به سورة الزخرف على وجه الخصوص ؛ وذلك أنه « لما ختمت الزخرف ببشارة باطنة ونذارة ظاهرة ، وكان ما بشر به سبحانه من علم العرب وسلامتهم من غوائل ما كانوا فيه مستبعداً افتتح هذا [١] بمثل ذلك مقسماً عليه فقال : (والكتاب) أي الجامع لكل خير (المبين) أي البين في نفسه ، الموضح لما تقدم من دقيق البشارة لأهل الصفاء والبصارة، وواضح النذارة بصريح العبارة »[٢].

وكما يناسب القسم السياق الذي مضى في آخر سورة الزخرف ، وفي سورة الزخرف كلها ، يناسب أيضاً السياق القرآني الذي مضى في عدة سور سبقت سورة الدخان ، وفي ذلك يقول ابن الزبير : « لما تضمنت سورة حم السجدة وسورة الشورى من ذكر الكتاب العزيز ما قد أشير إليه مما لم تنطو سورة غافر على شيء منه ، وحصل من مجموع ذلك الإعلام بتنزيله من عند الله وتفصيله وكونه قرآناً عربياً إلى ما ذكر تعالى من خصائصه إلى قوله : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسئلون ﴾[٣] وتعلق الكلام بعد هذا بعضه ببعض إلى آخر السورة ، افتتح تعالى سورة الدخان بما يكمل ذلك الغرض ، وهو التعريف بوقت إنزاله إلى سماء الدنيا فقال تعالى : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة ﴾ ثم ذكر من فضلها فقال : ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ فحصل وصف الكتاب بخصائصه والتعريف بوقت إنزاله إلى سماء الدنيا ، وتقدم الأهم من ذلك في السورتين قبل ، وتأخر التعريف بوقت إنزاله إلى سماء الدنيا إذ

---

(١) أي الكلام الذي بدئت به سورة الدخان .

(٢) نظم الدرر ١٨/١ ، ٢ .

(٣) سورة الزخرف ، الآية ٤٤ .

ليس في التأكيد كالمتقدم »[١].

وفي كلام ابن الزبير مايكشف عن دقة وقوع هذا القسم في صدر سورة الدخان ، فهو واقع في موقع يناسب السياق الذي تقدمه في السور السابقة في القضية المتحدث عنها ، بل إنه يقع في الترتيب – من حيث الأهمية – في المكان اللائق به .

وثمة علاقة بين ما جاء في صدر هذه السورة (الدخان) من القسم بالكتاب المبين والاحتفاء بتنزيله على نحو يظهر الجد في أمره ، وبين ما جاء في سياق السورة من ذكر كثير من مواقف أولئك المستهزئين الذين وصفتهم الآيات بعد القسم بأنهم (... في شك يلعبون) ؛ فقد جاء الحديث عن مقولاتهم الدالة على وقوفهم موقف الاستهزاء من الرسول ﷺ ورسالته ، ومن ذلك قوله سبحانه : ﴿ **ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون** ﴾[٢]، وتبع ذلك عرض لقصة قوم فرعون الذين وقفوا موقفاً مماثلاً من الآيات البينات التي جاء بها موسى عليه السلام [٣] ، ثم عادت الآيات إلى الحديث عن استهزاء المكذبين من قوم النبي ﷺ بما جاء في هذا الكتاب من الإخبار عن البعث [٤]، وعقب على ذلك بما يدل على أن هذا الموقف موقف من يظن أن الأمر غير قمين بالجد والاهتمام؛ فقال سبحانه: ﴿ **وما خلقنا السموات والأرض ومابينهما لاعبين * ماخلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لايعلمون** ﴾ [٥] ، وأتبع ذلك بالوعيد الشديد لهذه الفئة المستهزئة [٦].

وتلا ذلك ذكر أشد هؤلاء استهزءاً وأبعدهم عن الجد ، وهو أبو جهل الذي روي

(١) نظم الدرر ٣/١٨ ، ٤ .
(٢) سورة الدخان ، الآية ١٤ . وانظر الآيات : ٩ – ١٧ .
(٣) انظر الآيات : ١٧ – ٣٣ .
(٤) انظر الآيات : ٣٤ – ٣٧ .
(٥) الآية ٣٨ ، ٣٩ .
(٦) انظر الآيات : ٤٠ – ٤٢ .

عنه أنه «كان يأتي بالتمر؛ فيقول: تزقموا فهذا الزقوم الذي يعدكم به محمد»[١]، وهو الذي قال : « أيوعدني محمد ؟ والله إني لأنا أعز من بين جبليها » [٢]، فأنزل الله تعالى فيه هذه الايات التي وردت في هذه السورة في قوله سبحانه: ﴿ **إن شجرة الزقوم * طعام الأثيم * كالمهل يغلي في البطون * كغلي الحميم * خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم * ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم * ذق إنك أنت العزيز الكريم * إن هذا ماكنتم به تمترون** ﴾ [٣].

فهذه المواقف الدالة على استهزاء أصحابها بآيات الله تعالى ووعده ووعيده الذي حواه الكتاب المبين ذات صلة بما افتتحت به السورة من القسم المشتمل على إظهار الجد في شأن الكتاب المبين والرسالة التي تضمنها ، وهذا وجه من وجوه العلاقة بين القسم والسياق العام للسورة التي ورد فيها .

وكما شاع وصف (المبين) في سورة الزخرف لكونه الوصف الذي وصف به المقسم به في صدرها ، شاع هنا أيضاً في سياق سورة الدخان وصف (المبين) الذي وصف به كذلك المقسم به في صدرها ؛ فأول ذلك وصف الدخان به في قوله سبحانه : ﴿**فأرتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين**﴾[٤] ، ثم وصف به الرسول ﷺ في قوله تعالى: ﴿ **أني لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين** ﴾[٥]، ووصف به ماجاء به موسى عليه السلام من الآيات بأنه سلطان مبين في قوله عز وجل : ﴿ **وأن لاتعلوا على الله إني آتيكم بسلطان مبين** ﴾[٦] ، وقال سبحانه في وصف مافي هذه

---

(١) لباب النقول في أسباب النزول ص ١٩٠ .

(٢) أسباب النزول ، للواحدي ص ٤٣٦ .

(٣) سورة الدخان ، الآيات ٤٣ – ٥٠ .

(٤) الآية ١٠ .

(٥) الآية ١٣ .

(٦) الآية ١٩ .

الآيات من الإبانة والحجة : ﴿ **وآتيناهم من الآيات مافيه بلاء مبين** ﴾(١). وهذا تناسق بديع بين وصف المقسم به وما في السورة من شيوع هذا الوصف .

ولما كان القسم بالكتاب المبين في مطلع السورة مشيراً إلى أن فيه من الوضوح والإبانة مايدفع إلى الإيمان به لكونه عربياً نزل بلسانهم ، وكان ذلك وارداً في سياق تعظيمه وتكريمه بما أشار إليه من إنزاله في أعظم الأوقات وأشرفها - ختمت السورة بالإشارة إلى أن هذا القرآن إنما جعل قرآناً عربياً بلسان الرسول المبعوث ليتذكروا وليتدبروا ، فقال سبحانه : ﴿ **فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون * فارتقب إنهم مرتقبون** ﴾(٢) . وهذا تناسب بديع بين القسم في مطلع السورة والخاتمة التي ختمت بها .

ومما يزيد هذا التناسب روعة وفخامة أن السياق في أول السورة -عقب القسم- قد انتقل من الإخبار عن شكهم في ذلك الكتاب المبين إلى الأمر بارتقاب العذاب ؛ فقال سبحانه : ﴿ **بل هم في شك يلعبون * فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين** ﴾(٣)، وانتقل مثل هذا الانتقال في خاتمة السورة أيضاً - بعد ذكر الغاية من كونه مبيناً - معبراً بالفعل نفسه : (فارتقب إنهم مرتقبون) . فهذا التناغم العجيب يصل السياق الذي ورد فيه القسم في أول السورة بآخرها ، على نحو يربط بين دلالات السياقين ويوثق صلة القسم وعناصره بسياق السورة كلها .

وبعد ، فقد أبانت الصفحات السابقة وجه اختيار عناصر هذا القسم في هذا الموضع وصلتها بالمقسم عليه ، ومناسبتها للمقام والخطاب ، وللسياق الخاص الذي وردت فيه ، وللسياق العام في سورتها ، بل مناسبتها أيضاً للسياق الذي تقدم في بعض السور التي سبقتها مما له صلة بمضمون القسم . وكل ذلك يشير إلى أن صورة

---

(١) الآية ٣٣ .

(٢) الآية ٥٨ ، ٥٩ .

(٣) الآية ٩ ، ١٠ .

القسم تتسق مع كل ذلك اتساقاً تاماً يكشف عن دقة اختيارها في الموقع الذي جاءت فيه ، ولا يزال في كل جانب من هذه الجوانب مايضيق المقام عن رصده وإثباته .

الباب الرابع
القسم بأسماء المخلوقات

يتناول هذا الباب القسم بأسماء المخلوقات في القرآن الكريم، وقد جاء هذا النوع من القسم القرآني على ضربين ، اقتضيا تناوله في فصلين :

الفصل الأول : قسم الله تعالى بأسماء المخلوقات : ولكثرة مواضع هذا النوع، اخترت منه للدراسة قسم الله تعالى بأشرف مخلوقاته وهو عمر الرسول ﷺ ، وقسمه سبحانه بـ ﴿ السماء ذات الحبك ﴾ ، وبـ ﴿النجم إذا هوى﴾ ، و ﴿ بمواقع النجوم ﴾؛ فهذه مواضع أربعة دللت بها على النحو الذي يمكن أن تدرس على هديه المواضع الأخرى من هذا النوع.

الفصل الثاني : قسم المخلوقين بالمخلوقات : ولم يرد إلا في موضع واحد، وهو قسم السحرة بعزة فرعون فيما جاء من قصتهم مع موسى عليه السلام في سياق سورة الشعراء.

وسأقف فيما أتناوله في الفصلين من مواضع، على عناصر الأسلوب فيها ، وعلاقتها بعضها ببعض، وخصوصية اختيار الصورة القسمية في تأكيد المقسم عليه، وعلاقتها بالموقع الخاص للقسم، وبالسياق العام للسورة التي ورد فيها ، إلى غير ذلك من خصوصيات بناء الأسلوب في مواقعه المختلفة.

الفصل الأول

قسم الله تعالى بأسماء المخلوقات

الموضع الأول : القسم بعمر الرسول ﷺ :

قوله تعالى : ﴿ **لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون** ﴾ [١] .

يرد هذا القسم في سياق ما جاء من قصة لوط عليه السلام في سورة الحجر ؛ وذلك أن الملائكة جاءوا إليه عليه السلام لإهلاك قومه ، ﴿ **وجاء أهل المدينة يستبشرون * قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون * واتقوا الله ولاتخزون * قالوا أولم ننهك عن العالمين * قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين * لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون * فأخذتهم الصيحة مشرقين** ...) [٢] .

والقسم هنا صادر من الله تعالى يخاطب به نبيه محمداً ﷺ ؛ روى الطبري عن ابن عباس قوله : « ماخلق الله وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم على الله من محمد ﷺ وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره ؛ قال الله تعالى ذكره : (لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون) » [٣] . وقال الزجاج : « هذه الآية آية عظيمة في تفضيل النبي عليه السلام ... جاء في التفسير أنه قسم بحياة محمد ﷺ ، كذلك أكثر التفسير » [٤] ، ويقول ابن العربي : « قال المفسرون بأجمعهم أقسم الله تعالى ها هنا بحياة محمد ﷺ تشريفاً له ، أن قومه من قريش في سكرتهم يعمهون وفي حيرتهم يترددون » [٥] ، ويقول ابن القيم : « أكثر المفسرين من السلف والخلف - بل لايعرف عن السلف فيه نزاعاً ، أن هذا قسم من الله بحياة رسوله ﷺ . وهذا من أعظم فضائله أن يقسم الرب عز وجل بحياته . وهذه مزية لاتعرف لغيره » [٦] .

---

(١) سورة الحجر ، الآية ٧٢ .

(٢) سورة الحجر ، الآية ٦٧ - ٧٣ . وانظر القصة كاملة في الآيات : ٦١ - ٧٧ .

(٣) تفسير الطبري ٣٠/١٤ ، وانظر : تفسير البغوي ٥٥/٣ ، وتفسير ابن كثير ٥٥٥/٢ ، والتبيان في أقسام القرآن، ص ٢٦٩ ، والدر المنثور ٨٩/٥ ، ٩٠ .

(٤) معاني القرآن وإعرابه ١٨٣/٣ .

(٥) أحكام القرآن ١١٣٠/٣ ، وانظر : تفسير القرطبي ٣٩/١٠ .

(٦) التبيان في أقسام القرآن ص ٢٦٩ .

وهذا هو رأي جمهور المفسرين [١] .

وخالف الزمخشري إجماع المفسرين [٢] ؛ « فصرف القسم إلى أنه بحياة لوط وأنه من قول الملائكة ، فقال : هو على إرادة القول ، أي قالت الملائكة للوط عليه الصلاة والسلام : لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون » [٣] .

ولم ير ابن العربي مانعاً من أن يكون القسم هنا بحياة لوط عليه السلام وقال - معقبا على رأي الجمهور - « وهذا كلام صحيح ، ولا أدري ما الذي أخرجهم عن ذكر لوط إلى ذكر محمد ، وما الذي يمنع أن يقسم الله بحياة لوط ، ويبلغ من التشريف ماشاء ، فكل مايعطي للوط من فضل ؛ ويؤتيه من شرف فلمحمد ضعفاه ؛ لأنه أكرم على الله منه . أو لاتراه قد أعطى لإبراهيم الخلة ، ولموسى التكليم ، وأعطى ذلك لمحمد ، فإذا أقسم الله بحياة لوط فحياة محمد أرفع ، ولايخرج من كلام إلى كلام آخر غيره لم يجر له ذكر لغير ضرورة » [٤] .

ومن هذا يتضح أن من يرى أن القسم هنا بحياة لوط عليه السلام يعول في ذلك على مجيء هذا القسم في سياق قصة لوط عليه السلام ، فلا يسوغ عنده صرف الخطاب إلى محمد ﷺ ؛ وقد رَدَّ ابن القيم على ذلك بقوله : « وليس في اللفظ مايدل على واحد من الأمرين ، بل ظاهر اللفظ وسياقه إنما يدل على مافهمه السلف » [٥] أي أن الخطاب هنا لرسولنا ﷺ .

وقال الألوسي - يرد هذا الرأي - « وهو مع مخالفته للمأثور محتاج لتقدير

---

(١) انظر المصادر السابقة ، وانظر كذلك على سبيل المثال : تفسير البيضاوي ص ٣٤٩ ، وتفسير الخازن (ضمن مجمع التفاسير ٥٧١/٣) ، وفتح القدير ١٣٨/٣ ، وروح المعاني ٧٢/١٤ .

(٢) انظر الكشاف ٣٩٦/٣ .

(٣) انظر : التبيان في أقسام القرآن ص ٢٦٩ .

(٤) أحكام القرآن ١١٣٠/٣ . وانظر : تفسير القرطبي ٣٩/١٠ ، ٤٠ ، وفتح القدير ١٣٨/٣ .

(٥) التبيان في أقسام القرآن ص ٢٦٩ .

القول أي : قالت الملائكة للوط عليه السلام : (لعمرك) الخ ، وهو خلاف الأصل - وإن كان سياق القصة شاهداً له وقرينة عليه فلا يرد ما قاله صاحب الفرائد من أنه تقدير من غير ضرورة ، ولو ارتكب مثله لأمكن إخراج كل نص عن معناه بتقدير شيء ؛ فيرتفع الوثوق بمعاني النص" [١] .

وما ذكره الألوسي هنا حسن ، غير أن القسم هنا يمكن أن يكون قسماً بحياة لوط عليه السلام صادراً من الله تعالى ، ولايحتاج فيه إلى تقدير قول ، ويكون في القسم بلوط عليه السلام زيادة تعظيم وتشريف للرسول ﷺ من الجهة التي ذكرها ابن العربي ، ولكن هذا مردود بما أجمع عليه المفسرون وبما جاء في مأثور التفسير .

ومما سبق يعرف أن القسم في هذا الموضع صادر من الله تعالى ، وأنه - وإن كان وارداً في سياق قصة لوط عليه السلام - قسم بحياة محمد ﷺ ؛ ومعنى هذا أنه قسم معترض في هذه القصة ، ولمجيئه في موقع الاعتراض دلالات سيأتي بيانها .

أما المقسم به في هذا الموضع فهو عمر الرسول ﷺ : (لَعَمْرُكَ) ؛ و « العَمْرُ والعُمْرُ بمعنى واحد ؛ فإذا استعمل في القسم فتح أوله لاغير ... ، وإنما آثروا الفتح في القسم لأن الفتح أخف عليهم ، وهم يكثرون القسم بلعمرى ، ولعمرك ، فلما كثر استعمالهم إياه لزموا الأخف عليهم ... وقال النحويون ارتفع لعمرك بالابتداء والخبر محذوف ، المعنى : لعمرك قسمي ، ولعمرك ما أقسم به ، وحذف الخبر لأن في الكلام دليلاً عليه » [٢] . وجملة القسم هنا - كما هو واضح - جملة اسمية ، ولم تأت كذلك إلا في هذا الموضع كما أشرنا إلى ذلك من قبل [٣] ، وفيما سواه جاءت جملة القسم في جميع القرآن الكريم على نسق الجملة الفعلية .

وتفسير المقسم به - كما أثبته المفسرون -: وحياتك يامحمد وعمرك وبقائك في

---

(١) روح المعاني ٧٢/١٤ .

(٢) معاني القرآن وإعرابه ، للزجاج ١٨٣/٣ ، ١٨٤ .

(٣) انظر ص : ٤٦ من هذا البحث .

الدنيا ، وقيل : لعيشك [١] ، وقيل : معناه : « وحقك على أمتك ، تقول العرب : لعمر الله لا أقوم ، يعنون : وحق الله » [٢] . والمشهورفي العمر أو العمر أنه اسم لمدة عمارة بدن الإنسان بالحياة والروح [٣] ؛ وعلى هذا فإن المقسم به هنا هو حياة الرسول ﷺ وبقاؤه وعيشه ومدته التي قضاها في الدنيا ، فكل ذلك داخل في معنى المقسم به . ولم يرد في غير هذا الموضع القسم بالرسول ﷺ أو بما يضاف إليه [٤] .

أقسم الله تعالى بهذا على قوله : ﴿ **إنهم لفي سكرتهم يعمهون** ﴾ ، ومعنى قوله (سكرتهم) : ضلالتهم وجهالتهم [٥] ؛ شبه ذلك بالسكرة [٦] ، والسكرة - كما يقول ابن عاشور - « مشتقة من السكر - بفتح السين - وهو السد والغلق .

---

(١) تفسير الطبري ٣٠/١٤ ، وزاد المسير ٤٠٨/٤ ، وتفسير ابن كثير ٥٥٥/٢ .

(٢) زاد المسير ٤٠٨/٤ .

(٣) انظر : المفردات في غريب القرآن ص ٥١٨ ، وتفسير الخازن (ضمن مجمع التفاسير ٥٧١/٣) .

(٤) نقل الفيروز ابادي في كتابه (بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ١٨ ٨/٦) عن المعيني في تفسيره : أن الله تعالى أقسم بخمسين شيئاً من ذات الرسول صلى الله عليه وسلم وصفاته وأحواله ، على تأويل بعيد لبعض آيات القسم بأسماء المخلوقات أو بالقرآن أو بالحروف المقطعة - عند من يرى كونها قسماً - ، ولغير ذلك من الآيات التي لاتشتمل على قسم ، ولقد سلك في جميع ذلك مسلكاً ظاهر التكلف والغرابة لايستند إلى شيء من التفسير بالمأثور ، بل يعارض كثيراً منه .

وقد لفت محقق الجزءين الخامس والسادس من الكتاب الأستاذ عبدالعليم الطحاوي (في الجزء السادس ص ٨) لفت إلى أن كثيراً مما ورد في هذه البصائر لايخلو من « شوائب الاسرائيليات التي تسربت إليها عن طريق النقل من كتب الأقدمين ، الذين أحسنوا النية فتقبلوا من الرواة والكاتبين بدون تحرز ولا تدقيق ... » .

أقول : ولهذا لايصح - عندي - أن الله تعالى أقسم برسوله صلى الله عليه وسلم أو بشيء مما يضاف إليه إلا في هذا الموضع الذي ذكرته ، وثمة موضع آخر يحتمل القسم وهو قوله تعالى : (وقيله يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون) سورة الزخرف الآية ٨٨ .

(٥) تفسير الطبري ٣٠/١٤ ، وتفسير البغوي ٥٥/٣ ، وتفسير ابن كثير ٥٥٥/٢ .

(٦) إعراب القرآن ، للنحاس ، ٣٨٧/٢ .

وأطلقت هنا على الضلال تشبيهاً لغلبة دواعي الهوى على دواعي الرشاد بذهاب العقل وغشيته » [١] ، وقيل المراد : غوايتهم أو شدة غلمتهم التي أذهبت عقولهم وتمييزهم بين الخطأ الذي هم عليه والصواب الذي يدعون إليه [٢] . قال ابن القيم : « وإنما وصف الله سبحانه اللوطية بالسكرة لأن سكرة العشق مثل سكرة الخمرة ، كما قال القائل :

سكران : سكر هوى ، وسكر مدامة ومتى إفاقة من به سكران ؟ » [٣]

ثم قال سبحانه : ﴿ **يعمهون** ﴾ أي : يترددون ويتحيرون [٤] ، والعمه - كما يقول الراغب - « التردد في الأمر من التحير » [٥] .

والمتحدث عنهم هنا - كما هو واضح من النصوص السابقة - هم قوم لوط ، أي أن الضمائر في المقسم عليه لهم ، وهذا قول بعض المفسرين [٦] ، وذهب الطبري إلى أن الضمائر هنا لقريش قوم الرسول ﷺ ، وهو مروي عن ابن عباس [٧] ، والخلاف في هذا متصل بالخلاف في العمر المقسم به، وتردده بين الرسول ﷺ ولوط عليه السلام ؛ ولهذا ذهب البقاعي إلى أن المراد بذلك قوم لوط إن كان الخطاب للوط عليه السلام ، وقوم الرسول ﷺ إن كان الخطاب له عليه الصلاة والسلام ، ووصف الأخير بأنه هو الظاهر [٨] .

---

(١) التحرير والتنوير ٦٨/١٤ .

(٢) الكشاف ٣٩٦/٣ ، وتفسير أبي السعود ٨٦/٥ .

(٣) التبيان في أقسام القرآن ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ .

(٤) تفسير الطبري ٣٠/١٤ ، وتفسير البغوي ٥٥/٣ ، وتفسير ابن كثير ٥٥٥/٢ .

(٥) المفردات في غريب القرآن ص ٥٢٠ .

(٦) انظر : المصادر السابقة للنصوص المشار إليها ، وانظر أيضاً على سبيل المثال : الكشاف ٣٩٦/٣ ، وزاد المسير ٤٠٩/٤ ، والقرطبي ٤٠/١٩ .

(٧) انظر : تفسير الطبري ٣٠/١٤ ، والبحر المحيط ٤٦٢/٥ ، وروح المعاني ٧٣/١٤ .

(٨) نظم الدرر ١١/ ٧٥ ، ٧٦ .

والأقرب إلى السياق أن الحديث هنا عن قوم لوط عليه السلام ، ولايمنعه كون الخطاب لرسولنا ﷺ - كما أجمع عليه المفسرون - ، ومن جهة أخرى فإن خطاب الرسول ﷺ بهذا الكلام يجوز أن يدخل في المقصود به قومهمن كفار قريش ، وعلى هذا فإن في السياق والألفاظ مايتيح إرادة الفريقين معاً بجامع مخالفة الرسل والانغماس في الضلال ، وبجامع آخر يظهر من تشابه موقفي قوم لوط وكفار قريش فيما حكى من أحوالهم في هذه السورة خاصة ، وسيأتي بيانه في صلة القسم بسورته ·

وقد جاء في هذه الآية : (لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون) من أساليب التوكيد ماقل أن يجتمع في جملة قصيرة كهذه ؛ ففيها القسم بحياة الرسول ﷺ صادراً من الله تعالى - وذلك غاية في التوكيد وحده - ثم ترى فيها جواب القسم مؤكداً بـ : إن واللام ، واسمية الجملة ، وتشبيه جهلهم وضلالهم بالسكر بجامع ذهاب العقل في كل ، وفيها الاستعارة التبعية في الحرف : (لفي سكرتهم) وهي تدل على تمكنهم من هذه السكرة تمكن الظرف من المظروف ، ثم ترى أن هذه السكرة قد أضيفت إليهم : (سكرتهم) في صورة لغوية تفصح عن تميز هذه السكرة وتفردها ، وتشير إلى اختصاصهم بجنس من السكرة لايشاركهم فيه أحد فهم فيه نوع وحدهم ، وفي ذلك إشارة إلى أنهم قد بلغوا في الضلال مبلغاً لايبلغه أحد غيرهم ، ثم يتبع ذلك بوصف حالهم في هذه السكرة في قوله (يعمهون) أي : يتحيرون ، ويستعمل هنا الفعل المضارع للدلالة على تجدد ذلك واستمراره منهم وعدم اعتدادهم بالنصح مرة بعد أخرى ، وفي التعبير بالمضارع أيضاً استحضار لصورة المتحدث عنهم أمام المخاطبين تشهيراً بهذا الفعل الدنيء ومبالغة في اللفت إليه في صورة مشاهدة مستمرة ·

ثم إذا فرغت من تتبع العناصر المؤكدة هنا رأيت الآية - فوق ذلك كله - واقعة موقعاً يضاعف من قوة هذه المؤكدات ، وذلك أن لاعتراضها في قصة لوط عليه السلام دلالة على أهميتها ودرجة الاحتفاء بها ، والاعتراض من مواقع تأكيد

الكلام [١] ، وذلك أن المتكلم لايخرج من كلام إلى كلام - قد يبدو في الظاهر خارجاً عنه - إلا لداع قوي ذي أهمية تستأهل أن يلتفت إليه [٢] ، وأن يلفت إليه المخاطب ويجعله عنده أولى بالاهتمام والإصغاء ، فإذا كان هذا شأن الاعتراض وحده فكيف وقد ضمنه ماسبق إيضاحه من إجتماع أقوى عناصر التأكيد ؟ !

وفي مجيء التعبير على هذا النحو الذي تتحد فيه دلالة عناصر القسم المؤكدة وموقعه - وهو الاعتراض - لفت قوي جداً إلى بلوغ المتحدث عنهم الغاية في القبح والدناءة والبعد عن الصواب ، وذلك أن هذا القسم يأتي بعد أن ساقت الآيات قبله موقف قوم لوط - عليه السلام - من الملائكة الذين نزلوا في ضيافته ، وإصرارهم على محاولة الاعتداء عليهم ، وهو أمر مستقبح ومنكر في ذاته ، فكيف به وقد عزموا عليه مع من وجب له الإكرام والرعاية ، ثم كيف به وهو يصدر منهم في هذا الموقف مع هؤلاء الضيوف المخصوصين، الذين علم من سياق القصة كونهم من الملائكة ؛ وفي هذا الخطاب أيضاً المبالغة في إظهار التعجب من ضلالهم الذي يتحيرون فيه ، والمبالغة في الإنكار عليهم والإشعار بقبح صنيعهم .

ويقول سيد قطب في بيان الغرض من القسم في هذا السياق : « بينما المشهد البشع معروض على هذا النحو المثير يلتفت السياق خطاباً لمن يشهد ذلك المشهد على طريقة العرب في كلامهم بالقسم ... لتصوير حالتهم الأصلية الدائمة التي لا يرجى معها أن يفيقوا ولا أن يسمعوا هواتف النخوة والتقوى والفطرة السليمة » [٣] .

---

(١) قال ابن جني في باب الاعتراض : « وهو جار عند العرب مجرى التأكيد » .
انظر : الخصائص ١/٣٣٥ .

(٢) من البلاغيين من يسمى الاعتراض التفاتا ؛ انظر على سبيل المثال : نقد الشعر لقدامة ص ١٥٠ ، وإعجاز القرآن للباقلاني ص ٩٩ ، والعمدة لابن رشيق ٢/٤٥ ، والمصباح لابن مالك ص ٩٩ ، والرسالة العسجدية للصغاني ص ١٤٦ .

(٣) في ظلال القرآن ٤/٢١٥٠ .

ويفهم من كلامه أنه يجعل الخطاب هنا لكل من يشهد ذلك المشهد ، وهو تفسير جيد ، ويستفاد منه أن هذا الحال الذي بلغوه ظاهر في الضلال بحيث يدركه كل أحد حتى ليصح أن يخاطب كل من يتأتى له الخطاب باللفت إليه في أسلوب يشبه التقرير، فكأن في قوله : (لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون) - على عموم الخطاب - معنى : ألا ترى أنهم في سكرتهم يعمهون ، إنهم كذلك دون ريب .

وفي الآية أيضاً من دواعي التأكيد مايتعلق بالمخاطب الخاص وهو الرسول ﷺ ، وذلك أن الله تعالى يخاطبه بهذا الخطاب القوي المشتمل على مايثير انتباه المخاطب، ويزيد من احتفائه بالكلام ، ويظهر اهتمام المتكلم بكلامه - ليلفته عليه الصلاة والسلام إلى هذا الموقف العصيب الذي واجهه لوط عليه السلام من قومه ، ولينبهه إلى مافيه من الدلالة على أن في الأقوام السابقة من هم أبعد ضلالاً وكفراً من قومه ﷺ ، تسلية له وتصبيراً على ما كان يلقاه منهم من أذى .

وما في القسم من معنى التسلية له عليه الصلاة والسلام ذو صلة وثيقة بما جاء في أول هذه السورة من رمي كفار قريش الرسول ﷺ بالجنون ، وسؤاله أن يأتيهم بالملائكة ، وهو ما جاء في قوله تعالى : ﴿ **وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون * لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين * ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذاً منظرين** ﴾ (١) ، فهذا الموقف من جنس موقف قوم لوط في جرأتهم على رسل الله وملائكته ، وهذا يؤكد - أيضاً - كون المقسم عليه حديثاً عن الفريقين معاً .

وتفسير ذلك - كما لحظه البقاعي - أن هذه الآية تؤكد على أن هؤلاء الكافرين « في خبط بعيد عن السنن في طلبهم إتيان الملائكة كما كان قوم لوط عليه السلام يقصدون الالتذاذ بالفاحشة بمن مكن من هلاكهم ، فشتان مابين القصدين ، وهيهات لما بين الفعلين ! فصار المعنى أن ماقذفوك به أول السورة بهم لا بك ، لأن من يطلب

(١) سورة الحجر ، الآيات ٦ - ٨ .

إتيان الملائكة – مع جواز أن يكون حاله حال قوم لوط عليه السلام عند إتيانهم – هو المجنون » [١] .

وفي هذا مايوضح الصلة الدقيقة التي تربط هذا القسم بالسياق العام للسورة التي ورد فيها ، وهي صلة تؤكد أن لكل قسم في القرآن موقعه الخاص الذي لايمكن بحال أن يحل فيه غيره . وسنأتي على وجوه أخرى تربط هذا القسم بسورته .

ونعود إلى الغرض من القسم لنربط بينه وبين اختيار القسم بعمر الرسول ﷺ ؛ فهذا المقسم به قد اختير القسم به – كما تقدم في كلام بعض المفسرين – لتشريف الرسول ﷺ وتعظيمه وتكريمه ، وقد ذكر ابن القيم في كتابه « الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان » ذكر « القَسَم » بوصفه القِسْمَ الثاني عشر من الأقسام المختصة بالمعاني ، وقال في تعريفه : « وهو أن يقسم في كلامه بشيء لم يرد به تأكيد كلامه ولا تصديقه وإنما يريد به بيان شرف المقسم به وعلو قدره عنده » [٢] . وذكر من أمثلته هذه الآية التي يقسم الله تعالى فيها « بحياة نبيه ﷺ ليعرف الناس عظمته عنده ومكانته لديه » [٣] .

وفي كتاب « التبيان في أقسام القرآن » علل ابن القيم للقسم بعمر الرسول ﷺ بأنه« عمر شريف عظيم أهل أن يقسم به ، لمزيته على كل عمر من أعمار بني آدم ، ولاريب أن عمره وحياته ﷺ من أعظم النعم والآيات فهو أهل أن يقسم به . والقسم به أولى من القسم بغيره من المخلوقات [٤] » [٥] .

وهذا حق ؛ إذ لاشك في شرف الرسول ﷺ ومكانته عند الله تعالى حتى يقسم

---

(١) نظم الدرر ٧٦/١١ .

(٢ ، ٣) انظر : ص ١١٦ ، ١١٧ .

(٤) أي من الله تعالى ؛ أما من الخلق فلا يجوز القسم إلا بالله ؛ بهذا علق على النص مصحح الكتاب ، انظر هامش ص ٢٦٩ من كتاب التبيان في أقسام القرآن .

(٥) انظر : ص ٢٦٩ .

به ويكرمه ويخصه بهذا الفضل العظيم ، ولكن هذا التعليل - وأمثاله مما مضى في كلام المفسرين - إنما يفسر وجه اختيار القسم بـ (عمر الرسول ﷺ) ، دون تفسير وجه اختصاص هذا الموقع بالقسم به ، وصلته بالمقسم عليه في هذا الموطن .

ولتفسير العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه في هذه الآية والسياق الذي ورد فيه القسم ، نتأمل الغرض الذي ذكره المفسرون في اختيار القسم بعمره ﷺ ، وهو التكريم والتعظيم ، في ضوء ارتباطه بالغرض الذي أشار إليه المقسم عليه ، وهو تسلية الرسول ﷺ ، وذلك أن هذا العمر المكرم هو محل مشقة وجهاد وإيذاء الرسول ﷺ في مواجهته لقومه ؛ فأقسم به على أنهم في سكرتهم يعمهون إذ يؤذونك ويجابهونك بالتكذيب والاستهزاء ، وفيه تعريض بموقف هؤلاء الكافرين - مقابلاً بموقف قوم لوط - وأنهم في صنيعهم هذا في سكرة لايدرون معها من هذا الذي يؤذون ويعذبون ، ولايدرون على من يجترئون ، وأي جرم يفعلون ؟ ! ؛ فهم في هذه الجرأة عليك كقوم لوط في جرأتهم على رسل الله تعالى وملائكته .

ومن هنا فإن قيمة القسم بـ (عمر الرسول ﷺ) هنا لاتنحصر في مجرد تشريف المقسم به ، بل تتجاوز ذلك إلى جعل هذا التشريف وسيلة تسلية للنبي ﷺ ، وتقريعاً للمشركين الذين أمعنوا في إيذائه وهو من هو في رفعة قدره وشأنه عند الله تعالى ، وأن شأنهم في هذا شأن قوم لوط .

ونتأمل المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه في هذا المقام - أيضاً - في ضوء ماذكر قبل قليل من قيمة وسائل التأكيد التي اشتملت عليها الآية في تبشيع فِعْلَة قوم لوط ، ومن يشابههم ؛ وذلك أن في القسم بعمر الرسول ﷺ - بما فيه من علو الشرف ورفعة المكانة - تعريضاً بخسة مسلك قوم لوط وقومه ﷺ ودناءة فعلهم مع أنبياء الله تعالى ورسله .

وعلى هذا فالمناسبة بين طرفي القسم - من هذا الوجه - تقوم على التضاد بين الرفعة والشرف والنقاء والطهارة والخلق العظيم وهو مايعبر عنه المقسم به ،

والانحطاط والخسة والحقارة والخلق الحقير الدنيء وهو مايشير إليه المقسم عليه ، ليتم بذلك اللفت إلى الفرق الشاسع بين ذلك المثل الشريف من الحياة الرفيعة ، وهذا المثل الدنيء الخسيس من الحياة الوضيعة ، ولهذا جاء التعبير عن هذا الفرق الذي لا مجال فيه للموازنة والمقارنة في صورة ضمت أقوى الأساليب تأكيداً وترسيخاً ولفتاً وتنبيهاً .

ولهذه المقابلة التي هيأتها صورة الأسلوب القسمي غرض توجيهي يقوم على الترغيب في الاقتداء بالخصال الحميدة التي تسم العمر بميسم الشرف والعلو ، والتحذير من الخصال الذميمة التي تهوي به إلى أدنى الدرجات وأحطها .

وقد جاء هذا القسم - كما ذكرنا - معترضاً فيما ورد من قصة قوم لوط - عليه السلام - في هذه السورة ، سورة الحجر ، وقد اختص به هذا الموقع دون غيره من المواقع التي وردت فيها هذه القصة في القرآن الكريم [١] ، وبخاصة ما ورد منها في سورة هود [٢] على الرغم من التشابه الكبير بين أحداث القصة وتفاصيلها في السورتين ، وسنقف هنا على بعض مايفسر اختصاص القصة في سياق سورة الحجر بهذا القسم دون ماجاء منها في سورة هود .

وقد سبقت الإشارة إلى أن لهذا القسم وما فيه من وصف حال قوم لوط، صلة بحال كفار قريش في سؤالهم إنزال الملائكة ، وهو ما ورد ذكره في أول سورة الحجر ، وتقدم بيان صلة القسم - من هذا الوجه - بالسياق العام للسورة ، ويمكن أن يعتد بهذه الصلة في تفسير اختصاص القصة في سورة الحجر بهذا القسم .

---

(١) وردت قصة لوط - عليه السلام - في القرآن الكريم في المواضع التالية :
في سورة الأعراف ، الآيات ٨٠ - ٨٤ ، وسورة هود ، الآيات ٧٧ - ٨٣ ، وسورة الحجر ، الآيات ٦١ - ٧٧ ، وسورة الأنبياء ، الآيات ٧٤ ، ٧٥ ، وسورة الفرقان ، الآية ٤٠ ، وسورة الشعراء ، الآيات ١٦٠ - ١٧٥ ، وسورة العنكبوت ، الآيات ٢٨ - ٣٥ ، وسورة الصافات ، الآيات ١٣٣- ١٣٨ ، وسورة الذاريات ، الآيات ٣١ - ٣٧ ، وسورة النجم ، الآيات ٥٣ - ٥٥ ، وسورة القمر ، الآيات ٣٣ - ٤٠ .
وقد تفاوت عرض هذه القصة في كل من هذه السور بين الإيجاز والتفصيل .

(٢) انظر الآيات ٧٧ - ٨٣ من سورة هود .

على أننا نجد مثل ذلك أيضاً في سورة هود ، وذلك أن في أولها ذكر طلب كفار قريش إنزال الملك ، وهو قوله تعالى : ﴿ **فلعلك تارك بعض مايوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء قدير** ﴾ (١) . وورود الحديث عن هذا الموقف الخاص من كفار قريش في صدر كل من السورتين يرسخ صلة هذه الأجزاء المسوقة من قصة لوط في السورتين بالسياق العام في كل منهما .

ومعنى هذا أن السياق العام في سورة هود يتيح - أيضاً - أن يرد فيه القسم الوارد في سورة الحجر . ولكن الناظر إلى الإخبار عن موقف كفار قريش في طلبهم هذا في كل من السورتين ؛ يدرك أن موقفهم في سورة الحجر أشد غلظة وأكثر جرأة على الرسول ﷺ ، وأكثر إبانة عن بعدهم عن الصواب ، وذلك أنهم هنا يرمونه بالجنون ، ويسألونه إتيانهم بالملائكة - على سبيل الاستهزاء - لتنزل بهم العذاب الذي يتوعدهم به ، قال تعالى : ﴿ **وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون * لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين * ماننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذاً منظرين** ﴾ (٢) ؛ فلا يرجي ممن يصدر عنه هذا القول الاهتداء ، على حين كان سؤالهم لذلك في سورة هود أخف درجة مما في سورة الحجر ، وجاء كذلك بمعزل عن سؤال العذاب ؛ لأنه طلب لمجيء الملائكة مؤيدين لرسالته ، فهو أقل جرأة وتحدياً وأقرب إلى الاهتداء ، وإن كان الطلب نفسه في السورتين يدعو إلى الضيق والحزن الشديد .

وعلى هذا فإن طلب الكفار إنزال الملائكة في سورة الحجر من أجل إنزال العذاب ؛ جاء على نحو استوجب اتحاد هذا الطلب في جرأته وقبحه، وعدم رعيه لمقام النبوة ولعظمة المرسل سبحانه - مع قوم لوط ، فناسبه مجيء القسم في قوله تعالى :

---

(١) سورة هود ، الآية ١٢ .

(٢) سورة الحجر ، الآيات ٦ ، ٧ ، ٨ .

(لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون) ، ولم يكن في سورة هود مايدعو إلى ذلك لاختلاف جهة هذا الطلب ، وهذا يفسر العلاقة الدقيقة بين هذا القسم وقصة قوم لوط في سورة الحجر ، لأن في سياق هذه السورة مايهيء لصدور هذا القسم واعتراضه فيما جاء فيها من هذه القصة .

ويمكن النظر إلى وجه اختصاص القصة في سورة الحجر بمجيء هذا القسم - أيضاً - من خلال تأمل بعض الفروق التعبيرية بين أسلوبي عرض القصة في السورتين : هود والحجر . ومن ذلك أن هذا القسم الواصف لحال قوم لوط يأتي في قصة سورة الحجر عقب الجزء الخاص الذي يظهر فيه بلوغ قوم لوط منتهى السكرة والضلال ، فقد جاء بعد تكرر النهي من لوط عليه السلام في قوله : ﴿ **قال إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون * واتقوا الله ولاتخزون** ﴾ [١] وليس في قصة سورة هود مثل هذا التكرار في نهيه لهم ، بل اكتفى بذكر ذلك مرة واحدة في قوله سبحانه حكاية عن لوط : ﴿ ... **فاتقوا الله ولاتخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد** ﴾ [٢] ، وجاء في قصة الحجر بعد تكرر نهيه لهم قولهم له : ﴿ ... **أولم ننهك عن العالمين** ﴾ [٣] وهو قول يدل على تكرار نصح لوط لقومه وتكرار نهيه لهم عن الرذيلة حتى تكرر نهيهم له عن الحيلولة دون مايشتهون ، أي أن ذلك يدل على أن هذا الفعل قد تكرر منهم واشتهر على الرغم من تكرر نصح لوط لهم ، وفي ذلك مايزيد من بشاعة صنيعهم ، على حين كان لوط عليه السلام فيما حكته سورة هود يحاولهم بأسلوب أكثر تلطفاً ومداراة .

واختصاص قصة سورة الحجر بأسلوب التأكيد في النهي والمنع يتناسب مع مجيء خبر كونهم ملائكة مرسلين من الله تعالى- في أول القصة- لأن القصة في الحجر تبدأ

(١) سورة الحجر ، الآيات ٦٨ ، ٦٩ .

(٢) سورة هود ، الآية ٧٨ .

(٣) سورة الحجر ، الآية ٧٠ .

بقوله سبحانه : ﴿ **فلما جاء آل لوط المرسلون * قال إنكم قوم منكرون قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون** ...﴾ (١)، فكان هذا أدعى إلى أن يؤكد نهيه لهم ويبالغ في منعهم؛ استحياء من الملائكة أو خوفاً من سوء مايمكن أن يصيب قومه .

أما قصة سورة هود فقد جاء الإخبار فيها عن حقيقة هؤلاء الضيوف بعد حدوث محاولة قومه الاعتداء على ضيفه ، في قوله سبحانه : ﴿ **قالوا يالوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك** ... ﴾ (٢) ، ولهذا كان نهيه ومنعه لهم أكثر احتياطاً ومداراة لأن موقفه النفسي في هذا السياق أكثر توتراً وهو ما عبر عنه بالآيات : ﴿ **ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب** ﴾ (٣) ، ﴿ ... **أليس منكم رجل رشيد** ﴾ (٤) ، ﴿ **قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد**) (٥) .

فلما كان بناء القصة في سورة الحجر يقتضي التشديد في التأكيد على نهيهم ومنعهم ، وكان منهم - مع ذلك - التصميم على فعلهم ؛ كان هذا السياق أكثر ملاءمة لمجيء القسم على كونهم : في سكرتهم يعمهون ، وعلى هذا فقد هيأت هذه الخصائص التعبيرية التي وجدت في سياق القصة في سورة الحجر - في ترتيبها وأسلوبها - لظهور هذا القسم فيها دون سورة هود التي لا يناسب سياقها - مع مافيه من قوة التعبير عن ضيق لوط عليه السلام - وورود مثل هذا القسم ، لأن السياق في صورة الحجر يهيء - بما سبق في أول القصة من بيان حقيقة ضيف لوط وبما في عرض هذه القصة من الخصائص - للتعبير عن عظم بشاعة هذا الضلال وقوة تمكن المتحدث عنهم فيه .

---

(١) سورة الحجر ، الآيه ٦١ - ٦٣ .

(٢) سورة هود ، الآية ٨١ .

(٣) سورة هود ، الآية ٧٧ .

(٤) سورة هود ، الآية ٧٨ .

(٥) سورة هود ، الآية ٨٠ .

وبهذا يتضح اختصاص هذا الموقع من سورة الحجر بهذا القسم من جهة التناسب بين هذا السياق الخاص من السورة والقسم في خصائص التعبير وطريقة العرض ، ومن جهة ارتباط هذا السياق بالسياق العام للسورة ، وعلى هذا يختص هذا الموقع بهذا القسم من جميع الوجوه .

ويأتي هذا القسم- ايضاً- متساوقاً مع قسم آخر وارد في السورة وهو قوله تعالى : ﴿ **فوربك لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعملون** ﴾ ، ويمكن النظر إلى ارتباط القسمين أحدهما بالآخر من جهة أنهما قد وردا معاً في سياق تسلية الرسول ﷺ ،والتخفيف عنه ،والتلطف في خطابه ، ففي القسم بعمره ﷺ تحقيق لتكريم الله تعالى له ،وتفخيمه لشأنه ، وفي إضافة اسمه سبحانه إلى ضميره ﷺ - أيضاً - تكريم وتفخيم ، وفي ورود هذين القسمين على هذا النحو من التناسب والترابط في التركيب والدلالة تناغم يقوي غرضاً ظاهراً من أغراض هذه السورة وهو تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام .

وبعد ؛ فقد جاء هذا القسم مناسباً في عناصره وأساليبه للمقسم عليه ، وموضوع القسم ، والمخاطب به ، والمتحدث عنهم ، وجاء صورة ناطقة بالأمر المعبر به عنه ، وجاء كذلك مناسباً للسياق الخاص الذي ورد فيه ، والسياق العام للسورة التي ورد فيها ، وتناغم مع أغراض السورة وأساليبها وبخاصة مع القسم الآخر الوارد فيها .

الموضع الثاني : القسم بـ (السماء ذات الحبك) :

يأتي هذا القسم بعد قسم افتتحت به سورة الذاريات وهو قوله تعالى : ﴿ والذاريات ذرواً * فالحاملات وقراً * فالجاريات يسراً * فالمقسمات أمراً * إنما توعدون لصادق * وإن الدين لواقع * والسماء ذات الحبك * إنكم لفي قول مختلف * يؤفك عنه من أفك ﴾[١] ؛ فبعد أن أقسم الله تعالى بالصفات المتعدّدة على صدق البعث والجزاء ابتدأ قسماً آخر أقسم فيه سبحانه بمقسم به واحد هو : السماء ذات الحبك .

وقد أقسم الله تعالى بالسماء في خمسة مواضع من القرآن الكريم[٢] ، واختلفت صورة المقسم به في كل منها ، وتنوّعت قيوده وأوصافه ، باختلاف وتنوّع المواقع ، والسياقات ، والعلاقات بين عناصر الأسلوب ؛ فتارة يرد القسم بالسماء وحدها ـ كما في هذا القسم والقسم الذي صدّرت به سورة الطارق ـ وتارة يرد القسم بأسماء أشياء متعددة من بينها السماء ـ كما في بقية المواضع الخمسة وهي ثلاثة ـ أمّا القيود والأوصاف فترينا السماء ذات حبك ـ كما في هذا القسم ـ وذات بروج كما في قوله تعالى: ﴿ والسماء ذات البروج ﴾[٣].وذات رجع كما في قوله سبحانه : ﴿ والسماء ذات الرجع ﴾[٤] ، وفي مواضع أخرى يقترن القسم بالسماء بذكر أمر متعلق بها تصله بها الواو كما في قوله سبحانه : ﴿ والسماء والطارق ﴾[٥] ، وقوله سبحانه : ﴿ والسماء وما بناها ﴾[٦] ومن الأهمية بمكان بيان خصوصيات كل هذه الصور القسمية التي تذكر فيها السماء ، ووجه تنوعها ، وجهة

---

(١) سورة الذاريات ، الآيات ١ ـ ٩ .

(٢) على الترتيب : في سورة الذاريات ، الآية ٧ ، وسورة البروج ، الآية ١ ، وسورة الطارق ، الآية ١ ، ١١ ، وسورة الشمس ، الآية ٥ .

(٣) سورة البروج ، الآية ١ .

(٤) سورة الطارق ، الآية ١١ .

(٥) سورة الطارق ، الآية ١ .

(٦) سورة الشمس ، الآية ٥ .

اختصاص كل موقع بالصورة التي وردت فيه ، ويعنينا في هذا الموضع ما ورد فيه القسم بالسماء وحدها دون أن يكون معها مقسمٌ به آخر ، ونبدأ بما شرعنا فيه القول وهو القسم بـ (السماء ذات الحبك) .

والسماء المقسم بها هنا موصوفة بأنها (ذات الحبك) ، وفي تفسير هذا الوصف في اللغة يقول الفرّاء : « الحبك تكسّر كل شيء ، كالرملة إذا مرت بها الريح الساكنة ، والماء القائم إذا مرت به الريح ، والدرع درع الحديد لها حبك أيضاً ، والشعرة الجعدة تكسُّرها حبك ، وواحد الحبك : حباك ، وحبيكة »[١] وقال الطبري في تفسيره : « والسماء ذات الخلق الحسن ، وعنى بقوله : ذات الحبك ، ذات الطرائق .... »[٢] ، ويقول الزجاج : « جاء فى التفسير أنها ذات الخلق الحسن ، وأهل اللغة يقولون ذات الحبك ذات الطرائق الحسنة ، والمحبوك في اللغة ما أجيد عمله ، وكل ما تراه من الطرائق في الماء وفي الرمل إذا أصابته الريح فهو حبك »[٣] ، وذكر ابن القيم مثل ذلك ثم قال : « والمقصود بهذا كله ما أفصح به ابن عباس ، فقال : يريد الخلق الحسن . وروى سعيد بن جبير عنه قال : الحبك حسنها واستواؤها ، وقال قتادة : ذات الخلق الشديد . وقال مجاهد : متقنة البنيان . وقال أيضاً : ذات الطرائق ولكنها بعيدة من العباد فلا يرونها ، كحبك الماء إذا ضربته الريح ، وكحبك الرمل ، وكحبك الشعر .... »[٤] .

وكل ما تقدم يدلّ على أنّ المراد بالسماء هنا كل ما دخل تحت هذا اللفظ من معنى السماء المعروفة المعهودة بما فيها من طرائق وأطباق ، ووصفها بأنها ذات الحبك بالمعاني التي سبقت يدلّ على ذلك دلالة واضحة ، « وأطباق السماء يقال لها

---

(١) معاني القرآن للفراء ٣/٨٢ .

(٢) تفسير الطبري ٢٦/١١٧ .

(٣) معاني القرآن وإعرابه للزجّاج ٥/٥٢ .

(٤) التبيان في أقسام القرآن ، ص ١٧٧ ، ١٧٨ .

طرائق قال الله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق ﴾[١] »[٢] ، وهي السبع الشداد التي قال فيها سبحانه : ﴿ وبنينا فوقكم سبعاً شداداً ﴾[٣] ، وعلى هذا فلا وجه لما ذهب إليه الفراهي من تخصيص معناها بالسحاب ؛ لأن السماء ـ كما يقول ـ تطلق على معان ومنها السحاب ، وهو المراد عنده ، وقد استدلّ على ذلك بأمور أخرى منها : أن القسم السابق كان بالرياح ـ يريد قسم الذاريات ـ والمناسبة بين الرياح والسحاب أظهر ، وقد ذكرا معاً في مواضع ، وأنّ المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه تقتضي ذلك ، وأنّ الوصف بذات الحبك يدل عليه لأن السحاب يوصف به[٤] .

والذي أراه أنّ المراد بـ (السماء ذات الحبك) السماء كلها بما فيها من سحاب ونجوم وكواكب ومدارات ومجرات وطباق وخلق حسن شديد متقن ؛ لأن اللفظ المقسم به يدل ـ في كلام المفسرين ـ على جميع ذلك ، وكذلك الوصف الذي أتبع به ، فمعنى المقسم به متعلق بكل هذه الأشياء ، لا بواحد منها ، على أننا يمكن أن نتأمل العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه في ضوء الدلالة المطلقة للمقسم به ، أو في ضوء دلالته على واحد مما يشمله اللفظ المقسم به كالسحاب مثلاً ، ويكون هذا مقبولاً إذا وجدت المناسبة الخاصة بينه وبين المقسم عليه ، وتعدد العلاقات بين عنصري القسم يزيد من قوة تأكيد المقسم به للمقسم عليه .

وقوله تعالى : (إنكم لفي قول مختلف) هو المقسم عليه[٥] . وفي تفسير

---

(١) سورة المؤمنون ، الآية ١٧ .

(٢) المفردات في غريب القرآن ، ص ٤٥٢ .

(٣) سورة النبأ ، الآية ١٢ .

(٤) تفسير الفراهي المسمى (نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان ـ مخطوط) سورة الذاريات . نقلاً عن (القسم في القرآن الكريم) ، لخالد سيفي ـ رسالة ماجستير ـ مكة المكرمة ـ جامعة أم القرى ـ كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، ١٤٠٢ ـ ١٤٠٣ هـ) .

(٥) انظر : معاني القرآن للفراء ٨٣/٣ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢٣٦/٤ ، والتبيان في أقسام القرآن ص ١٧٨ .

المراد به يقول الطبري : « إنكم أيها الناس لفي قول مختلف في هذا القرآن فمن مصدق به ومكذب »[(١)] . وقيل : القول المختلف هو أقوالهم في القرآن وفي النبي صلى الله عليه وسلم من السحر والكهانة والشعر والجنون والكذب « وهو خرص كلُّه. فإنهم لما كذّبوا بالحق اختلفت مذاهبهم ، وآراؤهم ، وطرائقهم ، وأقوالهم ، فإنّ الحق شيء واحد وطريق مستقيم فمن خالفه اختلفت به الطرق والمذاهب »[(٢)] .

وعلى هذا يكون الخطاب إمّا للناس كافة ، فيقسم لهم الله سبحانه على كونهم في قول مختلف في القرآن أو الرسول فمنهم المؤمن ومنهم الكافر و وإمّا للكافرين وحدهم ويكون القسم هنا على كونهم في قول مختلف متناقض ، وفي ضمن هذا الجواب ـ كما يقول ابن القيم ـ بيان بطلان أقوالهم وتناقضها ، وتكذيب بعضها بعضاً ، بسبب تكذيبهم بالحق[(٣)] . لكنّ الظاهر عند أبي حيان « أنه خطاب عام للمسلم والكافر كما أنّ جواب القسم السابق يشملهما »[(٤)] يريد أنّه لما كان المقسم عليه ـ في القسم الذي تقدّم وهو قوله سبحانه : ﴿ إنما توعدون لصادق * وإن الدين لواقع ﴾[(٥)] ـ شاملاً للمؤمنين والكافرين ، كان الخطاب الوارد في القسم الذي بعده شاملاً لهما أيضاً ، وهذا وجه يؤيده السياق . ويجوز أن يراد معه الوجه الآخر لصحة معناه ، ولا تعارض بينهما .

وأمّا قوله سبحانه : ﴿ يؤفك عنه من أفك ﴾ ؛ فمعناه : « يصرف عن القرآن والإيمان من صُرف »[(٦)] ، « وقيل يصرف عن القول أي من أجله لأنهم كانوا يتلقّون الرجل إذا أراد الإيمان فيقولون له : سحر وكهانه فيصرف عن

---

(١) تفسير الطبري ١١٨/٢٦ ، وانظر : معاني القرآن للفراء ٨٣/٣ .

(٢) التبيان في أقسام القرآن ص ١٧٨ ، ١٧٩ ، وانظر : إعراب القرآن للنحاس ٢٣٦/٤ .

(٣) التبيان في أقسام القرآن ص ١٧٩ .

(٤) البحر المحيط ١٣٤/٨ .

(٥) سورة الذاريات ، آية ٥ ، ٦ .

(٦) معاني القرآن للفراء ٨٣/٣ ، وانظر : معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٥٢/٥ .

الإيمان »[١] وذكر ابن القيم مثل هذا القول فهو يرى أن (عن) ههنا فيها طرف من معنى التسبيب أي : يصرف بسبب ذلك القول المختلف من صرف[٢] . أي من صرف عن الإيمان . وهذا على أن القول المختلف اختلافهم في القرآن والرسول صلى الله عليه وسلم إلى أقوال متضاربة ، فإن كان المعنى اختلاف الناس إيماناً وكفراً ـ كما سبق بيانه ـ كان المعنى : يصرف بسبب ذلك الإختلاف من صرف إمّا عن الإيمان إلى الكفر ، وإمّا عن الكفر إلى الإيمان . وعلى هذا يكون تفسير هذه الآية مبنياً على تفسير المقسم عليه فيكون داخلاً فيما أقسم عليه تعالى لعلاقته به .

وقد أكد المقسم عليه بمؤكدات متنوعة ؛ فبالإضافة إلى المقسم به ، أكدّه بإنّ ، واللام في (لفي) ، وجعل المخاطبين في القول المختلف كما يُجعل الظرف في المظروف لتأكيد نسبته إليهم ، وعبر عن ذلك بالجملة الاسمية لبيان ثباتهم على هذا الاختلاف ورسوخهم فيه .

ويرى البقاعي أنّ الإخبار عن وهي كلامهم قد أكدّ بالقسم وجعل « مقسماً عليه لمبالغتهم في تأكيد مضامينه مع التناقض بفعله الجميل وصنعه الجليل ، إشارة إلى أنّهم لم يتخلقوا من أخلاقه الحسنى بقول أو فعل »[٣] . وهذا الملحظ محمول على كون المقسم عليه اختلاف أقوال الكافرين في القرآن وفي الرسول صلى الله عليه وسلم وتضاربها ، إذ لا ترتبط برابط ولا تنضبط بضابط . وهو ملحظ يظهر قوة ودقة الدلالة التي يؤديها التوكيد القسمي وما صحبه من المؤكدات في هذا السياق .

ويختلف الغرض من هذه المؤكدات باختلاف المخاطبين ، فإن أريد بذلك خطاب الناس كلهم مؤمنهم وكافرهم وإخبارهم بأنهم في قول مختلف ؛ فيكون الغرض لفت المؤمنين والكافرين معاً إلى أنّ اختلاف القول هو الموجب الرئيس لاختلاف الجزاء الذي ورد ذكره في القسم الذي تقدم ، وهو قسم الذاريات وما تلاها من صفات ،

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/٢٣٦ .

(٢) التبيان في أقسام القرآن ص ١٧٩ .

(٣) نظم الدرر ١٨/ ٤٥٠ .

ولهذا احتفي به وأظهر في صورة مؤكدة . وإن أريد خطاب الكافرين وحدهم فيكون الغرض من تلك المؤكدات قوة اللفت إلى حقيقة هامة وهي أن اختلافهم في الحق وهو طريق واحد أفضى إلى تفرق السبل بهم إلى تلك المذاهب والأقوال المتناقضة الباطلة المتعارضة ، فأكد هذه الحقيقة وأظهر أهميتها بوقوعها مقسماً عليها أولاً ، ثم بما شمله الإخبار عنها من مؤكدات .

والمناسبة بين المقسم به والمقسم عليه ـ في ما تقدم من تفسيرهما ـ تبدو غير ظاهرة ، فبين عنصري القسم من التباعد والاختلاف ما لا يدرك معه وجه الجمع بينهما في قسم واحد إلا بضرب من التأمل وإعمال الفكر ؛ فما الذي يربط بين السماء ذات الحبك وإثبات أن الناس جميعاً أو الكافرين منهم في قول مختلف ؟!

وقد تأمل بعض المفسرين العلاقة بين عنصري هذا القسم ؛ فذكروا وجوهاً من الارتباط تختلف باختلاف تفسير المقسم به والمقسم عليه ؛ فمن ذلك ما ذهب إليه البيضاوي من تفسير لهذه العلاقة على جهة المشابهة بين المقسم به وهو السماء ذات الطرائق المختلفة والمتباعدة ، والمقسم عليه مراداً به اختلاف أقوال الكافرين وتناقضها وتباعد ما بينها ، وذلك قوله « ولعل النكتة في هذا القسم تشبيه أقوالهم في اختلافها وتنافي أغراضها بالطرائق للسموات في تباعدها واختلاف غاياتها »[(١)] .

وبمثل هذا ربط البقاعي بين القسم بالسماء وذات الحبك وإثبات اختلاف أقوال الكافرين وتباعدها فيما بينهم ، ثم فيما بينها وبين أفعالهم ؛ فقال : « ...(إنكم) يامعشر قريش (لفي قول) محيط بكم في أمر القرآن والآتي به وجميع أمر دينكم وغيره مما تريدون به إبطال الدين الحق (مختلف) كاختلاف طرائق السماء التي لاتكاد تنتظم ، ولا يعرف أولها من آخرها ، واختلاف هذه الأشياء المقسم بها من أول السورة واختلاف غاياتها .... »[(٢)] .

---

(١) تفسير البيضاوي ص ٦٩٠ .

(٢) نظم الدرر ١٨/٤٥١ .

وعلى هذا يكون القسم في هذا الموضع من القسم بالمشبه به على المشبه ، ويكون الأسلوب القسمي في القرآن الكريم في بعض مواضعه ـ ومنها هذا الموضع ـ مفيداً ما يفيده أسلوب التشبيه من الإتيان بمشبه به يشارك المشبه في وجه من الوجوه ويترك بعد ذلك استنباط الغرض من اقترانهما في التركيب لمن يتأمل السياق والمقام الذي ورد فيه التشبيه . فالقسم في هذا الموضع يجمع في عنصريه بين أمرين يقوم بينهما من العلاقة ما يقوم بين عنصري التشبيه ، وهو ما يمكن أن نسميه قسماً تشبيهياً أو تشبيهاً قسمياً ، ومن الملاحظ هنا أن الذي يجمع اسلوبي القسم والتشبيه هو كونهما يشتملان على عنصرين يؤتى بأحدهما لتأكيد الآخر وتحقيق معناه أياً كان الغرض المقصود بالقسم أو التشبيه . وهذا من تداخل الأساليب وتعاضدها في القرآن بخاصة ، وفي اللغة العربية بعامة .

ومن المفسرين من نظر إلى العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه في هذا القسم من جهة أخرى مبنية على مافي (السماء ذات الحبك) من معنى الاتساق وجودة الحبك ودقة الانتظام ، وإشارة ذلك إلى اضطراب أقوال الكافرين واختلافها ؛ فقد ذكر سيد قطب أن الله تعالى « يقسم بالسماء المنسقة المحبوكة على أنهم في قول مختلف مضطرب لا قوام له ولا قرار ولا ثبات له ولا استقرار ....

....

ويتضح اضطرابهم واختلافهم وما هم فيه من الأمر المريج : حين يعرض في ظل السماء ذات الحبك المنسقة التركيب »[1] . وواضح من هذا أن سيد قطب يبني العلاقة بين المقسم عليه والمقسم به على ما بينهما من التضاد ، وهو وجه يخالف الوجه الذي تقدم عند البيضاوي والبقاعي ، لكن السياق يقبله أيضاً ؛ لأن مفهوم المقسم به وهو (السماء ذات الحبك) كما يدل على الاختلاف والتباعد يدل أيضاً على الاتساق وحسن التركيب . ومن هذا يتضح أن المقسم به قد أكدّ معنى المقسم عليه بكلا معنييه على ما بينهما من تضاد ، وهذا نمط من البلاغة معجز ؛ فإنك

---

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٣٧٦ .

كيفما قلبت اللفظ في القرآن وجدت له دلالة ومغزى رئيساً متصلاً بدلالة الأسلوب الذي بني فيه .

وغير خافٍ مما سبق أن تفسير العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه يختلف باختلاف تفسير المقسم به ، ولهذا فسر الفراهي العلاقة بينهما في هذا القسم معتمداً على كون المراد بالسماء السحاب ، فذهب إلى أن القسم بالسماء ذات الحبك « إشهاد بالسماء الشتوية التي تكثر فيها الرعد والصاعقة ، وكونها أظهر في الإنذار والتخويف يبين شناعة استمرارهم في غفلة وغرور واختلاف ظنون ، كما جاء في قصة عاد : ﴿ فلمّا رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم به ، ريحٌ فيها عذاب أليم * تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين ﴾[(١)] فلم ينتهوا عن غفلتهم وقد جاءهم العذاب ورأوا آيته في السماء المقطعة السحب ذات الحبك »[(٢)] .

وليس ببعيد أن يكون بين عنصري القسم هنا هذه العلاقة التي ذكرها الفراهي ، بل إن المتأمل ليكاد يخرج من هذا بوجه آخر غير ما ذكر ، وذلك أن القسم بالسماء ذات الحبك (على معنى السحاب) في سياق ذكر اختلاف الناس في المقسم عليه ، فيه ما يشبه الإشارة إلى أن جزاءهم مختلف ، فقد يكون من جنس جزاء قوم عاد يوم أن رأوا السحاب فاختلفوا في أمره بين الرحمة والعذاب ، وذلك للكافرين ، وقد يكون سقيا رحمة ونعمة وذلك للمؤمنين .

وثمة وجه آخر من وجوه العلاقة بين عنصري القسم وذلك أن القول المختلف المقسم عليه بدلالته على الخير والشر والهداية والضلال إنما يكون من السماء لأن كل

---

(١) سورة الأحقاف ، الآية ٢٤ ، ٢٥ .

(٢) نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان ، للفراهي ، سورة الذاريات (مخطوط) . عن : القسم في القرآن الكريم ص ٣٤٧ ، ٣٤٨ .

ذلك بقضاء الله وقدره النازل من السماء ـ كما يقول ابن القيم[١] ـ وعلى هذا يكون قد أقسم على اختلاف الناس إلى مؤمنين وكافرين بالسماء ذات الحبك ، لأنها مصدر الخير والشر والهداية والضلال وهو القول لمختلف المقسم عليه . وعلى هذا يكون القسم هنا من باب القسم بالسبب على المسبب .

والقسم في هذا الموضع مناسب لسياقه الذي ورد فيه ، فقد تقدمه القسم بالذاريات وماتلاها في صدر السورة على البعث والجزاء في قوله سبحانه : ﴿ إنما توعدون لصادق * وإن الدين لواقع ﴾[٢] فذكر سبحانه في جواب القسم السابق نوعي الجزاء للمؤمنين والكافرين ، وهذا القسم قسم على اختلاف أحوال الناس في موقفهم من الرسالة ، ولهذا جاء عقب بيان اختلاف الجزاء .

ومن مناسبة القسم لسياقه الخاص ما جاء عقبه من تفصيل أقوال وأعمال الكافرين والمؤمنين[٣] ، فالسياق الذي ورد فيه هذا القسم يتحدث عن أحوال الفريقين ومواقفهم وما أعد الله تعالى لكل فريق .

وثمة ملامح في هذا القسم تربطه بالسمات العامة لسياق سورة الذاريات ؛ ونستطيع أن نرى بعض ذلك في اختيار المقسم به وهو : (السماء ذات الحبك) وعلاقة هذا الاختيار بما شاع في السورة من ارتباط معنيي النذارة والبشارة ، فهما معنيان يجريان في السورة من أولها إلى آخرها ، ولإيجاز ذلك نشير إلى ما في الرياح والسحاب والسفن والملائكة ـ وهي من موصوفات الأمور المقسم بها في صدر السورة ـ من ارتباط بالنذارة والبشارة ؛ فإن كلاً من هذه الأمور يمكن أن يكون نذير شر أو بشير خير ، وقد ورد في سياق السورة ما يؤكد ذلك فقد جاءت الملائكة لإبراهيم عليه السلام بالبشرى وكانت في الوقت نفسه تحمل العذاب لقوم لوط عليه السلام ، وكذلك شأن الأمور الأخرى في السورة فقد ذكر الله تعالى فيها كيفية هلاك

---

(١) في التبيان في أقسام القرآن : ص ٢٦٥ .

(٢) سورة الذاريات ، الآية ٥ ، ٦ .

(٣) انظر الآيات ١٠ ـ ١٩ من سورة الذاريات .

بعض الأمم بالغرق أو الريح أو الطوفان[١] ... وهذا كله يشير إلى النسق العام الذي بنيت عليه السورة ؛ فجاء المقسم به (السماء ذات الحبك) متفقاً مع هذا النسق بما فيه من الدلالات التي تقدم ذكرها .

ومن كل ما سبق يتضح وجه بناء هذا القسم على النحو الذي جاء عليه ، وصلة ذلك بالمقسم عليه ، والمقسم لهم ، واتساقه مع السياق الخاص الذي ورد فيه من سورة الذاريات ، ومع النسق العام الذي بنيت عليه السورة كلها .

---

(١) راجع السورة بتأمل .

الموضع الثالث : القسم بـ (النجم إذا هوى) :

قوله تعالى ﴿ والنجم إذا هوى * ما ضلّ صاحبكم وما غوى * وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى ﴾[١] .

يقسم الله تعالى بهذا القسم في صدر سورة النجم ، وهو ـ كما نرى ـ قسم بالنجم مقيداً بالهوى في قوله : (والنجم إذا هوى) . والجواب المؤكد بهذا القسم هو قوله سبحانه : (ما ضل صاحبكم وما غوى ...)[٢] إلى قوله (إن هو إلا وحيٌ يُوحى) . أما ما جاء بعد هذه الآية من الحديث عن جبريل عليه السلام في قوله تعالى ﴿ **علمّه شديد القوى * ذو مرة فاستوى * ...** ﴾[٣] وما تلاه من آيات ؛ فمتفرع عن الجواب لتفصيل أمر الوحي وأحواله . والقضية الرئيسة المؤكدة بالقسم هي إثبات أن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من القرآن ليس من الضلال أو الغواية وليس من عند نفسه ، بل ما هو إلا وحي يتلقاه من الله تعالى بوساطة جبريل عليهما السلام .

وواضح من الآيات أنّ القسم فيها موجه إلى الكافرين الذين اتهموا الرسول صلى الله عليه وسلم بالكهانة والسحر والجنون والشعر بعد سماعهم لما جاء به من الحق ، فـ « يحتمل أن يكون قوله (ما ضل) نفياً لقولهم : هو كاهن أو مجنون لأن الكهانة ... من مسيس الجن ، وقوله : ما غوى) نفي لقولهم هو شاعر والشعراء يتبعهم الغاوون »[٤] . وعلى هذا يكون قد ردّ في الجملة الأولى من الجواب على كل مقولاتهم المتناقضة في الرسول صلى الله عليه وسلم وفي القرآن الكريم .

---

(١) سورة النجم ، الآيات ١ ـ ٤ .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره : ٢٥/٢٧ . أما الجمل التالية لذلك إلى قوله : (إن هو إلا وحي يوحى) فظاهر من السياق أنها من الجواب ، وقد ذكرت في غير موضع أن جواب القسم قد يكون جملاً متعددة .

(٣) الآيات ٥ ، ٦ فما بعدها .

(٤) غرائب القرآن للنيسابوري (بهامش الطبري ـ ٣٢/٢٧) .

وقد اختلف المفسرون في تفسير النجم المراد هنا ، وأكثر ما ذكروا في ذلك قولان : (أحدهما) نجوم السماء . (والآخر) نجوم القرآن[١] .

فأما الأول ، وهو النجم السماوي المعروف ؛ فقد خصه بعضهم بالثريا وهو قول مجاهد ، واختاره الطبري « وذلك أن العرب تدعوها النجم »[٢] وذهب بعضهم ـ وهو مروي عن ابن عباس ـ إلى أن المراد به « الرجوم من النجوم ، يعني ما ترمي به الشياطين عند استراقهم السمع »[٣] . وأما الآخر وهو نجوم القرآن فيراد به كل نجم من القرآن كان ينزل على الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه كان ينزل منجماً أي مفرقاً .

واختلف في المراد بقيد المقسم به وهو قوله (إذا هوى) تبعاً لاختلاف المراد بالنجم ، فإذا كان المراد به النجم المعروف في السماء أو الثريا منه أو الرجوم ، فالمراد بالهُويّ فيه الطلوع والغروب أو السقوط أو الانتشار يوم القيامة ، وإذا كان المراد به نجوم القرآن فهويّها نزولها[٤] .

ويرى ابن القيم أن أظهر هذه الأقوال هو قول من ذهب إلى أنها الرجوم التي ترمي بها الشياطين ؛ إذ « ليس بالبيّن تسمية القرآن عند نزوله بالنجم إذا هوى ، ولا تسمية نزوله هوياً . ولا عهد في القرآن ذلك فيحمل هذا اللفظ عليه . وليس بالبين تخصيص هذا القسم بالثريا وحدها إذا غابت . وليس بالبين أيضاً القسم بالنجوم عند انتثارها يوم القيامة . بل هذا مما يقسم الربُّ عليه ويدل عليه بآياته ، فلا يجعله نفسه دليلاً ، لعدم ظهوره للمخاطبين ، ولا سيما منكروا البعث فإنه سبحانه إنما

---

(١) انظر تفصيل ذلك في : تفسير الطبري ٢٤/٢٧ ، ٢٥ ، والتفسير الكبير ٢٧٩/٢٨ ، وتفسير أبي السعود ١٥٤/٨ ، وروح المعاني ٤٥/٢٧ .

(٢) تفسير الطبري ٢٤/٢٧ .

(٣) تفسير البغوي ٢٤٤/٤ ، والتبيان في أقسام القرآن ص ١٥٢ .

(٤) تفسير أبي السعود ١٥٤/٨ ، وروح المعاني ٤٥/٢٧ .

استدل بما لا يمكن جحده ولا المكابرة فيه »[١] .

وأرى أن اللفظ يحتمل كل ما تقدم ذكره ، لأن القسم هنا بالنجم إذا هوى ؛ فكل نجم تصح فيه هذه الصفة مقصود هنا ، وقد تقدم من التفسير ما يدل على جواز إطلاق هذا اللفظ بقيده وهو الهوى على مطلق النجم ، وعلى الثريا منه ، وعلى الرجوم الساقطة على الشياطين ، أو المنتثرة يوم القيامة ، وعلى النجوم النازلة من القرآن . ولكل من هذه الأمور وجه اختصاص بالمقسم عليه ، وفي السياق ما يجعل القول به أمراً مقبولاً كما سيأتي بيانه . وعلى هذا فالقسم هنا بالنجم إذا هوى مطلقاً غير معين ، والمعاني التي ذكرها المفسرون إنما تؤخذ على وجه التمثيل لا التخصيص . وقد سلك ابن القيم نفسه هذا المسلك في تفسيره لكثير من الألفاظ المطلقة في القرآن الكريم[٢] . وكان الطبري يذهب إلى هذا في غير موضع من القرآن[٣] .

هذا تفسير المقسم به . أما المقسم عليه وهو قوله تعالى : ﴿ ما ضل صاحبكم وما غوى * وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى ﴾ ؛ فقد جاءت جمله الثلاث محققة للمضمون المراد إثباته بالقسم وهو كون القرآن وحياً من عند الله تعالى ، وذلك من وجوه متعددة في تفسير الألفاظ المختارة فيها .

ففي قوله سبحانه (ما ضل صاحبكم وما غوى) رد شامل لكل ما وصف به الكافرون القرآن أو الرسول صلى الله عليه وسلم كما سبق بيانه . وهذه الجملة وحدها كافية في الرد عليهم من جهة ما تضمنته من نفي الضلال والغواية وهما أمران تتعلق بهما أو بأحدهما كل تلك المقولات : من سحر وكهانة وجنون وشعر ، ومن جهة ما

---

(١) التبيان في أقسام القرآن ص ١٥٢ . وما ذكره من أن المقسم به لابد وأن يكون أمراً ظاهراً غير منكر ولا مجحود ليس بمطرد في القسم القرآني لأن الله تعالى قد أقسم في غير موضع بالقرآن الكريم وبيوم القيامة وهو مما ينكره المخاطبون . والسر في اختيار المقسم به دلالته على المقسم عليه بما يكون بينهما من علاقات ، ولهذا فإن الله تعالى يقسم بالأمر الأكثر توكيداً وتحقيقاً وتثبيتاً للمقسم عليه سواء أكان هذا المقسم به ظاهراً مشهوراً أم منكراً مجحوداً .

(٢) انظر على سبيل المثال تفسيره للشاهد والمشهود في كتابه : التبيان في أقسام القرآن ص ٥٧ .

(٣) في تفسير الطبري لبعض ألفاظ القسم مما يورده هذا البحث ما يؤيد ذلك .

تضمنه هذان النفيان (ما ضل ... وما غوى) من الشهادة للرسول صلى الله عليه وسلم بأنه على الهدى المنافي للضلال ، وعلى الرشاد المنافي للغي « فالهدى في علمه والرشاد في عمله ، وهذان الأصلان هما غاية كمال العبد ... ولا يشتبه الراشد المهدي بالضال الغاوي إلا على أجهل خلق الله ، وأعماهم قلباً ، وأبعدهم من حقيقة الإنسانية ... فالناس أربعة أقسام : (الأول) ضال في علمه غاو في قصده وعمله ... (الثاني) مهتد في علمه غاو في قصده وعمله ... (الثالث) ضال في علمه ، ولكن قصده الخير وهو لا يشعر . (الرابع) مهتد في علمه راشد في قصده . وهؤلاء ورثة الأنبياء ... »[١] ومعنى هذا أن إثبات صفتي الهداية والرشد للرسول صلى الله عليه وسلم تلفت أولئك المخاطبين إلى بعدهم هم عن الهداية والرشاد وإلى أنهم هم الضالون الغاوون ، ويزيد من تقريعهم التعبير عن الرسول صلى الله عليه وسلم بـ (صاحبكم) فإن فيه إيذاناً بوقوفهم على أحواله وأقواله وأعماله التي يعرفون منها أنه بعيد عن الغي والكذب والضلال[٢] ، وفي كل ذلك تأكيد لإقامة الحجة عليهم[٣] . وعلى هذا يكون نفي هاتين الصفتين مؤكداً لصدق الرسول صلى الله عليه وسلم في أمر الوحي وهو الأمر المقسم عليه ، أي أن في بناء الجملة الأولى في الجواب على هذا النحو زيادة تقرير وتوكيد للمقسم عليه .

وفي الجملة الثانية من المقسم عليه قال سبحانه : (وما ينطق عن الهوى) فنزّه نطقه صلى الله عليه وسلم عن الهوى ، « ولم يقل : وما ينطق بالهوى ؛ لأنّ نطقه عن الهوى أبلغ ، فإنه يتضمن أن نطقه لا يصدر عن هوى ، وإذا لم يصدر عن هوى فكيف ينطق به . فتضمّن نفي الأمرين ، نفي الهوى عن مصدر النطق ونفيه عن نفسه : فنطقه بالحق ، ومصدره الهدى والرشاد لا الغي والضلال »[٤] . فتأمل كيف

(١) التبيان في أقسام القرآن ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

(٢) انظر المصدر السابق ص ١٥٣ ، وتفسير أبي السعود ١٥٤/٨ .

(٣) التبيان في أقسام القرآن ص ١٥٣ .

(٤) المصدر السابق ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

أكدت هذه الجملة مضمون سابقتها بأسلوب مختلف عن الأول ، وكيف أن الجملتين تتعاضدان في تأكيد المعنى المقسم عليه . ثم تأمل التعبير بالفعل المضارع في (ينطق) فإن في ذلك تأكيداً لنفي النطق عن الهوى على جهة الاستمرار . وأضف إلى ذلك اختيار لفظ (الهوى) وما فيه من التناغم البديع مع قيد المقسم به في قوله (والنجم إذا هوى) وما في ذلك من الإشارة إلى أن سقوط المرء مع هوى النفس وما تأمره به من سوء كسقوط النجم من مكانته العلية إلى الأرض مع هلاكه واحتراقه . وهذا من أبدع التناغم لفظاً ومعنى بين عنصري القسم .

ثم تلا ذلك في جواب القسم قوله سبحانه : (إن هو إلا وحي يوحى) أي ما نطقه إلا وحي يوحى . وقال بعضهم ما القرآن إلا وحي يوحى[١] . واستحسن ابن القيم الأول لأنه يعم نطقه صلى الله عليه وسلم بالقرآن والسنة[٢] وقد بنيت هذه الجملة على أسلوب القصر وهو أبلغ وآكد في تحقيق المراد (إن هو إلا وحي يوحى ...) ثم حقق هذه الحقيقة بقوله (يوحى) وذلك أنه « ربما يقال للكلام الصادق الفصيح هو وحي أو سحر حلال فلما قيل يوحى اندفع التجوز »[٣] ، وفي هذه الكلمة أيضاً إفادة الاستمرار التجددي[٤] . وكما أكدت الجملة السابقة مضمون سابقتها ، فإنّ هذه الجملة تؤكد أيضاً ما قبلها وهو قوله سبحانه (وما ينطق عن الهوى) لأن في إثبات كون ما يتلوه عليهم وحياً من الله تعالى ـ تأكيداً وتقريراً لنفي نطقه به عن هوى[٥] . وهذا يزيد من تقرير المقسم عليه على وجه الإجمال .

ومما سبق يتضح أن جمل المقسم عليه تؤكد بتركيبها ونظمها كون ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وحياً من الله تعالى ، ووقوعها ـ مع ذلك ـ موقع الجواب المقسم عليه يزيد من قوة ذلك التوكيد الذي أفاده التركيب والنظم . وقد

---

(١) انظر : تفسير الطبري ٢٥/٢٧ ، والتبيان في أقسام القرآن ص ١٥٤ ، وتفسير البيضاوي ص ٦٩٧ .

(٢) التبيان في أقسام القرآن ص ١٥٤ .

(٣) غرائب القرآن (بهامش الطبري ٣٣/٢٧) .

(٤) انظر : تفسير أبي السعود ١٥٥/٨ .

(٥) انظر : دلائل الإعجاز ص ٢٣٠ ، ٢٣١ .

احتفى القرآن بإبراز هذه القضية وتوكيدها على النحو الذي سبق لأهميتها عند جميع المخاطبين ، وبخاصة أولئك الذين خوطبوا في هذا السياق فإنهم لمّا لم يجدوا في الموحى به من الذكر ما يقدح في ذاته من عيب أو نقص أو تناقض أو باطل ؛ لجأوا إلى التشكيك في مصدره مع علمهم بنزاهة الرسول صلى الله عليه وسلم وكماله في هداه ورشده ، فكان في إثبات حقيقة الوحي على نحو مؤكد غاية التأكيد مبالغة في تقريعهم وتوبيخهم على صنيعهم الذي لا يليق بالعقلاء .

وكل الذي تقدم ـ بما فيه من قوة التوكيد المشار إليه ـ لا يعدل ما يحققه البناء القسمي من دلالات تحقيقية تقوم على العلاقة بين المقسم به (النجم إذا هوى) والمقسم عليه وهو إثبات كون القرآن وحياً من عند الله تعالى وأن الرسول صلى الله عليه وسلم ينطق بالحق البعيد عن الضلال والغواية ، وهذه العلاقة تتنوّع بتنوع المراد بالمقسم به ، ولهذا فإن طرق تحقيق المقسم عليه تتعدد وتتكاثر مع أن القسم واحد ، وهذا من دلائل الإعجاز في هذا الكتاب العزيز . ولبيان ذلك سأعرض بعضاً من هذه العلاقات التي أشار إليها المفسرون أو تأملتها في هذا الموضع ممالم يذكره المفسرون .

فمن ذلك ما ذكره الرازي في تفسيره للنجم ؛ فقد ربط بين كل واحد من التفسيرات المتعددة للنجم المقسم به ، والمقسم عليه ؛ فقال : « أمّا على قولنا المراد الثريا فهو أظهر النجوم عند الرائي لأن له علامة لا يلتبس بغيره في السماء ويظهر لكل أحد والنبي صلى الله عليه وسلم تميز عن الكل بآيات بيّنات فأقسم به ، ... وعلى قولنا المراد هي النجوم التي في السماء للاهتداء ، نقول النجوم بها الاهتداء في البراري فأقسم الله بها لما بينهما من المشابهة والمناسبة ، وعلى قولنا المراد الرجوم من النجوم ، فالنجوم تبعد الشياطين عن أهل السماء والأنبياء يبعدون الشياطين عن أهل الأرض ، وعلى قولنا المراد القرآن فهو استدل بمعجزة النبي صلى الله عليه وسلم على صدقه وبراءته فهو كقوله تعالى : ﴿ يس * والقرآن الحكيم * إنك لمن المرسلين * على صراط مستقيم ﴾[1] ماضللت ولاغويت ، وعلى قولنا النجم

---

(١) سورة يس ، الآية ١ ـ ٤ .

هو النبات ، فنقول النبات به ثبات القوى الجسمانية وصلاحها والقوة العقلية أولى بالإصلاح ، وذلك بالرسل وإيضاح السبل ... »[١] . وجميع هذه المناسبات ظاهرة بين طرفي القسم ، وهي مما يزيد في تأكيد المقسم به للمقسم عليه ، وواضح فيها تباين طرق الاستدلال بالمقسم به على المقسم عليه وتنوع جهاته . وقد ذكر بعض هذه الوجوه أبو السعود والألوسي[٢] .

أمّا ابن القيم فقد تحدث عن وجه واحد من وجوه العلاقة بين عنصري القسم هنا ؛ لأنه يرى أن المراد بالنجم في هذا القسم رجوم الشياطين من النجوم ؛ فيكون سبحانه « قد أقسم بهذه الآية الظاهرة المشاهدة التي نصبها الله سبحانه آية وحفظاً للوحي من استراق الشياطين له على أنّ ما أتى بهالرسول حق وصدق لا سبيل للشيطان ولا طريق له إليه ، بل قد أحرس بالنجم إذا هوى رصداً بين يدي الوحي ، وحرساً له . وعلى هذا فالإرتباط بين المقسم به والمقسم عليه في غاية الظهور . وفي المقسم به دليل على المقسم عليه .. وبين المقسم به والمقسم عليه من التناسب ما لا يخفى ، فإن النجوم التي ترمي الشياطين آيات من آيات الله ، يحفظ بها دينه ووحيه وآياته المنزلة على رسوله ، بها ظهر دينه وشرعه وأسماؤه وصفاته وجُعلت هذه النجوم المشاهدة خدماً وحرساً لهذه النجوم الهاوية »[٣] . وهذا من أدق وجوه التناسب بين عنصري القسم لأنه بذلك يكون قد أقسم بآيات على آيات ، وبحارس على محروس ، فدل بذلك على عظمة الوحي وعظمة سلطان منزله ، وعلى سلامته من الزيادة أو النقصان ، وفيه إشارة تشبه ماذهب إليه الرازي قبل قليل ، فإن آيات القرآن ونجومه النازلة إلى الأرض تحمي أهلها من الشياطين كما تحمي تلك النجوم السماوية آيات القرآن في السماء . هذا على القول بأن النجوم هي الرجوم الراصدة للشياطين .

---

(١) التفسير الكبير ٢٧٩/٢٨ .

(٢) انظر : تفسير أبى السعود ١٥٤/٨ ، وروح المعانى ٤٥/٢٧ .

(٣) التبيان في أقسام القرآن ص ١٥٢ .

أما تقييد النجم بـ « إذا هوى » وفائدة القسم به على هذا النحو ؛ فقد ذكر الرازي له تفسيراً ذا صلة بالمناسبة بين عنصري القسم على الوجه الذي ذكره في العلاقة بينهما ؛ فقال : « النجم إذا كان في وسط السماء يكون بعيداً عن الأرض لايهتدي به الساري لأنه لا يعلم به المشرق من المغرب ولا الجنوب من الشمال ، فإذا زال تبين بزواله جانب المغرب من المشرق والجنوب من الشمال كذلك النبي صلى الله عليه وسلم خفض جناحه للمؤمنين وكان على خلق عظيم ... فإن قيل الاهتداء بالنجم إذا كان على أفق المشرق كالاهتداء به إذا كان على أفق المغرب فلم يبق ما ذكرت جواباً عن السؤال ، نقول الاهتداء بالنجم وهو مائل إلى المغرب أكثر لأنه يهدي في الطريقين الديني والدنيوي ، أما الدنيوي فكما ذكرنا ، وأما الديني فكما قال الخليل : (... لا أحب الآفلين)[١] وفيه لطيفة ، وهي أن الله لما أقسم بالنجم شرفه وعظمه وكان من المشركين من يعبده فقرن بتعظيمه وصفاً يدل على أنه لم يبلغ درجة العبادة فإنه هاوٍ آفل »[٢] .

ومعنى هذا أن وصف النجم بالهوي في المقسم به وهو ما يجعله هادياً يوافق ويناسب ما تتحقق به الهداية في الرسول صلى الله عليه وسلم من خفض الجناح والخلق الكريم ، بالإضافة إلى كون هذا القيد يشير إلى أن الهداية به عليه السلام هداية تشمل الطريقين الديني والدنيوي وتهدي إلى الفطرة السليمة وتحمي من العقائد الفاسدة المنحرفة عن هذه الفطرة .

ويرى أبو السعود أن هذا القيد ـ بالإضافة إلى ما فيه من الدلالة على تمام الاهتداء ووقت تحققه وهو وقت صعود النجم أو هبوطه ـ فيه كمال مناسبة « لما سيحكى من تدلي جبريل من الأفق الأعلى ودنوه منه عليهما السلام »[٣] . وهذا يشير إلى وجه من المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه يوضحه سيد قطب بقوله :

---

(١) سورة الأنعام ، آية ٧٦ .

(٢) التفسير الكبير ٢٧٩/٢٨ ، ٢٨٠ .

(٣) تفسير أبي السعود ١٥٤/٨ .

« وحركة تلألؤ النجم ثم هويه ودنوه . أشبه بمشهد جبريل المقسم عليه ﴿ وهو بالافق الأعلى * ثم دنا فتدلى * فكان قاب قوسين أو أدنى * فأوحى إلى عبده ماأوحى ﴾[(١)] وهكذا يبدأ التناسق والتوافق في المشهد والحركة والظل والإيقاع منذ اللحظة الأولى»[(٢)] وبهذا يكون المقسم به هنا قد اختير ليلائم أيضا صفة نزول الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم بوساطة جبريل عليه السلام .

ويتحدث ابن عاشور عن المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه من جهة أخرى ، فيذكر أن « مناسبة القسم بالنجم إذا هوى أنّ الكلام مسوق لإثبات أنّ القرآن وحي من الله منزل من السماء فشابه حال نزوله الاعتباري حال النجم في حالة هويّه مشابهة تمثيلية حاصلة من نزول شيء منير إنارة معنوية نازل من محل رفعة معنوية شبه بحالة نزول نجم من أعلى الأفق إلي أسفله وهو من تمثيل المعقول بالمحسوس »[(٣)] .

أي أن المقسم به وهو نزول الوحى من السماء وهو أمر معقول يشبه نزول النجم من السماء وهو من الأمور المحسوسة ، وعلى هذا فبين عنصري القسم مشابهة بجامع مافيهما من النزول والإنارة والرفعة . أما على كون المشبه هو جبريل فيكون هذا كما يقول ابن عاشور ـ من باب تشبيه المحسوس بالمحسوس[(٤)] ، وفي كلا الوجهين يكون المراد بهالنجم المعروف في السماء .

ويذكر الأستاذ عثمان أبو النصر تفسيراً آخر للمناسبة بين المقسم به والمقسم عليه، فيذكر أن الله تعالى قد أقسم هنا « بالنجم » والنجوم آية من آياته الدالة على قدرته ﴿ وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ... ﴾[(٥)] وآيات القرآن يهتدي بها في ظلمات الغي والجهل ، فالنجم هداية

---

(١) الآيات ٧ ـ ١٠ من سورة النجم .

(٢) في ظلال القرآن ٣٤٠٦/٦ .

(٣) التحرير والتنوير ٩١/٢٧ ، ٩٢ .

(٤) المرجع السابق ٩٢/٢٧ .

(٥) سورة الأنعام ، الآية ٩٧ .

في الظلمات الحسية وآيات القرآن هداية في الظلمات المعنوية ، والنجوم آياته المعنوية والحسية وآيات القرآن هداية في الظلمات المعنوية ، والنجوم آياته المعنوية المرئية والقرآن آياته المتلوة فالشبه بينهما واضح والمناسبة قوية وكأنه تعالى يقول من قدر على خلق النجوم يزين بها السماء ويهدي بها في ظلمات الليل براً وبحراً قادر بلا شك على إنزال القرآن يخرجنا به من ظلمات الغي والجهل إلى نور العلم والإيمان »[١] . والمشبه هنا آيات الكتاب كما نرى لا الرسول صلى الله عليه وسلم كما في نصّ الرازي .

ويلحظ الأستاذ عبد الكريم الخطيب وجهاً من المناسبة يشبه ماذهب إليه الرازي في بعض جوانبه ، فيربط بين القسم بالنجم وقت هوية ووقوع هذا القسم على النبي صلى الله عليه وسلم وأنه ماغوى ، ويرى أن في هذا إشارة إلي ظهور النبي صلى الله عليه وسلم في ليل الجاهلية كما يظهر النجم الهادي في الليل البهيم ، وأنه والنور الذي معه لم يهتد به في الدور المكي من الدعوة إلى وقت نزول هذه السورة إلا القليل من الناس ، فكأنّ القسم يشير إلى أنّ هذا النجم الهادي يوشك أن يغرب ويغيب عن أفقهم فلا يهتدون به ، وأنّ هذا النجم القطبي - وإن غاب عن الأعين - فإنه قائم في مقامه العالي ، فكذلك الرسول صلى الله عليه وسلم - وإن غاب عن أعينهم نوره وهداه - فإنه قائم في قلوب المؤمنين[٢] ... وثمة وجوه أخرى ذكرها الخطيب في تفصيل هذا التناسب لكنها بعيدة عن دلالة السياق[٣] . وهذا الذى ذكره هنا تفصيل لما ذكره الرازي من أنّ الله أقسم بالنجم على الرسول صلى الله عليه وسلم لما بينهما من مناسبة الاهتداء الحسي في النجم ، المعنوي فيه صلى الله عليه وسلم .

---

(١) القسم بالمخلوقات في القرآن الكريم ، صحيفة دار العلوم ، المجلد ٤٩ ، ص ٤٠ .

وقد ذكر ابن القيم هذا الوجه من المناسبة في تفسيره للعلاقة بين مواقع النجوم وآيات القرآن في قسم سورة الواقعة - الذي سيأتي بعد هذا - فالظاهر أن الاستاذ عثمان قد حذا حذوه في تفسير المناسبة في قسم سورة النجم هنا . (انظر التبيان في أقسام القرآن ص ١٣٧) وراجع الموضع اللاحق .

(٢) التفسير القرآني للقرآن ٥٨٦/٢٧ ، ٥٨٧ .

(٣) المصدر نفسه .

ويربط الدكتور إبراهيم عوض بين عنصري هذا القسم مستأنساً بما تدل عليه آيات السورة من جوّ التهديد والتعنيف ، فيرى أن هذا الجوّ « الذي يخيم على السورة يرشح أن يكون هذا القسم رمزاً على هويّ الوثنية وأتباعهاوتدهديهم في فضاء التاريخ كما يتدهدى النجم الهادي بعد انخلاعه من مداره الذي كان قد تمكن فيه على طول الأحقاب »(١) ويمكن أن يكون للمقسم به ـ بوصفه رمزاً على هويّ الوثنية ـ علاقة بالمقسم عليه من جهة أخرى أكثر ارتباطا بما دلّ عليه المقسم عليه في قوله : (ماضلّ صاحبكم وماغوى) فيكون المعنى أنه قد جاءهم بالحق الذى سيبدد كل ضلال وغواية ، وفيه إشارة إلى أن تلك العقيدة الوثنية المتهالكة ستهوي كما يهوي النجم الذى تمكنّ في مداره ، فيكون في القسم بالنجم إلماحٌ إلى دليل من دلائل صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وهو المقسم عليه ، لأنّ هويّ تلك العقائد الفاسدة بعد بقائها زمناً ليس باليسير دليل على بطلانها ودليل على أنّ الذي أزالها لابد وأن يكون حقاً وصدقاً ووحياً من الله تعالى .

ويمكن أن يفهم الوجه السابق على نحو آخر يكون القسم بالنجم فيه على معنى الرجوم المرسلة على الشياطين ، فيكون في ذلك إشارة إلى الحقّ النازل من السماء الدافع لكل شيطان يحاول تغيير منهج الله في الأرض أو اتخاذ شريعة غير شريعته ، المزهق لكل باطل كان قبله أو استحدث بعده ، أي أن آيات الله تعالى التى نزلت من السماء تدفع الباطل وأتباعه من شياطين الجن والإنس كما تدفع النجوم الراجمة الشياطين المسترقة للسمع . وعلى هذا الوجه يكون في لفظ النجم تورية لطيفة لما فيه من الإشارة إلى نجوم القرآن والنجوم الراجمة للشياطين معا .

وألمح هنا وجهاً آخر من العلاقة بين طرفي القسم تقدّمت الإشارة إلى طرفٍ منه في بيان التناغم بين لفظي (هوى) و(الهوى) فى قوله : (والنجم إذا هوى . ماضل صاحبكم وماغوى وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى) ، ففي هذا التناغم مايشير إلى صلة سقوط النجم وهويّه على نحو يستحيل فيه إلى كتلة من

---

(١) في مقالة له بعنوان : القسم بين القرآن والسنة ، مجلة المنهل ، العدد ٤٨ ، ذو الحجة ١٤١١ هـ ، ص ١٧ .

النار المحرقة الضارة بعد أن كان هاديا ونافعا ، بسقوط الإنسان في هوى النفس ، وذلك إلماح بديع إلى أن اتّباع الإنسان هوى نفسه يرديه ويسقطه في هاوية يصبح فيها ضاراً ومهلكاً لنفسه ولغيره ، وإلى أن ارتفاعه عن هوى النفس يعلي شأنه ويجعله كالنجم الباقي في السماء يهتدى به الناس ويجلّونه ويقدرون مكانه العالي . وفيه إشارة ذكية إلى كفار قريش الذين نسبوا ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هواه وأنه جاء به من عند نفسه في بعض أقوالهم فيه ، على حين أنهم هم الذين حادوا عن الحق وسقطوا في هاوية الضلال .

واقرأ ماسبق في ضوء قوله تعالى في السورة نفسها ـ سورة النجم ـ : ﴿ ... إن يتبعون إلا الظن وماتهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾[١] وقوله سبحانه بعد ذلك : ﴿ ... إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً * فأعرض عن من تولّى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا* ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ﴾[٢] ألا ترى كيف تشير هذه الآيات إلى تلك الدلالات التي يفيدها القسم بالنجم الهاوي على نفي الضلال والغواية عن الرسول صلى الله عليه وسلم !!

ودع ذا واقرأ قوله سبحانه في آخر سورة النجم في سياق الحديث عن هلاك الأمم المكذبة بالحق : ﴿ والمؤتفكة أهوى ﴾[٣] قال المفسرون : هي قرى قوم لوط أسقطها الله تعالى بعد أن رفعها إلى السماء مقلوبة إلى الأرض بوساطة جبريل عليه السلام[٤] . اقرأ هذا وأنت ترى هذا التناغم اللفظي البديع بين لفظ (أهوى) وماسبقه في صدر السورة من القسم بالنجم (إذا هوى) ، ومايشير إليه ذلك كله من بيان شأن من أعرض عن الحق ، وأنه اتبعَ هوى النفس فغوى فهوى في الدنيا والآخرة

---

(١) الآية ٢٣ .

(٢) الآيات ٢٨ ـ ٣٠ .

(٣) الآية ٥٣ .

(٤) انظر : تفسير الطبري ٤٧/٢٧ .

وليس أقرب إلى هذا المعنى من إيراد قصة قوم لوط فى هذه السورة على النحو الذى ورد في الآية : (والموتفكة أهوى) أليس هذا من التناسب البليغ مع القسم الذي صدرت به السورة لفظا ومعنى ؟! ثم ترى أن لورود جبريل عليه السلام ضمنا في هذه الآية ارتباطاً بما جاء من الحديث فى أول السورة بعد القسم بالنجم لماله من صلة بنزوله بالوحى على الرسول صلى الله عليه وسلم ؟!

وهذا الارتباط الذي تراه ترى مثله في مجيء قوله سبحانه في السورة نفسها : ﴿ وأنّه هو رب الشعرى ﴾[١] « والشعرى نجم أثقل من الشمس بعشرين مرة ... وقد كان هناك من يعبد هذا النجم ... فتقرير أن الله هو رب الشعرى له مكانه في السورة التي تبدأ بالقسم بالنجم إذا هوى »[٢] . ولهذا علاقة بما سبقت الإشارة إليه من أنّ تقييد القسم بحال الهويّ يفيد ـ بالإضافة إلى التناسب ـ بيان أن النجوم مهما عظمت فإنها تهوي وتزول عن مدارها فلا يليق أن تكون معبودة من دون الله تعالى ، ولهذا يرى سيد قطب أن القسم بالنجم إذا هوى يمكن أن يكون ذا علاقة بنجم الشعرى الذي ذكر في السورة نفسها بوصفه مربوباً لله تعالى[٣] .

وكما يرتبط القسم بسورته فإنه يرتبط أيضاً بما جاء في آخر السورة التي قبله ، وذلك أنه « لمّا ختمت الطور بأمره صلى الله عليه وسلم بالتسبيح والتحميد[٤] ... وذاك بعد تقسيمهم القول في النبي صلى الله عليه وسلم بأنه كاهن وساحر ومجنون[٥] ، وكان لذلك تعلق بالشياطين ، وكانت الشياطين مباينة للقرآن بختلها وبمنعها بالرجوم من النجوم كما بين آخر الشعراء[٦] ، افتتحت هذه بالحث على

---

(١) الآية ٤٩ .

(٢) في ظلال القرآن ٣٤١٨/٦ .

(٣) انظر : في ظلال القرآن ٣٤٠٦/٦ .

(٤) انظر الآيات ٤٨ ، ٤٩ من سورة الطور .

(٥) في الآيات ٢٩ ـ ٣٤ من سورة الطور .

(٦) في الآيات ٢١٠ ـ ٢١٢ من سورة الشعراء .

الاهتداء بهديه والاستدلال بدله واتباع أثره ، ولمّا كان من ذلك تسبيحه بالحمد في إدبار النجوم[١] ، أقسم أول هذه بالنجم على وجه أعم مما في آخر تلك فعبر بعبارة تفهم عروجه وصعوده[٢] لأنه لا يغيب في الأفق الغربي واحد من السيارة إلا وطلع من الأفق الشرقي في نظير له منها لما يكون عند ذلك من العبارة العالية ، والأذكار الزاكية ، مع مافيه من عجيب الصنع الدال على وحدانية مبدعه من زينة السماء التي فيها ما توعدون والحراسة من المردة حفظاً لنجوم الكتاب ، والاهتداء به في الدين والدنيا ، وغير ذلك من الحكم التي يعرفها الحكماء »[٣] .

وبعد ؛ فثمة وجوه أخرى من التناسب والتناسق بين عناصر هذا القسم وسياقه الذي ورد فيه ، في السورة التي قبله ، وفي السورة التي هو فيها ، كما أن ثمة وجوهاً أخرى من وجوه العلاقة بين هذا القسم وما أقسم به عليه ، وثمة أيضاً جوانب من البحث خطرت أثناء كتابة ما يتعلق بخصوصيات هذا القسم ، كارتباط افتتاح السورة هنا بالقسم بالنجم إذا هوى ، بمواقع أخرى ورد فيها النجم في أوائل بعض السور[٤] ، وكارتباط النجم في هذا الموقع من مواقع القسم بغيره من مواقع هذا اللفظ في القرآن الكريم وبالسياقات التي يرد فيها ، وهي سياقات تتلاقى وتتجاذب من نواح متعددة ، وكل هذه الأمور ذات علاقة حميمة بدراسة مواضع القسم لأنها تفسر خصوصيات بناء القسم في الموقع الذي ورد فيه في ضوء ارتباطه بسياقه الخاص والعام ، كما تفسر سر تماثل أو اختلاف عناصر القسم في مواقعه المتعددة من القرآن الكريم ، لكن بسط الحديث في جميع ذلك يحتاج إلى ما لا طاقة لي به في بحث كهذا ، فضلاً عن أن مواقع النجوم ـ المقسم بها في الموضع اللاحق ـ تستعجل نصيبها من البحث شافعة ذلك بقوله تعالى : ﴿ وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾[١] .

---

(١) في الآية ٤٩ من سورة الطور .

(٢) ذكر المفسرون أن الفعل (هوى) يكون من هوى هَوياً على وزن قبول بمعنى غرب ويكون من هوى هُوياً على وزن دخول بمعنى صعد وعلا . انظر تفسير أبي السعود ٨/١٥٤ .

(٣) نظم الدرر ١٩/٤٠ ، ٤١ .

(٤) كما جاء في أوائل التكوير والانفطار .

(٥) سورة الواقعة ، الآية ٧٦ .

الموضع الرابع : القسم بـ (مواقع النجـــوم) :

قوله تعالى : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم * وإنه لقسم لو تعلمون عظيم * إنه لقرآن كريم * في كتاب مكنون * لا يَمسُّه إلا المطهرون * تنزيل من رب العالمين * أفبهذا الحديث أنتم مدهنون * وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾[١] .

يرد هذا القسم في أواخر سورة الواقعة ، وهو قسم من الله تعالى بمواقع النجوم على علو شأن القرآن وتنزيهه وتنزيله من رب العالمين ، والمقصود من ذلك كله تأكيد ثبوت القرآن . ولا يخفى ما بين هذا القسم وسابقه من وجوه الشبه ؛ فإن المقسم به في الموضعين هو النجم ، والمقسم عليه فيهما هو إثبات أن القرآن من عند الله تعالى وأنه وحيه الذي أوحاه إلى نبيه صلى الله عليه وسلم ، وقد كان من أساليب هذا الإثبات في الموضعين تنزيه القرآن ، بإثبات الهدى والرشاد للرسول المرسل به في الموضع الأول ، وبوصفه في هذا الموضع بما يعلي شأنه ويشهد على صدقه وصحة نسبته إلى الله تعالى ، كما سنرى . وهذا التشابه يدل على وجود ترابط وثيق بين القسم بالنجوم وإثبات مصدر القرآن ، فهما أمران متلازمان في الموضعين . ومن التشابه كما هو واضح من السياق أن الخطاب في هذا الموضع كالخطاب في الموضع السابق في كونه موجهاً إلى الكافرين الذين كذبوا بهذا القرآن المقسم على صحته ونعتوه بالسحر أو الشعر أو الكهانة ، وعلى هذا فالغرض من القسم هنا كالغرض من القسم السابق .

لكن ثمة وجوهاً من الاختلاف بين الموضعين ، فبناء المقسم به مختلف في كل منهما ؛ لأن القسم في الموضع السابق كان بالنجم إذا هوى أي مقيداً بالهوى ، أما في هذا الموضع فإن القسم ليس بعين النجم ولكنه باسم مضاف إليه وهو مواقعه ، كما أنّ لفظ النجم في هذا الموضع جاء بصيغة الجمع (النجوم) بخلاف الموضع السابق . وثمة فروق ظاهرة في صياغة جمل المقسم عليه في كل من الموضعين ، وذلك كله راجع إلى خصوصية موقع كل قسم في سياقه الخاص والعام .

---

(١) سورة الواقعة ، الآيات ٧٥ ـ ٨٢ .

والمراد بمواقع النجوم المقسم بها في هذا الموضع لا يختلف كثيراً عن المراد بالنجم في القسم السابق ؛ فقد اختلف فيه إلى ما اختلف في سابقه من إقوال أشهرها قولان : (أحدهما) نجوم القرآن ؛ لأن القرآن كان ينزل نجوماً متفرقة . (والآخر) نجوم السماء : وفيه أقوال ؛ فقد قيل إن المقصود بمواقعها مساقطها أي مغاربها ، وقيل بل يراد بذلك المشارق والمغارب معاً وقيل المراد بمواقعها منازلها وبروجها في السماء ، وقيل المراد انتثار النجوم يوم القيامة ، وقيل مواقعها في اتباع الشياطين . وتفسيرها بنجوم السماء هو المختار عند أكثر المفسرين ، لكنهم اختلفوا في تفسير المراد بمواقعها على النحو الذي تقدم[١] ، واختار الطبري أن يكون المراد بذلك مساقط النجوم ومغايبها في السماء « وذلك أن المواقع جمع موقع والموقع من وقع يقع موقعاً »[٢] واحتج بذلك أيضاً ابن القيّم ، وأضاف أن الله تعالى يقسم بالنجوم وطلوعها وغروبها لما في الأحوال الثلاثة من الآية والعبرة ، و « أن النجوم حيث وقعت في القرآن فالمراد منها الكواكب »[٣] . واللفظ يحتمل كل ما ذكر في التفسير لأن الله تعالى قد أقسم بمواقع النجوم ولم يذكر شيئاً بعينه فتخصيص ذلك بنجوم السماء أو بحال من أحوالها أو بنجوم القرآن غير وارد ، لاسيما وأن لكل واحد من هذه الأقوال وجهاً أو وجوهاً من الارتباط بالقسم وسياقه .

والقسم هنا مصدر بـ (لا أقسم) ، وقد تقدم بسط الكلام في دلالة هذا التركيب في القسم القرآني . ونكتفي في هذا الموضع بذكر بعض الوجوه ذات العلاقة الخاصة بسياق القسم بمواقع النجوم على إثبات مصدر القرآن ، فمن ذلك أن المعنى : ليس الأمر كما تزعمون ثم استأنف القسم[٤] ، أي أن (لا) هنا « ردّ لما يقوله

---

(١) انظر : تفسير الطبري ١١٧/٢٧ ، زاد المسير ١٥١/٨ ، والتفسير الكبير ١٨٨/٢٩ ، وتفسير أبي السعود ١٩٩/٨ .

(٢) تفسير الطبري ١١٧/٢٧ .

(٣) التبيان في أقسام القرآن ص ١٣٦ ، ١٣٧ .

(٤) انظر : تفسير الطبري ١١٧/٢٧ .

الكفار في القرآن : إنه سحر وشعر وكهانه »[١] ثم ابتدأ القسم بمواقع النجوم على تمجيد القرآن ونسبته إلى رب العالمين ، فهذا الوجه مناسب للمقسم عليه . ومن ذلك أن « هذا التلويح بالقسم والعدول عنه أسلوب ذو تأثير في تقرير الحقيقة التي لاتحتاج إلى قسم : (إنه لقرآن كريم) .... »[٢] وهذا على القول بأن هذا التركيب يقصد منه بيان أن الأمر المقسم عليه لايحتاج إلى قسم لشدة ظهوره . ومن ذلك أيضاً ماذكره البقاعي من أنّ القسم بهذا الأسلوب نفي لضد ماأثبته القسم من جهة ، وبيان لاستحقاقه القسم بأعظم من المقسم به على عظمته لمن علم[٣] ، من جهة أخرى ، أي أن نفي (لا) لمقولات الكافرين في القرآن مما هو ضد ما أقسم عليه ثم تأكيد المقسم عليه بعد هذا النفي يجعله محققاً مؤكداً لأن النفي قد تقدم دافعاً عن القرآن كل باطل وصفوه به ثم أعقبه في المقسم عليه إثبات حقيقته ، هذا على الوجه الأول في قول البقاعي ، أما على الوجه الآخر ففيه زيادة تعظيم للمقسم عليه ببيان أنه يستحق أن يقسم عليه وأن يؤكد بأعظم من القسم بمواقع النجوم من أن هذا القسم ـ لو تعلمون ـ عظيم ، وفي هذا التفسير ربط بين معنى (لا أقسم) ومعنى الاعتراض بين المقسم به والمقسم عليه بقوله : (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) وهو يدل على تناسب دلالات الأساليب التي بني عليها القسم .

وللاعتراض بين المقسم به والمقسم عليه بقوله: (وإنه لقسم ـ لوتعلمون ـ عظيم) دلالات ومعانٍ متعددة ، لا سيما وأن هذا الاعتراض قد تضمن اعتراضاً آخر في قوله (لو تعلمون) فاعترض بين الصفة والموصوف ، وأصل الكلام : وإنّه لقسم عظيم لو تعلمون عظمه ، فهو على التقديم والتأخير . والضمير في قوله (وإنه) يعود على القسم بمواقع النجوم الذي تقدم هذا الاعتراض[٥] .

---

(١) زاد المسير ١٥١/٨ .

(٢) في ظلال القرآن ٣٤٧١/٦ .

(٣) انظر : نظم الدرر ٢٣٤/١٩ ، ٢٣٥ .

(٤) انر : تفسير الطبري ١١٨/٢٧ ، وزاد المسير ١٥١/٨ .

(٥) انظر المصدرين السابقين ، المكان نفسه .

« وفوائد الاعتراض تختلف بحسب قصد المتكلم وسياق الكلام ، من قصد الاعتناء والتقرير والتوكيد ، وتعظيم المقسم به والمخبر به ، ورفع توهم خلاف المراد ، والجواب عن سؤال مقدر وغير ذلك »[1] ، وكثير من هذه الدلالات والمعاني تتحقق بهذا الاعتراض الذي وقع بين طرفي القسم في هذا الموضع ، فإنّ التنويه بشأن المقسم به ـ الذي أفاده الاعتراض ـ يزيد من قوة تأكيده للمقسم عليه ، وذلك أن المقصود بكلمة القسم في قوله : (وإنه لقسم) الاستدلال بالمقسم به على المقسم عليه كما يقول الرازي ؛ لأن « كلّ ما جعله الله قسماً فهو في نفسه دليل على المطلوب وأخرجه مخرج القسم فقوله : (وإنه لقسم) معناه عند التحقيق ، وإنه دليل وبرهان قوي لو تعلمون وجهه لاعترفتم بمدلوله »[2] ، وعلى هذا يكون المقصود من هذا الاعتراض اللفت إلى وجه الاستدلال بمواقع النجوم على تمجيد القرآن وتنزيهه ونسبته إلى الله تعالى ، وبيان أنه استدلال عظيم يستأهل أن يُتأمل فيه ويتدبر ، وسنرى في تفسير العلاقات والمناسبات بين هذا القسم وجوابه مايكشف بعض وجوه هذه العظمة ، ويبين بعض أسرار اختصاص القسم في هذا الموضع بهذا التنويه الذي لم يرد في غيره[3] .

يقسم الله تعالى بهذا الأمر العظيم الذي نوّه به وبدلالته وبرهانه على المقسم عليه ، يقسم بذلك على قوله ﴿ إنه لقرآن كريم * في كتاب مكنون * لا يمسه إلا المطهرون * تنزيل من رب العالمين ﴾ . وهذا المقسم عليه ـ كما نرى ـ عظيم الشأن ، فهو إثبات كون القرآن كريماً ؛ أي : كثير الخير والحسن ، لأن هذا الوصف يقتضيه « فإن الكريم هو البهي الكثير الخير العظيم النفع ، وهو من كل شيء أحسنه وأفضله »[4] ، ويكفي لبيان عظمة هذا الوصف أن الله تعالى قد وصف به نفسه

---

(١) التبيان في أقسام القرآن ص ١٣٨ .

(٢) التفسير الكبير ١٩٠/٢٩ .

(٣) لم يرد الاعتراض بهذا في غير هذا الموضع ، لكن التنويه بشأن القسم بعبارات أخرى قد ورد في القسم القرآني كما في قوله تعالى : (هل في ذلك قسم لذي حجر) . سورة الفجر ، الآية ٥ .

(٤) التبيان في أقسام القرآن ص ١٤٠ .

وكلامه وعرشه[١] . ثم ذكر بعد ذلك أنه (في كتاب مكنون) وفسره بعضهم باللوح المحفوظ أو المصحف الذين بين أيدينا[٢] ، والأرجح ـ كما يقول ابن القيم ـ[٣] أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة ، المذكور في قوله تعالى : ﴿ في صحف مكرمة * مرفوعة مطهرة * بأيدي سفرة * كرام بررة ﴾[٤] .

وقد أكدت الجملة الأولى كون القرآن كريماً بإن واللام واسمية الجملة ، وأكدت الثانية أنه (في كتاب مكنون) مستور عن الخلق « في ستر مصون لما له من النفاسة والعلو في السماء في اللوح المحفوظ وفي الأرض في الصدور المشرفة ، وفي السطور في المصاحف المكرمة المطهرة ، محفوظاً مع ذلك من التغيير والتبديل »[٥] ، وكل هذا مما يزيد من تحقيق كونه تنزيلاً من رب العالمين وهو المقصود الكلي في هذا السياق . ثم ذكر أنه (لا يمسه إلا المطهرون) « ولما ذكر الذي منه صيانته أتبعه شرفه بشرف منزله وإنزاله على حال هو في غاية العظمة مسمياً له باسم المصدر للمبالغة ، ولأن هذا المصدر أغلب أحواله »[٦] ، فقال (تنزيل من رب العالمين) ؛ فاجتمع من وصف هذا الكتاب العظيم ما يقتضي أن يكون بمجرده مثبتاً لما لا تدركه العقول من كماله وكافياً في الإذعان لاعتقاده »[٧] .

والغرض الرئيس من تأكيد هذا المقسم عليه على هذا النحو الذي تقدم بيان الاحتفاء به وتحقيق الاهتمام به لاسيما في مخاطبة منكريه وناعتيه بتلك النعوت الباطلة ، ولزيادة هذا الاهتمام والاحتفاء والإثبات للقرآن أقسم عليه بمواقع النجوم ، وبولغ في

---

(١) التبيان في أقسام القرآن ص ١٤٠ .

(٢) انظر : زاد المسير ١٥١/٨ .

(٣) في التبيان ص ١٤٠ ، ١٤١ . واحتج له بعشرة وجوه .

(٤) سورة عبس ، الآيات ١٣ ـ ١٦ .

(٥) نظم الدرر ٢٣٧/١٩ ، ٢٣٨ .

(٦) المصدر السابق ٢٣٩/١٩ .

(٧) المصدر السابق ٢٣٩/١٩ .

ذلك بوصف هذا القسم بالعظمة ، وجاء هذا الوصف معترضاً بين المقسم به والمقسم عليه وهو مما يشير إلى أهميته ويلفت إلى أن له من المكان في هذا السياق ما جعله يستأهل أن يفصل به بين عنصري القسم مع أنهما كالجملة الواحدة لا يفصل بينهما ، كل ذلك للمبالغة في تأكيد المقسم عليه وتعظيم شأنه .

والقسم بمواقع النجوم مؤكد للمقسم عليه من وجوه متعددة ؛ فأول ذلك أن بين عنصري هذا القسم من العلاقات والمناسبات ما يشبه كثيراً مما تقدم ذكره في القسم بالنجم إذا هوى ، لأن القسمين ـ كما تقدم ـ يتماثلان في نوع المقسم به والأصل المقسم عليه ، وإن كانا يختلفان في بناء كل عنصر من العنصرين ، ولاختلاف بنائهما خصوصيات توجب النظر إلى العلاقة بينهما في بعض الوجوه على نحو يختلف عما ذكره في القسم السابق . وتتنوع العلاقات بتنوع تفسير المقسم به .

وقد ذكر ابن القيم أن المناسبة بين ذكر النجوم في القسم ـ على أنها بمعنى الكواكب ـ « وبين المقسم عليه وهو القرآن من وجوه : (أحدها) أن النجوم جعلها الله يهتدي بها في ظلمات البر والبحر وآيات القرآن يهتدي بها في ظلمات الجهل والغي . فتلك هداية في الظلمات الحسية ، وآيات القرآن في الظلمات المعنوية ، فجمع بين الهدايتين . مع ما في النجوم من الرجوم للشياطين ، وفي آيات القرآن من رجوم شياطين الإنس والجن . والنجوم آياته المشهودة المعاينة ، والقرآن آياته المتلوة المسموعة ، مع ما في مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية ومواقعها عند النزول »[1] .

ويفسر البقاعي العلاقة بين عنصري القسم هنا في ضوء علاقة القسم بما تقدمه في السورة ـ سورة الواقعة ـ وذلك أنه « لما كان الكلام السابق في الماء الذي جعله سبحانه مجمعاً للنعم الدنيوية الظاهرة وقد رتب سبحانه لانزاله الأنواء على منهاج دبره وقانون أحكمه ، وجعل إنزال القرآن نجوماً مفرقة وبوارق متلألئة متألقة ؛ قال : (بمواقع النجوم) أي بمساقط الطوائف القرآنية المنيرة النافعة المحيية للقلوب ،

(١) التبيان في أقسام القرآن ص ١٣٧ ، وقد تقدم ذكر هذه المناسبة في القسم بالنجم إذا هوى ، وتقدم التنبيه على أسبقية ابن القيم إليها .

وبهبوطها الذي ينبني عليه ماينبني من الآثار الجليلة وأزمان ذلك وأحواله ، وبمساقط الكواكب وأنوائها وأماكن ذلك وأزمانه في تدبيره على ما ترون من الصنع المحكم والفعل المتقن المقوم ، الدال بغروب الكواكب على القدرة على الطي بعد النشر والإعدام بعد الإيجاد ، وبطلوعها الذي يشاهد أنها ملجأة إليه إلجاء الساقط من علو إلى سفل لا يملك لنفسه شيئاً ، لقدرته على الإيجاد بعد الإعدام ، وبآثار الأنواء على مثل ذلك بأوضح منه ـ إلى غير ذلك من الدلالات التي تضيق عنها العبارات ، ويقصر دون علياها مديد الإشارات ، ولمثل هذه المعاني الجليلة والخطوب العظيمة جعل في الكلام اعتراضاً بين القسم وجوابه ، وفي الاعتراض اعتراضاً بين الموصوف وصفته ، تأكيداً للكلام ، وهزاً لنافذ الأفهام تنبيهاً على أن الأمر عظيم والخطب فادح جسيم »[(١)] .

ويلحظ في هذا النص أن البقاعي قد جعل القسم (بمواقع النجوم) قسماً بالنجوم النازلة من القرآن والنجوم السماوية في آن ، وربط بين الأمرين فذكر علاقتهما بالمقسم عليه على نحو يكون فيه المقصود بالمقسم به نجوم القرآن مضمناً معنى نجوم السماء ذات العلاقة بأنواء المطر ، وعلى هذا تكون المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه من وجوه ؛ فآيات القرآن المنزلة ـ منجمة وفق ما تقتضيه حكمة منزله وتدبيره ـ لإحياء القلوب ، وما لها من المنافع المتعلقة بمواقعها وأوقاتها ، تشبه الماء الذي ينزله الله تعالى من السماء بسبب مما جعله سبحانه من الأنواء المدبرة المحكمة ؛ فيحيي الله تعالى به الأرض بعد موتها ، ويجعل فيه من المنافع والآثار المتعلقة بمكانه وزمانه وأحواله[(٢)] ، وفي كلا الأمرين من الحكمة وبديع الصنعة مايشهد بقدرة المنزل سبحانه وحكمته وكمال تدبيره . هذا إلى ما في طلوع النجوم وغروبها ونزول الوحي وانقطاعه من الدلالة على الإيجاد بعد العدم والعدم بعد الإيجاد ، وفي ذلك

---

(١) نظم الدرر ١٩/٢٣٥ .

(٢) لهذا نظائر في القرآن الكريم سبق بيانها ، ونظيره في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثيل ما جاء به من الهدى والعلم بالغيث في قوله صلى الله عليه وسلم : « مثل مابعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً ... » الحديث .

انظر : الجامع الصحيح ، كتاب العلم ، باب فضل من علم وعلم ، ١/٤٥ .

إثبات للبعث بعد الموت ، وإذا ثبت البعث من هذا الوجه ثبتت صحة القرآن وصدقه فيما أخبر به من البعث وغيره ، وثبت كونه تنزيلاً من رب العالمين ، لأن البعث من خصائص الربوبية ، فانظر إلى تكاثر هذه المعاني وتعدد جهاتها ، وتناسبها مع سياق القسم ـ مع ذلك ـ وتآزرها في تحقيق المقسم عليه .

وإذا كان المراد بمواقع النجوم منازل القرآن ونجومه التي تنزل وفق الوقائع والأسباب ؛ فتكون المناسبة بين عنصري القسم هنا الاتحاد ، ويكون القسم هنا من باب القسم بالشيء على نفسه ، لبيان أن تحقيقه وتوكيده لا يتأتى إلا بالقسم به عليه إشارة إلى أنه من العظمة والعلو والشرف بحيث لا يقسم عليه بغيره . والعلاقة التحقيقية هنا تتمثل في كون تنزيل القرآن وفق ما تقتضيه الأحداث ، ومافيه ـ مع ذلك ـ من المعجزات البينات في أسلوبه ونظمه وأحكامه وآدابه وعمومه وخصوصه ، شاهداً بما لهذا القرآن من الصفات المحمودة الجليلة المقسم عليها ، وشاهداً بعد ذلك أنه (تنزيل من رب العالمين) الذي يعلم بما له من صفات الربوبية وخصوصياتها ما يصلح حال مربوبيه فيقدر لهم من نجوم القرآن وزمانها ومكانها ما يناسب حالهم . ثم ترى هذه الآيات المنزلات في نيف وعشرين عاماً ذات أسلوب واحد ، متماثل أولها وآخرها في سماته وخصائصه ودلائل علوه على كل كلام ، ولو رام ذلك بشر لما تأتى له أن ينسج على منوال واحد في بعض أوقات يومه ؛ فضلاً عن أن يتأتى له ذلك في زمن تتفاوت فيه الأفكار والقدرات ؛ فالقسم بمواقع النجوم يشير ـ من هذا الوجه ـ إلى أن تنزيل القرآن نجوماً في المدة الزمنية التي نزل فيها مع ما فيه من دلائل الثبات والدوام على نسق واحد لا يتبدل ولا يتغير ، يشهد بأنه مما لا يمكن أن يتفق لبشر ، بل يشهد أنه لابد أن يكون تنزيلاً من رب العالمين .

والعلم الحديث يكشف جانباً مهماً من عظمة هذا القسم وعظمة البرهنة به على علو شأن القرآن وصدق نسبته إلى الله تعالى ؛ وذلك أن ما يذكره علماء الفلك والنجوم في عصرنا هذا من معجزات الكون ، وما فيه من الأجرام السماوية الضخمة ، وما بين هذه الأجرام من البعد الشاسع وما يربطها بعضها ببعض من نظام محكم دقيق ؛ وغير ذلك مما وصل إليه العلم الحديث في هذا الباب لا يمثل ـ على

أهميته ـ إلا اليسير جداً من أسرار النجوم وخوافي الكون[١] ، وذلك يومىء إلى أن مقاييس البشر قاصرة ونظرهم محدود في الحكم على الآيات القرآنية مكاناً ومكانة كما هو محدود في النظر إلى الآيات الكونية وأنهم لا يزالون يتخبطون في التخرصات والظنون ما لم يأتهم من الله هدى ونور يفسر لهم ما غمض ويكشف لهم ما خفي . وبسبب من هذا وقع الاعتراض بين طرفي القسم بقوله : (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) .

وقيل ـ في العلم الحديث ـ إن بعض النجوم تزول عن أماكنها وتغير مواقعها ، ولكن يبقى ضؤوها يشع في مواقعها السابقة دليلاً عليها ، وهذه ظاهرة علمية لم يكتشفها العلماء إلا في العصر الحاضر .

وإذا صح هذا الكشف وصحّ أن يفسر به قوله تعالى (فلا أقسم بمواقع النجوم) على أنه قسم بمواقع النجوم التي تظل تشع بعد أن غادرتها نجومها ، لتدل على وجودها فيها قبل ذلك ، إذا صح هذا فإن القسم بمواقع النجوم ـ وفق هذا المعنى ـ يومىء إلى أن إيماننا بوجود هذه النجوم ـ مع أننا لا نراها ـ لأننا لانزال بما أوتيناه من وسائل الرصد والاكتشاف نرى ما خلفته وراءها من آثار ضوئها في مواقعها السابقة ؛ يومىء إلى أن هذا الإيمان الاستدلالي يلزمنا بما هو أولى وأقوى حجة ودليلاً وهو الإيمان بالله تعالى الذي ترى من آثار قدرته وحكمته ودلائل وجوده ما يشهد على ذلك أبين شهادة ويدل عليه أوضح دلالة ، وإن كنا لا نراه سبحانه ، لكننا نرى آياته الكونية وآياته القرآنية بما أودعه الله تعالى فيها من أسرار الهداية والنور ، وأعظم ما نرى من ذلك كلامه المنزل لهداية العالمين ، وهو القرآن الكريم (المقسم عليه) المصون في الكتاب المكنون المنزل على خاتم المرسلين من رب العالمين . وهذا من أدق وجوه التناسب بين المقسم به والمقسم عليه .

---

(١) « يقول الفلكيون إن من هذه النجوم والكواكب التي تزيد على عدة بلايين نجم ، ما يمكن رؤيته بالعين المجردة ، وما لا يرى إلا بالمجاهر والأجهزة ، وما يمكن أن تحس به الأجهزة دون أن تراه . هذه كلها تسبح في الفلك الغامض . ولا يوجد أي احتمال أن يقترب مجال مغناطيسي لنجم من مجال آخر ، أو يصطدم بكوكب أخر ، إلا كما يحتمل تصادم مركب في البحر الأبيض المتوسط بآخر في المحيط الهادي ، يسيران في اتجاه واحد وبسرعة واحدة . وهو احتمال بعيد ، وبعيد جداً . إن لم يكن مستحيلاً » . نقله سيد قطب في الظلال ٦/ ٣٤٧٠ عن كتاب : الله والعلم الحديث ص ٣٣ .

واختيار المقسم به ـ على هذا المعنى ـ يتسق مع السياق الخاص الذي ورد فيه القسم ؛ فقد تحدثت الآيات ـ في سورة الواقعة ـ قبل هذا القسم عن دلالة كثير من الآيات والدلائل على وجود الله تعالى ؛ فجاء الاستشهاد بالماء الذي يمنون ، والزرع الذي يزرعون ، والماء الذي يشربون ، والنار التي يورون[١] ، وعقب على جميع ذلك بقوله : (فسبح باسم ربك العظيم)[٢] إشارة إلى أن جميع ذلك شاهد على وجود الله تعالى موجب لتسبيحه ، ثم جاء القسم بمواقع النجوم ـ بما فيه من الدلالات السابقة ـ مؤكداً لهذا المعنى من وجوه متعددة . ثم جاء بعد القسم أنموذج آخر يؤمن الناس بوجوده مع أنهم لا يرون إلا آثاره ، وهو الروح ، وصورت الآيات حالة الاحتضار وما يكون فيها من الأمور الغيبية التي يؤمن بها الناس ولا يرونها[١] .

وخصوصيات ارتباط القسم بسورته لا تكاد تنحصر ، لكننا ندل على بعضها هنا . فمن ذلك أن ابتداء السورة بتحقيق الواقعة وإثبات صدقها وجريان ذلك في السورة كلها ، تصريحاً وتلميحاً ؛ يتناسب مع ما تضمنه القسم ـ في بعض دلالاته ـ من إثبات البعث وتحقيقه ، وهذا يشير إلى توافق مضمون القسم مع النسق العام الذي جرت عليه السورة . ومن ذلك ما تقدمت الإشارة إليه في نص البقاعي من ارتباط الحديث عن المطر وآثاره وأحواله بالحديث عن مواقع النجوم ذات العلاقة بالأنواء وأحوالها ، وانظر إلى هذا مستصحباً ما ذكرته قبل قليل من ارتباط القسم بما قبله في الاستدلال على وجود الله تعالى ، لترى كيف ارتبطت الآيات بعضها ببعض من وجوه متعددة ، وكيف نظم هذا القسم مع ما قبله من آيات السورة كما نظمت نجوم السماء بعضها مع بعض .

وغني عن البيان أن كثيراً من الوجوه التي تقدم ذكرها في تفسير علاقة القسم بالنجم إذا هوى ـ في الموضع السابق ـ بالمقسم عليه هناك ؛ يمكن قبولها في هذا الموضع للتماثل الذي أشرت إليه بين الموضعين في طرفي القسم فيهما ، ولذا اكتفي في هذا الجانب بما تقدم .

---

(١) انظر الآيات ٥٧ ـ ٧٣ .

(٢) الآية ٧٤ .

(٣) انظر : الآيات ٨١ ـ ٩٦ . وبها ختمت السورة .

وبعد ؛ فقد اتضح مما سبق بسطه في تفسير هذا القسم وبيان خصوصيات بناء الصورة المقسم بها فيه ، أن للقسم بـ (مواقع النجوم) في هذا الموضع من مواضع القسم القرآني خصوصيات ذات علاقة بالمقسم عليه ، والمقسم له ، والمقسم سبحانه ، كما أن لذلك علاقة بالسياق الخاص الذي وردت فيه هذه الصورة المقسم بها ، وبالسورة التي وقعت فيها . وتبين من ذلك كله أن لهذه الألفاظ الموجزة المقسم بها في هذا الموقع من سورة الواقعة دلالاتٍ وعلاقاتٍ ومعانٍ لا تكاد تنحصر . وبين يدي ذلك وبعده لا يسعني - على الرغم مما كشف لنا في عصرنا الحاضر من أمر مواقع النجوم - إلا أن أردد ما قاله أبو حيان - وهو يتأمل ذلك الاعتراض المنوه بهذا القسم (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) : « وفي إقسامه تعالى بمواقع النجوم سر في تعظيم ذلك لا نعلمه نحن ، وقد أعظم ذلك تعالى .... » (١) .

---

(١) البحر المحيط ٢١٣/٨ .

الفصل الثاني
قسم المخلوقين بالمخلوقات

قسم المخلوقين بالمخلوقات

(قسم السحرة بعزة فرعون)

قوله تعالى : ﴿ **فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون** ﴾ (١) .

جاء هذا القسم في سياق ما جاء في سورة الشعراء من قصة موسى عليه السلام مع فرعون ، وبخاصة في ذلك الجزء من القصة الذي جمع فيه فرعون السحرة لمباراة موسى عليه السلام على مشهد من الناس ﴿ **فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أإن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين * قال نعم وإنكم إذاً لمن المقربين * قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون * فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون * فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون * فألقى السحرة ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون** ﴾ (٢) .

وقد عد أكثر المفسرين قول السحرة (بعزة فرعون) قسماً أقسموا به في هذا الموقف ؛ قال الطبري : « أقسموا بقوة فرعون وشدة سلطانه ومنعة مملكته إنا لنحن الغالبون موسى » (٣) ، وقال الزمخشري : « أقسموا بعزة فرعون وهي من أيمان الجاهلية » (٤) ، وعلى هذا نص غيرهما ، وهم كثر (٥) .

« وقال ابن عطيه بعد أن ذكر أنه قسم قال : والأحرى أن يكون على جهة التعظيم والتبرك باسمه إذ كانوا يعبدونه ؛ كما تقول إذا ابتدأت بعمل شيء بسم الله

---

(١) سورة الشعراء ، الآية ٤٤ .

(٢) الآيات : ٤١ - ٤٨ . وانظر القصة كاملة في الآيات ١٠ - ٦٨ .

(٣) تفسير الطبري ١٩ / ٤٦ .

(٤) الكشاف ٣ / ١١٢ .

(٥) انظر على سبيل المثال: تفسير البيضاوي ص٤٨٨ ، وتفسير النسفي (ضمن مجمع التفاسير٤/٤٧٢) ، والبحر المحيط ١٥/٧ ، والتسهيل لعلوم التنزيل ٨٥/٣ ، ونظم الدرر ٣٢/١٤ ، وروح المعاني ٧٧/١٩ .

وعلى بركة الله ونحو هذا » [١] ، وتبعه في هذا الرأي ابن عاشور [٢] ، وعلى رأيهما يكون ورود هذا القول من السحرة على سبيل الاستعانة والتيمن ، وهو معنى دخول الباء في قولهم ، شأنه شأن البسملة . وذكر الشوكاني أن هذا القول يحتمل وجهين : أحدهما القسم ، والآخر أنه متعلق بمحذوف والباء سببية ، أي : نغلب بسبب عزتـه [٣] .

ويؤكد المقام الذي يرد فيه قولهم : ﴿ **بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون** ﴾ أنه قسم أقسموا به ؛ لأنه مقام تحد يقتضي تأكيد غلبتهم وانتصارهم ، وفيه أيضاً من دواعي التعبير بأقوى عناصر التوكيد - مما سيأتي بعد - مايؤيد كونه قسماً ، وهو ما يكاد ينعقد عليه إجماع المفسرين .

ولم يرد في القرآن الكريم القسم بغير الله تعالى مسنداً إلى الخلق إلا في هذا الموضع ، وهو صادر عن السحرة قبل أن يؤمنوا ، وفيما عداه جاء هذا النوع من القسم مسنداً إلى الله تعالى ، وهو مما اختص به سبحانه ونهي الخلق عنه ، ومن جهة أخرى لم يخرج القسم المسند إلى المؤمنين في القرآن الكريم عن القسم بالله تعالى ، وفي الحالين لفت إلى الصورة الجائزة في القسم لتحتذى ، وإلى الصورة المنهي عنها لتجتنب لأنها صورة قسم أسندت إلى غير المؤمنين . ولعل في هذا تفسيراً لورود صورة من صور أقسام الجاهليين في كتاب الله تعالى .

والمقسم به في هذا الموضع هو (عزة فرعون) ، والمراد بالعزة القوة وشدة السلطان والمنعة والعظمة [٤] ، والمقسم عليه هو قولهم :﴿ **إنا لنحن الغالبون** ﴾ .

---

(١) انظر : البحر المحيط ١٥/٧ ، وروح المعاني ٧٨/١٩ .

(٢) التحرير والتنوير ١٢٧/١٩ .

(٣) فتح القدير ٩٩/٤ .

(٤) انظر : الطبري ٤٦/١٩ ، وتفسير النسفي ، وتنوير المقباس (ضمن مجمع التفاسير ٤٧٢/٤) ، وفتح القدير ٩٩/٤ .

وهذا القسم يصدر من السحرة عند إلقاء حبالهم وعصيهم ، أي أنهم قالوه مع شروعهم في ذلك ، والمعنى بهذا الخطاب موسى عليه السلام وجميع الحاضرين في ذلك الجمع ، كما سيظهر من تفسير أغراضه .

وفي الغرض من هذا القسم يقول البيضاوي : « أقسموا بعزته على أن الغلبة لهم لفرط اعتقادهم في أنفسهم ، ولإتيانهم بأقصى مايمكن أن يؤتى به من السحر » [١] . أي أن هذا القول منهم - كما يقول البقاعي « قول واثق من نفسه مزمع على أن لايدع باباً من السحر يعرفه إلا أتى به » [٢] . وهذا يعني أن القسم يعبر في السياق عن قوة ثقة هؤلاء السحرة فيما يقسمون به وفي أنفسهم ، وقوة تمكنهم في هذا الباب - أي السحر - ويقينهم بتحقق النصر لهم .

وقد زاد من الإشعار بقوة الثقة والتمكن واليقين تظافر المؤكدات في المقسم عليه الذي جرى على لسانهم في ذلك الموقف ؛ ففيه إن المشددة ، واللام في خبرها ، واسمية الجملة الدالة على ثبات هذا الأمر لهم ودوامه في كل وقت ، وتعريف الطرفين المشعر باختصاصهم بالغلبة .

ويمكن أن يكون من أغراض التوكيد القسمي هنا تخويف موسى عليه السلام [٣] وتوهين قوته « ليكون ماسيلقيه في نوبته عن خور نفس لأنهم يعلمون أن العزيمة من أكبر أسباب نجاح السحر وتأثيره على الناظرين » [٤] ، وعلى هذا يكون مجيء

---

(١) تفسير البيضاوي، ص ٤٨٨ ، وانظر : تفسير أبي السعود ٢٤٢/٦ ، وروح المعاني ٧٨/١٩ .

(٢) نظم الدرر ١٤ / ٣٣ .

(٣) انظر : روح المعاني ٧٨/١٩ ، والتحرير والتنوير ١٢٧/١٩ .

(٤) التحرير والتنوير ١٢٧/١٩ . وقد ذكر ابن عاشور هذا المعنى بوصفه غرضاً لقولهم : (إنا لنحن الغالبون) الذي جعله « استئناف إنشاء عن قولهم (بعزة فرعون) كأن السامع وهو موسى أو غيره يقول في نفسه : ماذا يؤثر قولهم: (بعزة فرعون) ؟ فيقولون : (إنا لنحن الغالبون) وأرادوا بذلك إلقاء الخوف في نفس موسى ليكون ...) . وهذا لأنه يرى قولهم (بعزة فرعون) افتتاحاً للتيمن والاستعانة كالبسملة ولا يعده قسماً .

المؤكدات في جواب القسم للمبالغة في تخويفه عليه السلام ، رغبة منهم في زيادة التأثير في نفس الخصم .

ومع أن السحرة قد أرادوا بهذه التأكيدات إضعاف همة موسى عليه السلام تمهيداً للتغلب عليه ، فإن ذلك قد أصبح حجة لموسى عليه السلام ؛ يقول الرازي : « فالمراد أنهم أظهروا مايجري مجرى القطع على أنهم يغلبون ، وكل ذلك لما ظهر كان أقوى لأمر موسى » [1] أي أنه - مع فرط ثقتهم في غلبتهم - قد غلبهم فكان ذلك أكثر دلالة على قوة ماجاء به موسى .

ولأمر كهذا اختير في القسم المسند إلى السحرة هنا القسم بـ (عزة فرعون) وبولغ في تأكيد جوابه ، لأن لهذا المقسم به - على وجه الخصوص - غرضاً هاماً في هذا السياق ، فمجيئه في القرآن في هذا الموقع يقوي دلالة المعجزة التي جاء بها موسى ؛ وذلك أنه يوضح مقدار إيمان السحرة بألوهية فرعون ومدى انقيادهم له ، حتى بلغ بهم ذلك حداً جعلهم ينسبون إليه عزة ، بل يقسمون بها على مهمات أمورهم ؛ ليكون إيمانهم بالله بعد ذلك ، وسرعة إذعانهم لمعجزة موسى عليه السلام ، وهو ما سيرد بعد القسم ، مقابلاً بما عندهم من قوة اليقين بألوهية فرعون وقوته ؛ أبلغ في إظهار قوة الحجة وقوة الحق وفعله العجيب الذي حولت به هذه القلوب الذاهبة في الباطل إلى جهة لايرجى برؤها - إلى قلوب مسلمة مؤمنة بالله الواحد الأحد تخر للحق ساجدة .

وعلى هذا فإن للقسم بـ (عزة فرعون) وما صحبه من المؤكدات غرضاً يتعلق بتوكيد معجزة موسى عليه السلام وما وراءها من الحق ؛ فكأنه قسم على صحة

= والحق أنه احتاج إلى دلالة القسم في هذا التفسير الذي ذكره فقال في خاتمة نصه هذا : « وقد أفادت جملة (إنا لنحن الغالبون) بما فيها من المؤكدات مفاد القسم » . وما كان أغناه عن هذا كله لو اعتبر قولهم : (بعزة فرعون) قسماً أقسموا به ، وهو الأولى .

(١) التفسير الكبير ٢٤ / ١٣٤ .

نبوته ، وهذه هي الدلالة السياقية لهذا القسم . وفي هذا تفسير لاختيار نوع المقسم به ومناسبته لهذا الموقع .

والمقسم به في هذا الموضع مناسب للمقسم عليه ؛ يقول الألوسي : « هذا قسم منهم بعزته - عليه اللعنة - على الغلبة ، وخصوها بالقسم هنا لمناسبتها للغلبة »(١) ووجه المناسبة أنهم يشيرون بذلك إلى أن هذه العزة المخصوصة هي سبب نصرهم على موسى ؛ فكان في قسمهم بها تأكيد بأنسب الأمور لتحقيق المقسم عليه .

وقد جاء بناء المقسم به على نسق يعدل فيه عن الخطاب إلى الغيبة؛ فلم يقولوا : بعزتك إنا لنحن الغالبون ، وإنما قالوا : بعزة فرعون ، مع كونه من سامعي هذا القول ، بل هو مخاطب معتدٌّ به لدى السحرة ، وفي سر هذا العدول يقول أبو حيان : « وعدلوا عن الخطاب إلى اسم الغيبة تعظيماً ، كما يقال للملوك أمروا رضي الله عنهم بكذا فيخبر عنهم إخبار الغائب » (٢) ، والمقام يقتضي التعظيم لأنهم في مقام إظهار عزته وقوته وعظمته .

وفي إضافة العزة إلى فرعون والقسم بها على هذه الصورة تنويه من السحرة بأنه صاحب عزة عرفت وذاعت حتى اقترنت باسمه ، وفي ذلك أيضاً تعريض لموسى وللناس المجتمعين بأنه هو الرب الذي يقسم بعزته ويستعان بها ، لا إله موسى الذي يزعم ، ولعلهم لهذا السبب ذكروا الله تعالى بإضافته إلى موسى وهارون في سياق اعترافهم بالإيمان بعد ذلك فـ ﴿ **قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون** ﴾ (٣) ، أي أنه لما أشعر قسمهم بعزة فرعون بالاعتراف له بالربوبية ؛ حرصوا على أن يقولوا (رب موسى وهارون) إشعاراً بعزله (٤) عن مقام الربوبية .

---

(١) روح المعاني ١٩ / ٧٧ .

(٢) البحر المحيط ٧ / ١٥ .

(٣) سورة الشعراء ، الآية ٤٧ ، ٤٨ .

(٤) يرى الرازي أن قولهم : (رب موسى وهارون) « عطف بيان لرب العالمين لأن فرعون كان يدَّعي ==

ويلمح في الإضافة أيضاً الحرص على تسمية العزة التي يريدون بها الظفر والغلبة باسم صاحبها ؛ لأنهم لو قالوا : بعزة ربنا – مع قصدهم فرعون – لكان في ذلك مدخل لتوهم نسبتها إلى غيره ، ولكان في ذلك مايقدح في حرصهم في هذا المقام على نسبة النصر إليه وإخلاص الولاء له . وفي التصريح باسمه في صورة هذا القسم تأكيد لحضوره وفاعليته فيما هم مقدمون عليه من الغلبة .

وفي تعريف فرعون في هذا القسم باسمه إظهار الحرص على التقرب إليه بعد أن وعدهم بذلك قبل القسم في قوله : ﴿ **قال نعم وإنكم إذاً لمن المقربين** ﴾ [١] ، وفي ذلك رعي لما اعتدو به من مقام الألوهية من جهة أن المعبود يقرب إليه ذاكريه ، وهو عندهم إله ، وفيه أيضاً تقرب إليه من جهة الاعتداد بإنسانيته – وهو ما يرونه من أحواله – ، وذلك لما علموه مما جبلت عليه النفوس من حب من يجري على لسانه ذكرها بخير ؛ فإذا كانت النفوس تلذ بسماع اسمها في مقام المدح ، ففي مقام الإعظام أولى [٢] . وفي مراعاة السحرة للجانب الإلهي والإنساني من فرعون – كما يشي بـه هذا التعبير – تمهيد خفي لما سيؤول إليه حالهم من عزله عن الربوبية .

ويؤيد صحة ماتستشعره نفوس السحرة من تزعزع يقينهم فيما يدعيه من الربوبية أنهم كغيرهم من الناس الذين حضروا مواجهة موسى لفرعون قبل ذلك [٣] – قد علموا« بأن ما ظهر من المعجزة – التي منها عجزه عن نوع أذى لمن واجهه بما لامطمع

= الربوبية فأرادوا عزله » التفسير الكبير ١٣٥/٢٤ ، وانظر تفسير الخازن (ضمن مجمع التفاسير ٤٧٢/٤) . ويقول البيضاوي : « رب موسى وهارون إبدال للتوضح ودفع التوهم والإشعار على أن الموجب لإيمانهم ما أجراه عن أيديهما » انظر : تفسير البيضاوي ص ٤٨٨ ، وتفسير أبي السعود ٢٤٣/٦ .

(١) سورة الشعراء ، الآية ٤٢ .

(٢) بل إن بعض الشعراء يلذ بذكر محبوبته له وإن كان في مقام الذم ، كما في قول ابن الدمينة :

لئن ساءني أن نلتني بمساءة ... لقد سرني أني خطرت ببالك

(انظر : معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ١٥٩/١).

(٣) انظر ما حكته الآيات : ١٦ – ٣٥ .

في مواجهته بأدناه - لم يدع لبساً في أنه مربوب مقهور ، وأن ذلك موجب لاتباع موسى عليه السلام » [١] .

وقد وضح من الوجوه السابقة المفسّرة لاختيار المقسم به والنسق التركيبي الخاص الذي جاء عليه أن صورة القسم في هذا الموضع لاتناسب المقسم عليه فحسب ؛ بل ترتبط بأمور أخرى ذات صلة بالموقف القسمي ؛ فترصد بدقة صورة نفوس السحرة في ذلك الموقف في قوة تشبثها بتحقيق الغلبة وتزلفها إلى فرعون مع ما تواريه هذه النفوس أيضاً من حقيقة اعتقادها في هذا الذي يزعم أنه إله وهم يرون من إنسانيته والبعد بينه وبين مايزعم ما جعلهم مهيئين - مع ماعندهم من قوة اليقين بالظفر - للإيمان بمعجزة موسى عليه السلام ، وبالإضافة إلى ذلك كانت صورة هذا القسم في مادتها وقوة التعبير فيها دليل قوة ما جاء به موسى عليه السلام .

وقد جاء هذا القسم متمكناً في سياقه الخاص الذي ورد فيه من سورة الشعراء ، وهو السياق الذي حكت فيه السورة قصة موسى عليه السلام مع فرعون ، وسنقف على بعض جهات الربط بين القسم وهذا السياق .

ومن ذلك أنه قد ورد في هذه القصة - قبل القسم الذي ورد فيها - مايشير إلى عظمة ملك فرعون وقوة سطوته مقترناً بذكر الغلبة والحديث عنها ، وذلك ما جاء في الآيات المعبر بها عن المواقف التي سبقت اجتماع الناس يوم الزينة لحضور المباراة بين السحرة وموسى عليه السلام ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ **فجمع السحرة لميقات يوم معلوم * وقيل للناس هل أنتم مجتمعون * لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين * فلما جاء السحرة قالوا أإن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين * قال نعم وإنكم إذاً لمن المقربين** ﴾ [٢] ، « بالبناء للمفعول إشارة إلى

---

(١) نظم الدرر ١٤/٣٠ ، ٣١ . ويرى البقاعي أنه لأجل هذا المعنى جاء قوله تعالى : (وقيل للناس هل أنتم مجتمعون) الآية ٣٩ ، ليمتحن الناس هل رجعوا عن دينه لما علم من أمر ظهور المعجزة .

(٢) سورة الشعراء ، الآيات ٣٨ - ٤٢ .

عظمة ملكه فقال : (فجمع) أي بأيسر أمر له عندهم من العظمة »[١] ، ثم قال حكاية عن القائل للناس ذلك : (لعلنا نتبع السحرة) ولم يقل : نتبع فرعون ، « وهذا مرادهم في الحقيقة وعبر بهذا كناية عنه لأنه أدل على عظمة الملك »[٢] ، وذكروا هنا شرط الاتباع وهو الغلبة للسحرة ، ثم جاء التعبير عن حضور السحرة في قوله : (فلما جاء السحرة ...) « بالفاء إيذاناً بسرعة حشرهم ، إشارة إلى ضخامة ملكه ووفور عظمته »[٣] واقترن ذلك باشتراطهم الأجر إن كانوا هم الغالبين ، فذكروا الغلبة أيضاً منسوبة إليهم .

وعلى هذا فقد مهدت العناصر اللغوية في هذا السياق - بتأكيدها على إظهار عزة فرعون وعظمة ملكه وربط ذلك بالحديث عن الغلبة - مهدت لأن تكون هذه العزة هي المقسم به في القسم الوارد في هذا السياق وأن تكون الغلبة هي المقسم عليه ، وهذا نظم بديع تبدو فيه الآيات السوابق للقسم مهيئة لعناصره التي سيشتمل عليها .

والقسم يناسب هذا السياق من جهة أخرى وذلك أنه سياق يتم فيه بين السحرة وفرعون التأكيد على أمر الغلبة وقد ناط به فرعون الأجر والتقريب لهم ؛ فانظر إلى قولهم : (أإن لنا لأجر إن كنا نحن الغالبين) وما فيه من تأكيد حصول الأجر الدال على يقينهم في غلبتهم ؛ لأن هذا قول من تحقق من مقدرته على ذلك فزاد من قوة اشتراطه وطمعه في زيادة الأجر ، ومن ناحية أخرى فإن في قولهم (أإن لنا لأجرا) بأنواع التأكيد دلالة على أنهم قد علموا من حال فرعون - فيما مضى من مواجهته لموسى عليه السلام - قوة رغبته واشتداد حبه للنصر على موسى ، فساقوا له هذا الشرط مؤكداً ليصدقه لهم ؛ ولهذا قال لهم معرباً عن صدق ظنهم الذي ظنوه فيه : (قال نعم وإنكم إذاً لمن المقربين) ومفصحاً عن قوة تلهفه على ذلك الأمر - بتأكيد

---

(١) نظم الدرر ١٤/٣٠ .

(٢) المصدر السابق ١٤/٣٠ .

(٣) المصدر السابق ١٤/٣٠ .

كلامه بالتصديق المؤيد لتوكيدهم أولاً في قوله : (نعم) ، ثم بتأكيد ما أملوه من زيادة الأجر وهو قوله : (وإنكم إذاً لمن المقربين) ، فأكد بإن و (إذا) واللام .

ولما شاع في هذا السياق التأكيد على الغلبة والفوز ظهرت فيه قوة التحدي وقوة المواجهة ولهذا جرى على لسان السحرة - عندإلقاء حبالهم وعصيهم - ذلك القسم المساوق لما ظهر في هذا السياق من قوة الحرص على الغلبة .

ومن ناحية أخرى فإننا لانجد ذكراً لهذا القسم فيما ورد من تفاصيل القصة نفسها في سورة الأعراف [١] على مابينهما من تماثل ؛ لأن السياق هناك أقل تأكيداً على قوة التحدي والاحتشاد للمباراة ، على عكس قصة سورة الشعراء ، ويبدو ذلك من مقارنة العناصر اللغوية الواردة في سياق القصة في سورة الأعراف بما يقابلها في سورة الشعراء ؛ ولنأخذ على سبيل المثال ماجاء في الأعراف من حكاية الحوار بين فرعون والسحرة قبل المباراة وهو يقابل الجزء الذي ذكر قبل قليل ، وذلك قوله تعالى : ﴿ **وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين * قال نعم وإنكم لمن المقربين** ﴾ [٢] ، وواضح هنا أن عناصر التأكيد أقل مما جاء في الشعراء فمكان قول السحرة : أإن لنا لأجراً ، قالوا : إن لنا لأجراً ، ولم يأت في رد فرعون عليهم قوله : (إذا) كما جاء في الشعراء ، وكذلك الشأن في كثير من عناصر التعبير عما سبق لقاء موسى عليه السلام لفرعون ، فإنه في الشعراء أكثر دلالة على الرغبة في التفوق والغلبة [٣] .

---

(١) انظر القصة كاملة في الآيات ١٠٣ - ١٢٦ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية ١١٣ - ١١٤ .

(٣) أشار الدكتور فاضل السامرائي إلى الفروق التعبيرية فيما ورد من القصة في سورتي الأعراف والشعراء ، ومناسبة بناء القصة في كل من السورتين للسياق الذي وردت فيه . (انظر تفصيل ذلك في كتابه: التعبير القرآني ، ص ٢٨٩ - ٢٩٨) ، وقد ذكر في هذا الموطن من كتابه أن سياق القصة في الشعراء يتسم بأمرين هما : التفصيل في الأحداث ، وقوة المواجهة والتحدي ، أما في الأعراف فقد بنيت على الاختصار وليس فيها ما في الشعراء من قوة المواجهة ، وعلى هذين الأمرين بني حديثه عن الفروق التعبيرية في الموضعين ، انظر ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

فكل هذا يدل على أن سياق القصة في الشعراء أنسب لورود هذا القسم المحكي عن السحرة وأليق لما فيه من إشاعة جو يدل على قوة المواجهة بين الفريقين ، والقسم مناسب لما شاع في هذا السياق من عناصر التوكيد والتحقيق ؛ فهو يعضد الدلالة العامة التي يثيرها السياق .

والذي ذكرته هنا من صلة قسم السحرة بالسمات الخاصة لسياق القصة في سورة الشعراء يشير إلى قوة اختصاص السورة بالقسم الذي ورد فيها ، وأنه لم يكن من المناسب حكايته في سورة الأعراف، مع مابين أسلوبي القصة في السورتين من تشابه يبلغ حد الاتحاد في بعض الجمل [1] .

وما شاع في القصة الواردة هنا في سورة الشعراء من الإشعار بقوة المواجهة بين الفريقين - بما في ذلك القسم الذي ورد في سياقها - يناسب مابنيت عليه سورة الشعراء من الحديث عن قوة إبانة آيات الله تعالى وإعراض المنذرين عنها مع وضوحها وقوة دلالتها على الحق ، وهو ماسبق ذكره في الموضع القسمي الآخر الذي ورد في هذه السورة [2] ، فجيء في سياق هذه السورة بقصة موسى مع فرعون في أسلوب يظهر أن اللقاء بينهما أكثر قوة وتحدياً ليكون إثبات المعجزة والآية أقوى وذلك يلائم سورة الشعراء التي تؤكد آياتها بين كل قصة وأخرى على : ﴿ **إن في ذلك لآية وماكان أكثرهم مؤمنين** ﴾ [3] .

ومن وجوه علاقة القسم بالسورة أيضاً أنه يأتي في سياق التعبير عن موقف العبدة من معبوداتهم وتنكرهم لها بعد رؤية الحق ، وهو يماثل موقف المشركين من

---

(١) تابع القصة في الموضعين : في الآيات ١٠٣ - ١٢٦ من سورة الأعراف ، والآيات ١٠ - ٥١ من سورة الشعراء .

(٢) انظر ماذكرته من ذلك ص٣٤٣ من هذا البحث .

(٣) تكررت هذه الآية كثيراً في سورة الشعراء وقد ذكرت وجه هذا التكرار وصلته بالغرض الرئيس في السورة في الموضع المشار إليه هنا .

أصنامهم في نار جهنم ، وقد سبقت الإشارة إلى الصلة الدقيقة بين القسمين (١) .

والحق أن ماسبق الكلام عليه في قسم المشركين الذي ورد في سورة الشعراء أيضاً وعلاقته بالسورة يعين يكثيراً في الوقوف على علاقة هذا القسم بموضوع السورة ونسقها العام ، فيكتفي به عن تكراره هنا .

غير أن مما يختص به قسم السحرة علاقته الخاصة بما جاء من تكرار قوله تعالى : ﴿ **إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ ؛ وذلك أن تكرار هذه الآية - المؤكدة لصفتي العزة والرحمة لله تعالى - في السورة بين كل قصة وأخرى على نحو يلفت المتأمل ؛ يتصل بما عمد إليه السحرة قبل أن يؤمنوا من إضافة هذه الصفة إلى غير مستحقها ، وذهابهم في تأكيد نسبة هذه الصفة إليه إلى حد جعلهم يقسمون بها بوصفها ذات أثر فاعل مشهور ، فجاء تكرار ذلك في السورة مؤكداً نسبة هذه الصفة إلى الحق سبحانه ؛ ليلفت إلى عظمته وقوة سلطانه ومعجزاته التي جعلت أولئك السحرة - كما هو شأنها دائماً - ينتقلون في سرعة مذهلة إلى الإيمان به سبحانه واستشعار العظمة والعزة من موطنها الحقيقي ، لا كما كانوا يتوهمون أو يوهمون .

وعلى هذا تتوثق الصلة بين القسم بـ (عزة فرعون) من أولئك السحرة وسياق السورة ، من خلال فكرتي الآية البينة المعجزة والعزة المطلقة لله ورسله ، وإلى نحو من هذا أشار البحث في علاقة قوله تعالى : ﴿ **تالله إن كنا لفي ضلال مبين** ﴾ (٢) بسياق السورة .

وثمة أمر هام يلفت الانتباه ؛ وذلك أن هذه السورة قد تكرر فيها التأكيد على صفة العزة لله تعالى في قوله تعالى:﴿ **وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ ثمان مرات(٣) في سياق عرض قصص الأنبياء السابقين مع أقوالهم، ثم جاء بعد ذلك قوله

---

(١) انظر ص من هذا البحث .

(٢) سورة الشعراء ، الآية ٩٧ .

(٣) انظر الآيات : ٩ ، ٦٨ ، ١٠٤ ، ١٢٢ ، ١٤٠ ، ١٥٩ ، ١٧٥ ، ١٩١ .

سبحانه لرسوله ﷺ : (وتوكل على العزيز الرحيم) [١] ، فبلغ بهذه الآية ورود صفة العزة منسوبة إلى الله تعالى في هذه السورة تسع مرات ، ولم يرد هذا الاسم الكريم في سورة من سور القرآن الكريم أكثر من وروده في هذه السورة [٢] ؛ وهذا أعجب العجب ، إذ يأتي القسم بـ (عزة فرعون) الواقع في هذا السياق - في ضوء ماشرح من علاقته بالسورة - في هذه السورة الحافلة بالاعتناء بإظهار أمر هذه الصفة وتأكيدها ، فيظهر من هذا وجه اتصال دقيق بين السياق العام للسورة والقسم الذي أسند إلى السحرة .

ويلفت البقاعي إلى وجه آخر يوثق صلة القسم بالسورة وذلك أن في زيادة (إذاً) في قول فرعون للسحرة : (وإنكم إذاً لمن المقربين) « زيادة في التأكيد لما يتضمن ذلك من إبعاده عن الإيمان مع وضوح البرهان ، تخفيفاً على المخاطب بهذا كله ﷺ تسلية له في الحمل على نفسه ألا يكون من يدعوهم مؤمنين ، وما بعد ذلك من مسارعة السحرة للإيمان - بعد ما ذكر من إقسامهم بعزته بغاية التأكيد - تحقيق لآية « فظلت أعناقهم لها خاضعين » [٣] » [٤] أي أن موقف فرعون في عدم إيمانه مع وضوح البرهان له ، وإيمان السحرة السريع في ذلك الموقف بعد قسمهم بعزة فرعون قسماً لايرجى بعده أن يذعنوا للحق ، كل ذلك فيه تسلية للرسول ﷺ فيما كان يجده من قومه مع وضوح آيات الكتاب المبين ، وعلى هذا يكون الموقف القسمي من

---

(١) الآية ٢١٧ .

(٢) قمت باستقراء ذلك في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، ص ٤٥٩ - ٤٦١ ؛ ولم أجد ذكر هذا الاسم الكريم في سورة من سور القرآن الكريم أكثر مما في سورة الشعراء .

(٣) يشير إلى قوله تعالى في أول هذه السورة : (طسم . تلك آيات الكتاب المبين . لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين . إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين) الآيات ١ - ٤ من سورة الشعراء .

(٤) نظم الدرر ١٤ / ٣٢ .

المواقف الفاعلة في تحقيق أغراض السورة ، والتي من أهمها تسليته عليه الصلاة والسلام ٠

وبعد ؛ فقد وضح من كل ماسبق ما لهذا القسم - على قلة ألفاظه - من دلالات متعددة ،وعلاقات متنوعة مع المقسم عليه والمقسمين والمخاطبين ، والسياق الخاص الذي ورد فيه ، والسورة كلها ٠


الخاتمة

الخاتمـــة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على من ختمت به الرسالات ، وبعـد ؛

فيطيب لي وقد وصل هذا البحث إلى نهايته أن ألخص أهم قضاياه ، ونتائجه ، وتوصياته ٠

فمن أهم القضايا التي عرضها البحث قضية تحديد أسلوب القسم في اللغة والقرآن الكريم ، فقد تناولت في الفصل الأول من الدراسة النظرية تحديد مفهوم القسم وعناصره اللغوية ، وتبين من ذلك أن ثمة أساليب متعددة أدخلها النحويون والمفسرون وغيرهم ممن تحدث في هذه القضية ، أدخلوها ضمن مباحث القسم ، لما لها من صلة معنوية أو تركيبية بالأسلوب القسمي ، كالتوكيد بالأدوات ، والإخبار عن القسم ، والألفاظ الجارية مجرى القسم التي فيها معنى القسم ، وغيرها من الأساليب ٠ والذي انتهيت إليه أن هذه الأساليب ليست من باب القسم ، ولكنها ذات صلة به من جهة معناها أو مبناها ٠ أما صيغ ماعرف بالقسم المقدر ؛ فقد تبين لي - بما في رأيَيْ ابن فارس والرضي ، وبتأملي للقرائن التي يقدر القسم من أجلها - مايكاد يقطع بكونها خارجة عن أسلوب القسم ، إلا أن الرأي الغالب عند علمائنا - رحمهم الله - وهو التقدير ، قد جعلني أعدّ وجود القسم في مثل تلك التراكيب احتمالاً لايمنع الاحتمال الآخر وهو عدم وجوده ، ولهذا اكتفيت في هذه الدراسة بتناول مالاخلاف في كونه قسماً ، وهو ماصرّح فيه بعناصر القسم ٠

وفي الفصل الثاني من الدراسة النظرية تتبعت القيم البلاغية في دراسة العلماء وتفسيرهم لآيات القسم ، وانتهيت في ذلك إلى أن جهود العلماء في فهم دلالة الأسلوب وتفسيره من الوجهة البلاغية قد شابها تأثر واضح بالرد على شبهات وجهت إلى القسم القرآني ، بل إن أكثر حديثهم عن آيات القسم كان عن تلك الشبهـات والرد عليها ، غير أنهم - مع انصرافهم إلى هذا - وقفوا في مواضع متعددة على بعض خصائص التعبير في الأسلوب القسمي ، وكان لهم إسهام في ذلك من الناحيتين النظرية والتطبيقية ، وأكثر ما كان ذلك عند المفسرين؛ لصلتهم المباشرة بتفسير آيات القسم ٠ أما النحويون والبلاغيون فلم يكن لهم - على وجه الإجمال - جهد واضح في سبيل فهم الأسلوب ودلالته في القرآن الكريم ، ففي الوقت الذي شغل فيه النحويون بما يقتضيه النظر النحوي ، أخرج البلاغيـون القسم من المباحـث المتعلقـة

بالبيان ومن ثم لم يكن في المصادر البلاغية مايغني الباحث من الناحية النظرية أو التطبيقية ·ونستطيع أن نقول إن هذا البحث قد فتح باباً أوصده البلاغيون ، وقدّم دليلاً عمليا على أنّ فكرنا البلاغي قابل للنماء والتجديد·

أما الدراسات التي أفردت للقسم قديماً وحديثاً فكانت في مجالات أخرى غير البلاغة ، ومع ذلك فلم تخل - في بعض مواضعها - من إشارات ذات قيمة في التفسير البلاغي لأسلوب القسم ·

وقد أفاد البحث من هذه الإشارات ونماها وأضاف إليها حتى استقامت له طريقة واستبان له منهج في دراسة بلاغة القسم القرآني، وتحليل عناصره والكشف عن خصوصياته في سياقاته المختلفة ·

وقد وقف البحث في هذا الفصل على القضايا الهامة التي تناولها العلماء من خلال تفسيرهم لآيات القسم ، ومن أهم تلك القضايا : لم أقسم الله تعالى ؟ وما سر القسم بالمخلوقات ؟ ثم البحث عن دلالة النفي قبل القسم في بعض مواضع القسم القرآني مثل : ﴿ **فلا وربك** ﴾ و ﴿ **لا أقسم** ﴾ ·

والنتيجة الهامة العامة التي وصلت إليها هذه الدراسة هي الوقوف على كيفية التوكيد في أسلوب القسم ، فقد اتضح أنه أسلوب ينفرد بنسق خاص من التوكيد يقوم على علاقة وثيقة بين طرفي القسم ((المقسم به والمقسم عليه)) ، ومايكون بين عناصرهما من ارتباط واتصال من جهات متنوعة تختلف باختلاف هذه العناصر ، وبخاصة العنصر الأهم الذي يعدّ المؤكد في هذا الأسلوب وهو « المقسم به » ، إذ تختلف باختلافه جهات التوكيد القسمي ، فترتبط في بعض المواضع بالعلاقة بين المقسم به والمقسم عليه وفي بعضها بالصلة بين المقسم ومايقسم به ، وفي مواضع أخرى بالعلاقة بين المقسم والمقسم له ، أو المقسم والمقام الذي يقسم فيه ·

وقد كانت الدراسة التطبيقية في الأبواب : الثاني والثالث والرابع ، متتبعة للعناصر المؤكدة في أسلوب القسم في المواضع التي اشتملت عليها فصول هذه

الأبواب ، وعنيت بتوخي البحث عن العلاقة والتناسب بين المقسم به والمقسم عليه ، والربط بينهما ربطاً يتوصل من خلاله إلى خصوصيات اختيار المقسم به وصورته التي جاء عليها ، وعلاقة ذلك بالموقع الخاص للقسم ، وبالمقسم له ، وبالمقام، والسياق الخاص والعام في السورة التي ورد فيها القسم ٠

وقد وصلت الدراسة من ذلك إلى أن لكل عنصر من العناصر المقسم بها مقاماً خاصاً في النص القرآني كله ، وأن القسم بكل نوع من الأنواع المقسم بها ذو صلة مطردة بهذا المقام ، فالقسم باسم الرب مثلاً قد ارتبط بمقام الحديث عن الإيمان والكفر، وعن خصائص الربوبية ومقتضياتها من تأكيد البحث وغيره ، وما إلى ذلك مما له علاقة بمعاني هذا الاسم الكريم ، على حين ارتبط القسم باسم الجلالة بمقام الحديث عن قضايا الألوهيــة ومايتصل بها مــن العبادة وغيرهــا ، أو الحديث عن الوحدانية وإثباتها ٠

ثم توخت الدراسة أبعد من ذلك ، وهو البحث عن علاقة الصورة الخاصة التي يرد عليها المقسم به في كل نوع من الأنواع المقسم بها ، البحث عن علاقتها بالموضع الذي وردت فيه ، وبالمقسم عليه ، وبالمخاطب بالقسم ، وبمقام القسم، وسياقه، وموضوعه ، وبسياق السورة التي جاء فيها القسم ؛ فانتهت من ذلك إلى أن لكل صورة من هذه الصور علاقة وثيقة بموضعها الخاص ، فللقسم باسم الرب مثلاً في صورة إضافته إلى ضمير المخاطب : (وربك) مواقع ليست له في صورة القسم بلفظ (وربي) أو (وربنا) ؛ فالأولى ترد في مواقع التسلية والتأييد مع تأكيد الخبر المساق ، والثانية ذات صلة بمقارعة الخصوم وصرفهم عن الحجاج مع تحقيق المقسم عليه من طريق رسوخ ثقة المخاطب في المقسم الذي يخاطبه ، والثالثة ترد في مقام الاسترحام والتضرع ٠ وكذلك ما أضيف اسم الرب فيه الى اسم شيء من المخلوقات فان له دلالة خاصة ، إذ لم يأت إلا في خطاب الخلق كافة ، شأنه في ذلك شأن القسم بالمخلوقات ٠

وانتهت الدراسة في هذا الجانب أيضاً إلى أن للقسم باسم الجلالة في صورتيه التي ورد عليها وجه اختصاص بالمواقع التي ورد فيها على تلك الصورة ، فقد جاء في موضع واحد مع الواو : (والله) وجاء في المواضع الباقية مع التاء : (تالله) وكانت هذه الصورة المقترنة بالتاء ذات صلة بمعنى التعجب مع القسم ، وذات ارتباط وثيق بالموقف النفسي للمقسم الذي يصدر منه القسم ، أو بموقف نفسي يطلب من المخاطب أن يلتفت إليه ويشعر به ، فهي ذات صلة بالسياقات المشتملة على بعض الانفعالات المتعلقة بالمتكلم أو المخاطب أو المقام أو السياق ٠أما القسم بأسماء المخلوقات فقد جاء في المواضع التي ورد فيها متناسباً مع المقسم عليه ، واتسقت الصورة المختارة فيه للمقسم به مع الموقع الخاص للقسم ، ومع سياقه العام ، وظهر أنّ العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه تقوم على التمثيل والتشبيه ٠ كما ظهر أن النظر إلى ألفاظ المقسم به أقرب إلى فهم دلالة الأسلوب من النظر إلى شخوص الأشياء التي دلت عليها هذه الألفاظ٠

وقد لفت البحث الى ظاهرة هامة في أسلوب القسم في القرآن الكريم وهي اتصال مواضعه بعضها ببعض ، وارتباطها فيما بينها في المضمون والصياغة على تباعد مواقعها في النص القرآني ، وهذا يدفع إلى القول : إن للقسم القرآني سياقاً عاماً متصلاً في القرآن الكريم ، وقد حاولت هذه الدراسة الإشارة الى ملامح هذا السياق ودلالات وجوده ٠

ومن النتائج الهامة التي وصل إليها البحث الوقوف على الخصائص الأسلوبية للتوكيد القسمي في القرآن الكريم ، ومنها :

١ - التكرار : فإن الحقيقة المؤكدة بهذا الأسلوب تذكر مرتين ، مرة بأسلوب التعريض في الجملة المقسم بها ، ومرة بالتصريح المؤكد في المقسم عليه ٠

٢ - التمثيل والتصوير : وهو مما يزيد تأكيد الحقائق المقسم عليه ، فكثيراً ماكان المقسم به صورة تمثيلية أو تشبيهية للمقسم عليه أو لأمور ذات صلة بالمقسم عليه ، ومعلوم أن التمثيل مما يرسخ المعنى، بما فيه من إخراج مالايدرك بالحاسة إلى مايدرك بها ٠

٣ - اللفت والتنبيه : وذلك أن القسم يلفت المخاطب إلى أهمية الكلام المساق ويجعله أكثر إقبالاً عليه ٠

٤ - مؤكدات الجواب : فقد ثبت أن جواب القسم لايكاد يخلو من عناصر لغوية مؤكدة ، وتكاد تطرد هذه الظاهرة في جميع مواضع القسم في القرآن الكريم ، ولعل ذلك إنما كان كذلك لأن المراد من التركيب القسمي تأكيد المقسم عليه بالمقسم به، فجاء المقسم عليه على الصورة التي يراد له أن يكون عليها ، وكأن ذلك يشير إلى أنه قد أصبح بما قرن معه من الصورة المقسم بها في غاية التأكيد ، وأن هذا المقسم به مؤكد له لامحالة ، وهو أسلوب يعتمد طريق الإيماء ، وفيه من البلاغة مافيه .

٥ - جميع الخصائص السابقة معضدة للدلالة اللغوية للقسم وهي التوكيد ، ولهذا فإن هذا الأسلوب - فيما ثبت عندي - أقوى أساليب التوكيد على الإطلاق .

٦ - يقوم التوكيد القسمي على نوع العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه ، فالمقسم به يذكر لما فيه من خصوصيات تعين على تحقيق المقسم عليه ، ويتعدد النظر في هذا الجانب بتعدد العلاقات ، التي تتعدد هي أيضاً بتنوع المقسم به والمقسم عليه ، وعلى هذا ففي كل موضع من مواضع القسم وجوه من التوكيد ذات صلة بعناصره المقسم بها والمقسم عليها .

٧ - جاء القسم في القرآن الكريم مؤكداً للمقسم عليه في كثير من مواضعه ، بل إن هذا الغرض لايكاد يتخلف في كل موضع ، ولكنه قد يصحب في بعض المواضع بمعان أخرى سياقية ، فقد يراد به التسلية ، أو الاحتفاء والاهتمام بالقضية المقسم عليها ، أو الاهتمام بالمخاطب ، أو لفته وتنبيهه ، أو التعبير عن معان نفسية وانفعالية ، كالتحسر ، والغضب ، والفرح ... الخ ، ولايوصف الأسلوب المعبر عن هذه المعاني بالخروج عن غرضه الأصلي وهو التوكيد ، لأن هذه المعاني تتعدد وتتنوع بتعدد السياقات وتنوعها ، وهي مما لايمكن حصره .

وبعد ، فهذا ما أعان الله عليه من دراسة أسلوب القسم في القرآن الكريم من الوجهة البلاغية ، أسأل الله العلي القدير أن ينفع بها ويجعلها خالصة لوجهه الكريم، والحمد لله رب العالمين .

ملحق البحث

جدول إحصائي لمواضع القسم في القرآن الكريم ومواقعها في أهم كتب معاني القرآن وإعرابه وتفسيره

(ملحق البحث)

جدول إحصائي لمواضع القسم في القرآن الكريم

ومواقعها في أهم كتب معاني القرآن الكريم وإعرابه وتفسيره

تعريف بالملحق ودواعي إلحاقه :

في هذا الملحق إحصاء - أحسبه دقيقا- لجميع المواضع التي ورد القسم فيها في القرآن الكريم ، وقد رتبت هذه المواضع حسب ترتيبها في المصحف ، ورقمتها وفق هذا الترتيب أيضاً ، وهي ثلاثة وخمسون موضعاً . ووضعت أمام رقم الموضع اسم السورة التي ورد فيها ، ورقم الآية أو الآيات التي تشير إلى بداية موضع القسم .

وأمام كل رقم من أرقام المواضع القسمية أنهراً يمثل كل منها مصدراً من مصادر معاني القرآن وإعرابه أو تفسيره ، وقد أثبت في كل نهر رقم الجزء والصفحة التي تحدث فيها المؤلف عن القسم ، أو التي كان يفترض أن يتحدث فيها عنه ، لأن الباحث قد يحتاج إلى ماقبل القسم ومابعده لدراسة صلته بالسياق ، وقد اعتمدت في ذلك على الطبعات نفسها التي أثبتها في قائمة المصادر العامة لهذا البحث .

ويمكن بوساطة هذا الجدول الإحصائي الوقوف على مواضع القسم القرآني بوجه عام ومواقعها في النص القرآني ، فهو يتيح رؤية شاملة لهذه المواضع . ويمكن كذلك الوقوف من خلاله على كلام العلماء عن أي موضع يريد إذ يمكنه أن يراجعه في نحو ثلاثين مصدراً من أهم مصادر معاني القرآن وإعرابه وتفسيره.

وقد دفعني إلى عمل هذا الملحق وإلحاقه بالبحث مايلي :

١ - حاجة الباحث إلى الرجوع إلى هذه المواضع ، مع أهم مصادرها ، فتقديم الجزء الأعظم من مادة كل موضع لمريدها في شكل منظم وموثق ، ييسر عليه الاستزادة من المصادر ، ويشجع على مواصلة البحث في هذا الموضوع لمن أراد أن

يَردَه بعد هذا البحث ٠

٢ – كان من الصعوبات التي واجهت هذا البحث عسر الرجوع إلى أكثر مصادر التفسير ؛ لرداءة طباعتها وإخراجها ، وعدم فهرستها فهرسة واضحة ، إذ يحتاج الباحث إلى وقت ليس باليسير في سبيل العثور على موقع الآية من أحد كتب التفسير التي لم تعنون سور القرآن فيها ولم ترقم آياتها ٠

٣ – تمكين الباحث أو القارىء المستزيد من متابعة مواقع الأسلوب في تلك المصادر ، فقد يجد مالم نجد ، أو ينبه إلى خطأ ، أو يؤيد صواباً ، أو يوازن بين مايجده في تلك المصادر مما يعين على إثراء هذا الموضوع وتحقيق الفائدة المرجوة من بحثه ٠

الرقم وفق ترتيب المصحف	السورة	رقم الآية	معاني القرآن للفرّاء	مجاز القرآن	معاني القرآن للأخفش	معاني القرآن وإعرابه للزجّاج	إعراب القرآن للنحّاس	مشكل إعراب القرآن لمكي	البيان في غريب إعراب القرآن	التبيان في إعراب القرآن
١	النساء	٦٥	٢٧٥/١	١٣١/١	٢٤١/١	٧٠/٢	٤٦٨/١	١٩٥/١	٢٥٨/١	٣٦٩/١
٢	الأنعام	٢٣	٣٣٠/١	١٨٨/١	٢٧٠/٢	٢٣٥/٢	٦٠/٢	٢٦٠/١	٣١٦/١	٤٨٧/١
٣	الأنعام	٣٠	٣٣٠/١	١٨٩/١	٢٧٣/٢	٢٤٠/٢	٦٢/٢	٢٦٣/١	٣١٨/١	٤٨٩/١
٤	يونس	٥٣	٤٦٩/١	٢٧٨/١	٣٤٥/٢	٢٥/٣	٢٥٨/٢	٣٨٤/١	٤١٥/١	٦٧٧/٢
٥	يوسف	٧٣	٥١/٢	٣١٥/١	٣٦٧/٢	١٢٠/٣	٣٣٧/٢	٤٣٣/١	٤٣/٢	٧٣٨/٢
٦	يوسف	٨٥	٥٤/٢	٣١٦/١	٣٦٨/٢	١٢٥/٣	٣٤٢/٢	٤٣٧/١	٤٣/٢	٧٤٣/٢
٧	يوسف	٩١	٥٥/٢	٣١٨/١	٣٦٨/٢	١٢٨/٣	٣٤٤/٢	٤٣٧/١	٤٤/٢	٧٤٤/٢
٨	يوسف	٩٥	٥٥/٢	٣١٨/١	٣٦٨/٢	١٢٨/٣	٣٤٥/٢	٤٣٨/١	٤٥/٢	٧٤٥/٢
٩	الحجر	٧٢	٩٠/٢	٣٥٣/١	٣٨٠/٢	١٨٣/٣	٣٨٧/٢	١٠/٢	٧٢/٢	٧٨٦/٢
١٠	الحجر	٩٢	٩٣/٢	٣٥٥/١	٣٨٠/٢	١٨٦/٣	٣٨٩/٢	١١/٢	٧٢/٢	٧٨٧/٢
١١	النحل	٥٦	١٠٦/٢	٣٦١/١	٣٨٣/٢	٢٠٥/٣	٣٩٨/٢	١٦/٢	٧٨/٢	٧٩٨/٢
١٢	النحل	٦٣	١٠٨/٢	٣٦١/١	٣٨٣/٢	٢٠٨/٣	٤٠٠/٢	١٧/٢	٧٩/٢	٧٩٩/٢
١٣	مريم	٦٨	١٧١/٢	٩/٢	٤٠٤/٢	٣٣٨/٣	٢٣/٣	٦٠/٢	١٣٠/٢	٨٧٧/٢
١٤	الأنبياء	٥٧	٢٠٦/٢	٤٠/٢	٤١١/٢	٣٩٥/٣	٧٣/٣	٨٥/٢	١٦٢/٢	٩٢٠/٢
١٥	الشعراء	٤٤	٢٧٩/٢	٨٥/٢	٤٢٦/٢	٨٩/٤	١٧٩/٣	١٣٩/٢	٢١٣/٢	٩٩٥/٢
١٦	الشعراء	٩٧	٢٨١/٢	٨٧/٢	٤٢٦/٢	٩٤/٤	١٨٥/٣	١٤٠/٢	٢١٥/٢	٩٩٨/٢
١٧	سبأ	٣	٣٥١/٢	١٤٢/٢	٤٤٤/٢	٢٤٠/٤	٣٣١/٣	٢٠٣/٢	٢٧٤/٢	١٠٦٢/٢
١٨	يس	٢	٣٧١/٢	١٥٧/٢	٤٤٩/٢	٢٧٧/٤	٣٨١/٣	٢٢٠/٢	٢٩٠/٢	١٠٧٨/٢
١٩	الصافات	١	٣٨٢/٢	١٦٦/٢	٤٥١/٢	٢٩٧/٤	٤٠٩/٣	٢٣٣/٢	٣٠٢/٢	١٠٨٧/٢
٢٠	الصافات	٥٦	٣٨٥/٢	١٧٠/٢	٤٥١/٢	٣٠٥/٤	٤٢٣/٣	٢٣٧/٢	٣٠٥/٢	١٠٩٠/٢
٢١	ص	١	٣٩٦/٢	١٧٦/٢	٤٥٣/٢	٣١٩/٤	٤٤٩/٣	٢٤٦/٢	٣١١/٢	١٠٩٦/٢
٢٢	ص	٨٢	٤١٢/٢	١٨٧/٢	٤٥٤/٢	٣٤١/٤	٤٧٣/٣	٢٥٥/٢	٣١٩/٢	١١٠٧/٢
٢٣	الزخرف	٢	٢٧/٣	٢٠٢/٢	٤٧٢/٢	٤٠٥/٤	٩٧/٤	٢٨١/٢	٣٥٢/٢	١١٣٧/٢
٢٤	الدخان	٢	٣٩/٣	٢٠٨/٢	٤٧٥/٢	٤٢٣/٤	١٢٥/٤	٢٨٧/٢	٣٥٧/٢	١١٤٤/٢
٢٥	الأحقاف	٣٤	٥٧/٣	٢١٣/٢	٤٧٨/٢	٤٤٧/٤	١٧٥/٤	٣٠٤/٢	٣٧٣/٢	١١٥٩/٢
٢٦	ق	١	٧٥/٣	٢٢٢/٢	٤٨٣/٢	٤١/٥	٢١٩/٤	٣١٨/٢	٣٨٤/٢	١١٧٣/٢
٢٧	الذاريات	١	٨٢/٣	٢٢٥/٢	٤٨٤/٢	٥١/٥	٢٣٥/٤	٣٢٢/٢	٣٨٩/٢	١١٧٨/٢
٢٨	الذاريات	٧	٨٢/٣	٢٢٥/٢	٤٨٤/٢	٥٢/٥	٢٣٦/٤	٣٢٢/٢	٣٨٩/٢	١١٧٨/٢
٢٩	الذاريات	٢٣	٨٤/٣	٢٢٦/٢	٤٨٤/٢	٥٣/٥	٢٤١/٤	٣٢٣/٢	٣٩١/٢	١١٨٠/٢
٣٠	الطور	١	٩١/٣	٢٣٠/٢	٤٨٥/٢	٦١/٥	٢٥٣/٤	٣٢٧/٢	٣٩٤/٢	١١٨٣/٢
٣١	النجم	١	٩٤/٣	٢٣٥/٢	٤٨٦/٢	٦٩/٥	٢٦٥/٤	٣٣٠/٢	٣٩٧/٢	١١٨٦/٢
٣٢	الواقعة	٧٥	١٢٩/٣	٢٥٢/٢	٤٩٢/٢	١١٥/٥	٣٤٣/٤	٣٥٣/٢	٤١٨/٢	١٢٠٦/٢
٣٣	التغابن	٧	١٦١/٣	٢٦٠/٢	٥٠١/٢	١٨٠/٥	٣٤٣/٤	٣٨٢/٢	٤٤٢/٢	١٢٢٦/٢
٣٤	القلم	١	١٧٢/٣	٢٦٤/٢	٥٠٥/٢	٢٠٣/٥	٣/٥	٣٩٥/٢	٤٥٣/٢	١٢٣٤/٢
٣٥	الحاقة	٣٨	١٨٣/٣	٢٦٨/٢	٥٠٦/٢	٢١٨/٥	٢٤/٥	٤٠٣/٢	٤٥٨/٢	١٢٣٨/٢
٣٦	المعارج	٤٠	١٨٦/٣	٢٧٠/٢	٥٠٨/٢	٢٢٣/٥	٣٣/٥	٤٠٩/٢	٤٦٢/٢	١٢٤١/٢
٣٧	المدثر	٣٢	٢٠٤/٣	٢٧٥/٢	٥١٥/٢	٢٤٨/٥	٧١/٥	٤٢٦/٢	٤٧٤/٢	١٢٥٠/٢
٣٨	القيامة	١	٢٠٧/٣	٢٧٧/٢	٥١٧/٢	٢٥١/٥	٧٧/٥	٤٢٨/٢	٤٧٦/٢	١٢٥٣/٢
٣٩	المرسلات	١	٢٢١/٣	٢٨١/٢	٥٢٢/٢	٢٦٥/٥	١١١/٥	٤٤٥/٢	٤٨٦/٢	١٢٦٢/٢
٤٠	النازعات	١	٢٣٠/٣	٢٨٤/٢	٥٢٦/٢	٢٧٧/٥	١٣٩/٥	٤٥٤/٢	٤٩٢/٢	١٢٦٩/٢
٤١	التكوير	١٥	٢٤٢/٣	٢٨٧/٢	٥٣٠/٢	٢٩١/٥	١٦٠/٥	٤٥٩/٢	٤٩٦/٢	١٢٧٣/٢
٤٢	الإنشقاق	١٦	٢٥١/٣	٢٩١/٢	٥٣٤/٢	٣٠٥/٥	١٨٧/٥	٤٦٦/٢	٥٠٣/٢	١٢٧٨/٢
٤٣	البروج	١	٢٥٢/٣	٢٩٣/٢	٥٣٥/٢	٣٠٧/٥	١٩١/٥	٤٦٧/٢	٥٠٥/٢	١٢٨٠/٢
٤٤	الطارق	١	٢٥٤/٣	٢٩٤/٢	٥٣٦/٢	٣١١/٥	١٩٧/٥	٤٦٩/٢	٥٠٧/٢	١٢٨١/٢
٤٥	الطارق	١١	٢٥٥/٣	٢٩٤/٢	٥٣٦/٢	٣١٢/٥	٢٠١/٥	٤٧٠/٢	٥٠٧/٢	١٢٨٢/٢
٤٦	الفجر	١	٢٥٩/٣	٢٩٧/٢	٥٣٧/٢	٣٢١/٥	٢١٧/٥	٤٧٣/٢	٥١١/٢	١٢٨٥/٢
٤٧	البلد	١	٢٦٣/٣	٢٩٩/٢	٥٣٨/٢	٣٢٧/٥	٢٢٧/٥	٤٧٥/٢	٥١٤/٢	١٢٨٨/٢
٤٨	الشمس	١	٢٦٦/٣	٣٠٠/٢	٥٣٩/٢	٣٣١/٥	٢٣٥/٥	٤٧٦/٢	٥١٦/٢	١٢٩٠/٢
٤٩	الليل	١	٢٧٠/٣	٣٠١/٢	٥٣٩/٢	٣٣٥/٥	٢٤١/٥	٤٧٨/٢	٥١٨/٢	١٢٩١/٢
٥٠	الضحى	١	٢٧٣/٣	٣٠٢/٢	٥٤٠/٢	٣٣٩/٥	٢٤٧/٥	٤٨٠/٢	٥١٩/٢	١٢٩٢/٢
٥١	التين	١	٢٧٦/٣	٣٠٣/٢	٥٤٠/٢	٣٤٣/٥	٢٥٤/٥	٤٨٢/٢	٥٢١/٢	١٢٩٤/٢
٥٢	العاديات	١	٢٨٤/٣	٣٠٧/٢	٥٤٣/٢	٣٥٣/٥	٢٧٧/٥	٤٩٣/٢	٥٢٨/٢	١٣٠٠/٢
٥٣	العصر	١	٢٨٩/٣	٣١٠/٢	٥٤٤/٢	٣٥٩/٥	٢٨٦/٥	٤٩٨/٢	٥٣٣/٢	١٣٠٢/٢

الرقم وفق ترتيب المصحف	السورة	رقم الآية	الطبري	البغوي	الكشاف	المحرر الوجيز	زاد المسير	التفسير الكبير	القرطبي	البيضاوي	النسفي الخازن تنوير المقباس ضمن مجمع التفاسير	البحر المحيط	ابن كثير	نظم الدرر	التسهيل	الدر المنثور	السراج المنير	تفسير أبي السعود	فتح القدير	روح المعاني	القاسمي	المراغي	في ظلال القرآن	التحرير والتنوير	التفسير القرآني للقرآن
١	النساء	٦٥	١٠٠/٥	٤٤٨/١	٥٣٨/١	١٢٠/٤	١٢٢/٢	١٦٣/١٠	٢٦٦/٥	١١٦	١٠٩/٢	٢٨٤/٣	٥٢٠/١	٣١٧/٥	١٤٧/١	٥٨٤/٢	٢٩٩/١	١٩٧/٢	٤٨٢/١	٧٠/٥	١٣٦٩/٥	٧٩/٥	٦٩٦/٢	١١٠/٥	٨٢٧/٥
٢	الأنعام	٢٣	١٠٦/٧	٩٠/٢	١١/٢	١٥٦/٥	١٦/٣	١٨٢/١٢	٤٠١/٦	١٧٢	٣٩٥/٢	٩٤/٤	١٢٧/٢	٨١/٧	٥/٢	٢٥٨/٣	٣٩٧/١	١٢٠/٣	١٠٧/٢	١٢٣/٧	٢٢٧٣/٦	٩٦/٧	١٠٦٤/٢	١٧٣/٧	١٤٨/٧
٣	الأنعام	٣٠	١١٣/٧	٩٢/٢	١٣/٢	١٧٠/٥	٢٤/٣	١٩٥/١٢	٤١١/٦	١٧٣	٣٩٨/٢	١٠٥/٤	١٢٨/٢	٨٩/٧	٦/٢	٢٦٢/٣	٣٩٩/١	١٢٤/٣	١٠٩/٢	١٣١/٧	٢٢٨٢/٦	١٠٥/٧	١٠٦٨/٢	١٨٧/٧	١٥٦/٧
٤	يونس	٥٣	٨٥/١١	٣٥٧/٢	٢٤١/٢	١٦٤/٧	٣٨/٤	١١٠/١٧	٣٥١/٨	٢٥١	٢٦١/٣	١٦٨/٥	٤٢٠/٢	١٣٩/٩	٩٤/٢	٣٦٥/٤	٢٠/٢	١٥٤/٤	٤٥٢/٢	١٣٦/١١	٣٣٥٩/٩	١١٩/١١	١٧٩٨/٣	١٩٥/١١	١٠٣٠/١١
٥	يوسف	٧٣	١٤/١٣	٤٣٩/٢	٣٣٤/٢	٣٠/٨	٢٥٩/٤	١٨٠/١٨	٢٣٤/٩	٣٢٠	٤٣٦/٣	٣٢٧/٥	٤٨٥/٢	١٧٠/١٠	١٢٤/٢	٥٦٠/٤	١٠٣/٢	٢٩٥/٤	٤٢/٣	٢٦/١٣	٣٥٧٤/٩	٢٠/١٣	٢٠١٩/٤	٢٩/١٣	٢٤/١٣
٦	يوسف	٨٥	٢٧/١٣	٤٤٤/٢	٣٣٩/٢	٥٢/٨	٢٧١/٤	١٩٢/١٨	٢٤٩/٩	٣٢٢	٤٤٥/٣	٣٣٨/٥	٤٨٨/٢	١٩٨/١٠	١٢٦/٢	٥٧١/٤	١٠٨/٢	٣٠٢/٤	٤٨/٣	٤١/١٣	٣٥٨٤/٩	٢٩/١٣	٢٠٢٥/٤	٤٣/١٣	٣٤/١٣
٧	يوسف	٩١	٣٧/١٣	٤٤٧/٢	٣٤٢/٢	٦٨/٨	٢٨٢/٤	٢٠٤/١٨	٢٥٧/٩	٣٢٣	٤٥١/٣	٣٤١/٥	٤٨٩/٢	٢٠٩/١٠	١٢٧/٢	٥٧٨/٤	١١٠/٢	٣٠٤/٤	٥٢/٣	٥٠/١٣	٣٥٨٨/٩	٣٥/١٣	٢٠٢٧/٤	٥٠/١٣	٤١/١٣
٨	يوسف	٩٥	٤٠/١٣	٤٤٨/٢	٣٤٣/٢	٧٥/٨	٢٨٥/٤	٢٠٧/١٨	٢٦١/٩	٣٢٣	٤٥٣/٣	٣٤٥/٥	٤٩٠/٢	٢١٣/١٠	١٢٧/٢	٥٨٣/٤	١١١/٢	٣٠٥/٤	٥٣/٣	٥٤/١٣	٣٥٩٣/٩	٣٧/١٣	٢٠٢٨/٤	٥٢/١٣	٤٥/١٣
٩	الحجر	٧٢	٣٠/١٤	٥٥/٣	٣٩٦/٢	٢٣٨/٨	٤٠٨/٤	٢٠٢/١٩	٣٩/١٠	٣٤٩	٤٧١/٣	٤٦٢/٥	٥٥٥/٢	٧٥/١١	١٤٧/٢	٨٩/٥	١٧١/٢	٨٦/٥	١٣٨/٣	٧٢/١٤	٣٧٦٢/١٠	٣٨/١٤	٢١٥٠/٤	٦٧/١٤	٢٥٢/١٤
١٠	الحجر	٩٢	٤٦/١٤	٥٨/٣	٣٩٩/٢	٣٥٧/٨	٤١٩/٤	٢١٣/١٩	٥٩/١٠	٣٥٠	٤٧٨/٣	٤٦٩/٥	٥٥٨/٢	٩٠/١١	١٤٩/٢	٩٩/٥	١٧٥/٢	٩٢/٥	١٤٣/٣	٨٤/١٤	٣٧٧٠/١٠	٤٧/١٤	٢١٥٥/٤	٨٧/١٤	٢٦٤/١٤
١١	النحل	٥٦	٨٣/١٤	٧٢/٣	٤١٤/٢	٤٤٥/٨	٤٥٨/٤	٥٢/٢٠	١١٥/١٠	٣٥٨	٦١١/٣	٥٠٣/٥	٥٧٢/٢	١٨٢/١١	١٥٦/٢	١٣٨/٥	١٩٥/٢	١٢١/٥	١٧٠/٣	١٦٧/١٤	٣٨١٨/١٠	٩٦/١٤	٢١٧٧/٤	١٨١/١٤	٣١٠/١٤
١٢	النحل	٦٣	٨٨/١٤	٧٤/٣	٤١٥/٢	٤٥٣/٨	٤٦٢/٤	٥٧/٢٠	١٢١/١٠	٣٥٩	٦١٤/٣	٥٠٧/٥	٥٧٤/٢	١٨٩/١١	١٥٦/٢	١٤١/٥	١٩٧/٢	١٢٢/٥	١٧٣/٣	١٧٣/١٤	٣٨٢٣/١٠	١٠٠/١٤	٢١٨٠/٤	١٩٣/١٤	٣١٥/١٤
١٣	مريم	٦٨	٨٠/١٦	٢٠٣/٣	٥١٨/٢		٢٥٢/٥	٢٤٠/٢١	١٣٨/١١	٤١٠	١٧٢/٤	٢٠٨/٦	١٣١/٣	٢٣٤/١٢	٨/٣	٥٣٣/٥	٣٥٩/٢	٢٧٥/٥	٣٤٣/٣	١١٨/١٦	٤١٥٧/١١	٧٤/١٦	٢٣١٧/٤	١٤٩/١٦	٧٥٤/١٦
١٤	الأنبياء	٥٧	٢٨/١٧	٢٤٧/٣	٥٧٦/٢		٣٥٧/٥	١٨١/٢٢	٢٩٧/١١	٤٣٢	٢٥٤/٤	٣٢١/٦	١٨٢/٣	٤٣٧/١٢	٢٨/٣	٦٣٦/٥	٤١٦/٢	٧٣/٦	٤١٣/٣	٦١/١٧	٤٣٢٠/١١	٤٦/١٧	٢٣٨٦/٤	٩٧/١٧	٩١٣/١٧
١٥	الشعراء	٤٤	٤٦/١٩	٣٨٦/٣	١١٢/٣		١٢٤/٦	١٣٣/٢٤	٩٧/١٣	٤٨٨	٤٧٢/٤	١٥/٧	٣٢٤/٣	٣٣/١٤	٨٥/٣	٢٩٣/٦	١١/٣	٢٤٢/٦	٩٤/٤	٧٧/١٩	٤٦١٦/١٣	٦١/١٩	٢٥٩٥/٥	١٢٧/١٩	٨٦/١٩
١٦	الشعراء	٩٧	٥٥/١٩	٣٩١/٣	١١٩/٣		١٣٢/٦	١٥١/٢٤	١١٦/١٣	٤٩١	٤٨١/٤	٢٧/٧	٣٤٠/٣	٥٩/١٤	٨٧/٣	٣٠٨/٦	٢١/٣	٢٥٢/٦	١٠٦/٤	١٠٣/١٩	٤٦٢٨/١٣	٧٨/١٩	٢٦٠٥/٥	١٥٣/١٩	١٤١/١٩
١٧	سبأ	٣	٤٢/٢٢	٥٤٨/٣	٢٧٩/٣		٤٣٢/٦	٢٤٠/٢٥	٢٦٠/١٤	٥٦٥	١٤٦/٥	٢٥٧/٧	٥٢٥/٣	٤٤٤/١٥	١٤٦/٣	٦٧٤/٦	٢٧٨/٣	١٢١/٧	٣١٢/٤	١٠٥/٢٢	٤٩٣٨/١٤	٥٨/٢٢	٢٨٩٣/٥	١٣٨/٢٢	٧٧٦/٢٢
١٨	يس	٢	٩٧/٢٢	٥/٤	٣١٣/٣		٣/٧	٣٩/٢٦	٣/١٥	٥٨١	١٩٥/٥	٣٢٣/٧	٥٦٣/٣	٨١/١٦	١٦٠/٣	٤١/٧	٣٣٥/٣	١٥٨/٧	٣٥٩/٤	٢٠٨/٢٢	٤٩٩١/١٤	١٤٥/٢٢	٢٩٥٨/٥	٣٤٤/٢٢	٩٠٥/٢٢
١٩	الصافات	١	٢٢/٢٣	٢٢/٤	٣٣٣/٣		٤٥/٧	١١٤/٢٦	٦١/١٥	٥٨٩	٢٢٥/٥	٣٥١/٧	٢/٤	١٨٦/١٦	١٧٨/٣	٧٨/٧	٣٦٨/٣	١٨٣/٧	٣٨٦/٤	٦٤/٢٣	٥٠٢٥/١٤	٤١/٢٣	٢٩٨٢/٥	٨٣/٢٣	٩٦١/٢٣
٢٠	الصافات	٥٦	٣٩/٢٣	٢٨/٤	٣٤١/٣		٦٠/٧	١٣٨/٢٦	٨٣/١٥	٥٩٢	٢٣٥/٥	٣٦٢/٧	٨/٤	٢٣٦/١٦	١٧٩/٣	٩٤/٧	٣٧٨/٣	١٩٢/٧	٣٩٧/٤	٩٣/٢٣	٥٠٣٩/١٤	٩٠/٢٣	٢٩٨٨/٥	١١٧/٢٣	٩٨٥/٢٣
٢١	ص	١	٧٤/٢٣	٤٧/٤	٣٥٨/٣		٩٧/٧	١٧٤/٢٦	١٤٣/١٥	٥٩٩	٢٦٠/٥	٣٨٣/٧	٢٦/٤	٣٢١/١٦	١٨٧/٣	١٤٣/٧	٣٩٩/٣	٢١٣/٧	٤١٩/٤	١٦٠/٢٣	٥٠٧٦/١٤	٩٥/٢٣	٣٠٠٦/٥	٢٠٣/٢٣	١٠٤٦/٢٣
٢٢	ص	٨٢	١١٩/٢٣	٧٠/٤	٣٨٤/٣		١٥٧/٧	٢٢٧/٢٦	٢٢٩/١٥	٦٠٦	٢٩٦/٥	٤١٠/٧	٤٣/٤	٤٢٦/١٦	١٨٩/٣	٢٠٧/٧	٤٢٩/٣	٢٢٨/٧	٤٤٦/٤	٢٧٨/٢٣	٥١٢٣/١٤	١٣٨/٢٣	٣٠٢٨/٥	٢٠٦/٢٣	١١١٠/٢٣
٢٣	الزخرف	٢	٢٩/٢٥	١٣٣/٤	٤٧٧/٣		٣٠٢/٧	١٩٢/٢٧	٦١/١٦	٦٤٦	٤٢١/٥	٥/٨	١٢٢/٤	٣٧٦/١٧	٢٥/٤	٣٦٥/٧	٥٥٢/٣	٣٩/٨	٤٤٧/٤	٦٣/٢٥	٥٢٥٨/١٤	٦٩/٢٥	٣١٧٦/٥	١٥٩/٢٥	١٠٣/٢٥
٢٤	الدخان	٢	٦٤/٢٥	١٤٨/٤	٤٩٩/٣		٣٣٦/٧	٢٣٦/٢٧	١٢٥/١٦	٦٥٥	٤٤٦/٥	٣٢/٨	١٣٦/٤	١/١٨	٣٤/٤	٣٩٨/٧	٥٧٨/٣	٥٨/٨	٥٧٠/٤	١١٠/٢٥	٥٢٩٣/١٤	١١٨/٢٥	٣٢٠٧/٥	٢٧٧/٢٥	١٨١/٢٥
٢٥	الأحقاف	٣٤	٢٤/٢٦	١٧٦/٤	٥٢٨/٣		٣٩٢/٧	٣٣/٢٨	٢١٩/١٦	٦٧٠	٤٩٤/٥	٦٨/٨	١٧١/٤	١٨٨/١٨	٤٤/٤	٤٥٢/٧	٢٠/٤	٩٠/٨	٢٦/٥	٣٤/٢٦	٥٣٦٩/١٥	٤٠/٢٦	٣٢٧٥/٦	٦٥/٢٦	٢٩٨/٢٦
٢٦	ق	١	٩٣/٢٦	٢٢٠/٤	٣/٤		٤/٨	١٤٥/٢٨	٢/١٧	٦٨٦	٥٩/٦	١٢٠/٨	٢٢١/٤	٣٩٦/١٨	٦٢/٤	٥٨٩/٧	٧٧/٤	١٢٥/٨	٧١/٥	١٧٠/٢٦	٥٤٨٢/١٥	١٥١/٢٦	٣٣٥٧/٦	٢٧٥/٢٦	٤٦٤/٢٦
٢٧	الذاريات	١	١١٥/٢٦	٢٢٨/٤	١٣/٤		٢٧/٨	١٩٤/٢٨	٢٩/١٧	٦٩٠	٧٣/٦	١٣٣/٨	٢٣١/٤	٤٤٤/١٨	٦٧/٤	٦١٤/٧	٩٣/٤	١٣٦/٨	٨٢/٥	٢/٢٧	٥٥٢٠/١٥	١٧٤/٢٦	٣٣٧٥/٦	٣٣٦/٢٦	٥٠١/٢٦

الرقم وفق ترتيب المصحف	السورة	رقم الآية	الطبري	البغوي	الكشاف	المحرر الوجيز	زاد المسير	التفسير الكبير	القرطبي	البيضاوي	النسفي الخازن تنوير المقباس ضمن مجمع التفاسير	البحر المحيط	ابن كثير	نظم الدُّرر	التسهيل	الدُّر المنثور	السراج المنير	تفسير أبي السعود	فتح القدير	روح المعاني	القاسمي	المراغي	في ظلال القرآن	التحرير والتنوير	التفسير القرآني للقرآن
٢٨	الذاريات	٧	١١٧/٢٦	٢٢٩/٤	١٤/٤		٢٨/٨	١٩٦/٢٨	٣١/١٧	٦٩٠	٧٤/٦	١٣٤/٨	٢٣٢/٤	٤٥٠/١٨	٦٧/٤	٦١٤/٧	٩٤/٤	١٣٧/٨	٨٣/٥	٥/٢٧	٥٥٢٣/١٥	١٧٦/٢٦	٣٣٧٦/٦	٣٤٠/٢٦	٥٠٤/٢٦
٢٩	الذاريات	٢٣	١٢٧/٢٦	٢٣١/٤	١٧/٤		٣٤/٨	١٩٩/٢٨	٤١/١٧	٦٩١	٧٨/٦	١٣٦/٨	٢٣٥/٤	٤٥٩/١٨	٦٩/٤	٦١٩/٧	٩٨/٤	١٣٩/٨	٨٥/٥	١٠/٢٧	٥٥٣٠/١٥	١٨٠/٢٦	٣٣٨١/٦	٣٥٥/٢٦	٥١٢/٢٦
٣٠	الطور	١	١٠/٢٧	٢٣٦/٤	٢٢/٤		٤٥/٨	٢٣٩/٢٨	٥٨/١٧	٦٩٤	٨٨/٦	١٤٦/٨	٢٣٩/٤	١/١٩	٧١/٤	٦٢٦/٧	١١٠/٤	١٤٦/٨	٩٤/٥	٢٦/٢٧	٥٥٤١/١٥	١٨/٢٧	٣٣٩٣/٦	٣٦/٢٧	٥٤٢/٢٧
٣١	النجم	١	٢٤/٢٧	٢٤٤/٤	٢٧/٤		٦٢/٨	٢٧٧/٢٨	٨٢/١٧	٦٩٧	٩٨/٦	١٥٧/٨	٢٤٦/٤	٤٠/١٩	٧٥/٤	٦٤٠/٧	١٢١/٤	١٥٤/٨	١٠٥/٥	٤٤/٢٧	٥٥٥٤/١٥	٤٣/٢٧	٣٤٠٦/٦	٨٩/٢٧	٥٨٤/٢٧
٣٢	الواقعة	٧٥	١١٧/٢٧	٢٨٩/٤	٥٨/٤		١٥٠/٨	١٨٦/٢٩	٢٢٣/١٧	٧١٣	١٦٥/٦	٢١٣/٨	٢٩٧/٤	٢٣٤/١٩	٩٢/٤	٢٥/٨	١٩٤/٤	١٩٩/٨	١٥٩/٥	١٥٢/٢٧	٥٦٥٩/١٦	١٤٩/٢٧	٣٤٧٠/٦	٣٣٩/٢٧	٧٣٢/٢٧
٣٣	التغابن	٧	٧٩/٢٨	٣٥٣/٤	١١٤/٤		٢٨٢/٨	٢٣/٣٠	١٣٥/١٨	٧٤٠	٢٧٩/٦	٢٧٧/٨	٣٧٤/٤	١١٥/٢٠	١٢٤/٤	١٨٣/٨	٣٠٢/٤	٢٥٦/٨	٢٣٦/٥	١٢٢/٢٨	٥٨٢١/١٦	١٢٣/٢٨	٣٥٨٧/٦	٢٧١/٢٨	٩٧٩/٢٨
٣٤	القلم	١	٩/٢٩	٣٧٤/٤	١٤٠/٤		٣٢٦/٨	٧٧/٣٠	٢٢٣/١٨	٧٥١	٣٢٢/٦	٣٠٧/٨	٤٠٠/٤	٢٧٢/٢٠	١٣٧/٤	٢٤٠/٨	٣٤٩/٤	١١/٩	٢٦٧/٥	٢٢/٢٩	٥٨٩٢/١٦	٢٧/٢٩	٣٦٥٤/٦	٥١/٢٩	١٠٧٦/٢٩
٣٥	الحاقة	٣٨	٦١/٢٩	٣٩٠/٤	١٥٤/٤		٣٥٤/٨	١١٦/٣٠	٢٧٤/١٨	٧٥٧	٣٥٠/٦	٣٢٨/٨	٤١٧/٤	٣٧٤/٢٠	١٤٤/٤	٢٧٥/٨	٣٧٧/٤	٢٧/٩	٢٨٥/٥	٥٢/٢٩	٥٩١٩/١٦	٦٠/٢٩	٣٦٨٤/٦	١٤١/٢٩	١١٤٨/٢٩
٣٦	المعارج	٤٠	٥٥/٢٩	٣٩٦/٤	١٦٠/٤		٣٦٦/٨	١٣٢/٣٠	٢٩٥/١٨	٧٦٠	٣٦٠/٦	٣٣٦/٨	٤٢٣/٤	٤١٦/٢٠	١٤٨/٤	٢٨٦/٨	٣٨٧/٤	٣٥/٩	٢٩٤/٥	٦٥/٢٩	٥٩٣١/١٦	٧٦/٢٩	٣٧٠٣/٦	١٧٩/٢٩	١١٩٠/٢٩
٣٧	المدثر	٣٢	١٠٢/٢٩	٤١٨/٤	١٨٦/٤		٤٠٩/٨	٢٠٨/٣٠	٨٤/١٩	٧٧١	٤٠٣/٦	٣٧٨/٨	٤٤٦/٤	٦٨/٢١	١٦٢/٤	٣٣٥/٨	٤٣٥/٤	٦٠/٩	٣٣٠/٥	١٣٠/٢٩	٥٩٨٢/١٦	١٣٨/٢٩	٣٧٦٠/٦	٣١١/٢٩	١٢٩٩/٢٩
٣٨	القيامة	١	١٠٨/٢٩	٤٢٠/٤	١٨٩/٤		٤١٥/٨	٢١٤/٣٠	٩١/١٩	٧٧٢	٤٠٧/٦	٣٨٤/٨	٤٤٧/٤	٨٢/٢١	١٦٣/٤	٣٤٧/٨	٤٣٨/٤	٦٤/٩	٣٣٥/٥	١٣٥/٢٩	٥٩٨٨/١٦	١٤٤/٢٩	٣٧٦٨/٦	٣٣٧/٢٩	١٣١٢/٢٩
٣٩	المرسلات	١	١٤٠/٢٩	٤٣٢/٤	٢٠٢/٤		٤٤٣/٨	٢٦٤/٣٠	١٥٤/١٩	٧٧٧	٤٢٩/٦	٤٠٣/٨	٤٥٨/٤	١٦٤/٢١	١٧٠/٤	٣٨٠/٨	٤٦٢/٤	٧٧/٩	٣٥٦/٥	١٩٩/٢٩	٦٠٢٠/١٧	١٧٨/٢٩	٣٧٨٩/٦	٤١٩/٢٩	١٣٨٩/٢٩
٤٠	النازعات	١	١٨/٣٠	٤٤٢/٤	٢١٢/٤		١٤/٩	٢٧/٣١	١٩٠/١٩	٧٨٧	٤٤٧/٦	٤١٩/٨	٤٦٦/٤	٢١٧/٢١	١٧٥/٤	٤٠٣/٨	٤٧٥/٤	٩٥/٩	٣٧٢/٥	٢٢/٣٠	٦٠٤٤/١٧	٢١/٣٠	٣٨١١/٦	٦٠/٣٠	١٤٢٩/٣٠
٤١	التكوير	١٥	٤٧/٣٠	٤٥٣/٤	٢٢٣/٤		٤١/٩	٧١/٣١	٢٣٦/١٩	٧٨٦	٤٦٤/٦	٤٣٤/٨	٤٧٨/٤	٢٨٤/٢١	١٨١/٤	٤٣١/٨	٤٩٣/٤	١١٧/٩	٣٩٠/٥	٥٧/٣٠	٦٠٧٧/١٧	٥٨/٣٠	٣٨٤١/٦	١٥٢/٣٠	١٤٧٢/٣٠
٤٢	الإنشقاق	١٦	٧٦/٣٠	٤٦٤/٤	٢٣٥/٤		٦٥/٩	١٠٨/٣١	٢٧٤/١٩	٧٩١	٤٨٠/٦	٤٤٧/٨	٤٨٩/٤	٣٤٥/٢١	١٨٧/٤	٤٥٨/٨	٥٠٨/٤	١٣٣/٩	٤٠٧/٥	٨١/٣٠	٦١١٠/١٧	٩٣/٣٠	٣٨٦٨/٦	٢٢٦/٣٠	١٥٠٦/٣٠
٤٣	البروج	١	٨١/٣٠	٤٦٦/٤	٢٣٧/٤		٧٠/٩	١١٣/٣١	٢٨٣/١٩	٧٩٢	٤٨٢/٦	٤٤٩/٨	٤٩١/٤	٣٥٢/٢١	١٨٨/٤	٤٦٢/٨	٥٠٩/٤	١٣٥/٩	٤١١/٥	٨٥/٣٠	٦١١٣/١٧	٩٧/٣٠	٣٨٧٣/٦	٢٣٧/٣٠	١٥١٢/٣٠
٤٤	الطارق	١	٩٠/٣٠	٤٧٢/٤	٢٤٠/٤		٨٠/٩	١٢٦/٣١	١/٢٠	٧٩٣	٤٩٠/٦	٤٥٣/٨	٤٩٧/٤	٣٧٠/٢١	١٩١/٤	٤٧٣/٨	٥١٦/٤	١٤٠/٩	٤١٨/٥	٩٤/٣٠	٦١٢١/١٧	١١٠/٣٠	٣٨٧٨/٦	٢٥٨/٣٠	١٥٢٠/٣٠
٤٥	الطارق	١١	٩٤/٣٠	٤٧٤/٤	٢٤٢/٤		٨٤/٩	١٣٢/٣١	١٠/٢٠	٧٩٤	٤٩٢/٦	٤٥٦/٨	٤٩٨/٤	٣٨١/٢١	١٩٢/٤	٣٧٦/٨	٥١٨/٤	١٤٢/٩	٤٢٠/٥	١٠٠/٣٠	٦١٢٦/١٧	١١٦/٣٠	٣٨٨٠/٦	٢٦٦/٣٠	١٥٢٤/٣٠
٤٦	الفجر	١	١٠٧/٣٠	٤٨١/٤	٢٤٩/٤		١٠٢/٩	١٦٥/٣١	٣٨/٢٠	٧٩٧	٥٠٢/٦	٤٦٨/٨	٥٠٥/٤	٢١/٢٢	١٩٦/٤	٤٩٧/٨	٥٢٩/٤	١٥٣/٩	٤٣٢/٥	١١٩/٣٠	٦١٤٤/١٧	١٤٠/٣٠	٣٩٠٢/٦	٣١٢/٣٠	١٥٤٦/٣٠
٤٧	البلد	١	١٢٣/٣٠	٤٨٨/٤	٢٥٤/٤		١٢٦/٩	١٧٩/٣١	٥٩/٢٠	٧٩٩	٥١٣/٦	٤٧٤/٨	٥١١/٤	٤٥/٢٢	١٩٩/٤	٥١٦/٨	٥٣٦/٤	١٦٠/٩	٤٤٢/٥	١٣٣/٣٠	٦١٥٩/١٧	١٥٥/٣٠	٣٩٠٨/٦	٣٤٩/٣٠	١٥٦٦/٣٠
٤٨	الشمس	١	١٣٢/٣٠	٤٩١/٤	٢٥٧/٤		١٣٧/٩	١٨٨/٣١	٧٢/٢٠	٨٠٠	٥١٧/٦	٤٧٨/٨	٥١٥/٤	٦٩/٢٢	٢٠١/٤	٥٢٨/٨	٥٤١/٤	١٦٤/٩	٤٤٨/٥	١٤٠/٣٠	٦١٦٦/١٧	١٦٥/٣٠	٣٩١٥/٦	٣٦٦/٣٠	١٥٨٢/٣٠
٤٩	الليل	١	١٣٨/٣٠	٤٩٤/٤	٢٦٠/٤		١٤٥/٩	١٩٧/٣١	٨٠/٢٠	٨٠١	٥٢١/٦	٤٨٣/٨	٥١٧/٤	٨٥/٢٢	٢٠٣/٤	٥٣٣/٨	٥٤٤/٤	١٦٦/٩	٤٥٢/٥	١٤٧/٣٠	٦١٧٤/١٧	١٧٣/٣٠	٣٩٢٠/٦	٣٧٨/٣٠	١٥٩٠/٣٠
٥٠	الضحى	١	١٤٧/٣٠	٤٩٨/٤	٢٦٣/٤		١٥٦/٩	٢٠٧/٣١	٩١/٢٠	٨٠٢	٥٢٥/٦	٤٨٥/٨	٥٢٢/٤	١٠٠/٢٢	٢٠٤/٤	٥٣٩/٨	٥٤٨/٤	١٦٩/٩	٤٥٧/٥	١٥٣/٣٠	٦١٨١/١٧	١٨٢/٣٠	٣٩٢٦/٦	٣٩٤/٣٠	١٥٩٩/٣٠
٥١	التين	١	١٥٣/٣٠	٥٠٤/٤	٢٦٨/٤		١٦٨/٩	٨/٣٢	١١٠/٢٠	٨٠٣	٥٣٤/٦	٤٨٩/٨	٥٢٦/٤	١٣٠/٢٢	٢٠٦/٤	٥٥٣/٨	٥٥٧/٤	١٧٤/٩	٤٦٤/٥	١٧٣/٣٠	٦١٩٥/١٧	١٩٣/٣٠	٣٩٣٣/٦	٤٢٠/٣٠	١٦١٣/٣٠
٥٢	العاديات	١	١٧٥/٣٠	٥١٧/٤	٢٧٧/٤		٢٠٦/٩	٦٣/٣٢	١٥٣/٢٠	٨٠٨	٥٥٧/٦	٥٠٤/٨	٥٤١/٤	٢١٠/٢٢	٢١٤/٤	٥٩٩/٨	٥٧٦/٤	١٩٠/٩	٤٨١/٥	٢١٤/٣٠	٦٢٣٧/١٧	٢٢١/٣٠	٣٩٥٧/٦	٤٩٨/٣٠	١٦٥٤/٣٠
٥٣	العصر	١	١٨٧/٣٠	٥٢٢/٤	٢٨٢/٤		٢٢٤/٩	٨٤/٣٢	١٧٨/٢٠	٨١٠	٥٦٤/٦	٥٠٩/٨	٥٤٧/٤	٢٣٤/٢٢	٢١٦/٤	٦٢١/٨	٥٨٤/٤	١٩٧/٩	٤٩١/٥	٢٢٧/٣٠	٦٢٤٩/١٧	٢٣٣/٣٠	٣٩٦٤/٦	٥٢٨/٣٠	١٦٦٨/٣٠

فهرس المصادر والمراجع

فهرس المصادر والمراجع

أولاً : المطبوعات :

* الإتقان في علوم القرآن ، للسيوطي . تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم . القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٤ م .

* أحكام القرآن ، لابن العربي . تحقيق : علي محمد البجاوي . بيروت - دار المعرفة للطباعة والنشر ، بدون تاريخ .

* ارتشاف الضرب من لسان العرب ، لأبي حيان الأندلسي ، تحقيق : مصطفى النماس ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨ هـ .

* أساس البلاغة ، للزمخشري ، تحقيق : عبد الرحيم محمود . بيروت ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، ١٣٩٩ هـ .

* أساليب القسم في اللغة العربية ، لكاظم فتحي الراوي . بغداد - الجامعة المستنصرية ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٧ هـ .

* أسباب النزول ، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري . تحقيق : السيد أحمد صقر . دار القبلة الإسلامية- جدة ، ومؤسسة علوم القرآن بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٧ هـ .

* أسرار البلاغة في علم البيان ، للإمام عبد القاهر الجرجاني . تصحيح وتعليق السيد محمد رشيد رضا . بيروت ، دار المعرفة - ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .

* الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز ، لعز الدين عبد العزيز بن عبد السلام دمشق - مطابع دار الفكر ، الناشر : المكتبة العلمية بالمدينة المنورة ، بدون تاريخ .

* الأصول في النحو ، لابن السراج ، تحقيق الدكتور عبد المحسن الفتلي · بيروت - مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى - ١٤٠٥ هـ ·

* أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، للشنقيطي · الطبعة الثانية - ١٤٠٠هـ - ١٩٧٩ م ·

* الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق - للدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) ، القاهرة - دار المعارف ، بدون تاريخ ·

* إعجاز القرآن ، للباقلاني · تحقيق : السيد أحمد صقر · دار المعارف ، الطبعة الرابعة ، بدون تاريخ ·

* إعجاز القرآن البياني ، د· حفني شرف ·

* إعجاز القرآن (في دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها) ، لعبد الكريم الخطيب · بيروت - دار المعرفة ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٥ - ١٣٩٥هـ ·

* إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، للرافعي · دار الكتاب العربي - بيروت ، الطبعة الثانية ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م ·

* إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ، لأبي عبد الله الحسين بن أحمد المعروف بابن خالويه · بيروت ، مؤسسة الإيمان ·

(نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية) بدون تاريخ ·

* إعراب القرآن ، لأبي جعفر النحاس ، تحقيق : زهير غازي زاهد · عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية ، الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ ·

* إعراب القرآن المنسوب إلى الزجاج ، تحقيق إبراهيم الأبياري · دار الكتب الإسلامية ودار الكتاب المصري بالقاهرة ، ودار الكتاب اللبناني بيروت ، الطبعة الثانية - ١٤٠٢ هـ ·

* أمالي السهيلي في النحو واللغة والحديث والفقه · تحقيق : الدكتور محمد إبراهيم البنا ، القاهرة – مطبعة السعادة ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٠ هـ ·

* الأمالي الشجرية ، لابن الشجري · لبنان – دار المعرفة للطباعة والنشر ، بدون تاريخ ·

* إمعان في أقسام القرآن ، للفراهي · القاهرة – المطبعة السلفية ومكتبتها ، ١٣٤٩هـ · وطبعة أخرى (١٤٠٠ هـ) عن دار القرآن الكريم بالكويت بعنوان (رسالة الإمعان في أقسام القرآن) ·

* الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين ، لكمال الدين أبي البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد الأنباري ، (نسخة مصورة عن طبعة المكتبة التجارية بمصر) ، بدون تاريخ ·

* الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال لابن المنير (بهامش الكشاف للزمخشري) · بيروت – دار الفكر ، الطبعة الأولى – ١٣٩٧ هـ ·

* الإيضاح العضدي ، لأبي علي الفارسي · تحقيق : الدكتور حسن شاذلي فرهود ، القاهره – دار التأليف ، الطبعة الأولى ، ١٣٨٩ هـ ·

* الإيضاح في شرح المفصل ، لابن الحاجب ، تحقيق موسي بناي العليلي – مطبعة العاني – بغداد – بدون تاريخ ·

* الإيضاح في علوم البلاغة ، للقزويني · شرح وتعليق : الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٤٠٠ هـ – ١٩٨٠م ·

* أيمان العرَب في الجاهلية ، للنجيرمي · حققه وعلق حواشيه : محبّ الدين الخطيب ، المطبعة السلفية ، الطبعة الثانية ١٣٨٢ هـ ·

* البحر المحيط ، لأبي حيان الأندلسي . دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣ هـ .

* بدائع الفوائد ، لابن القيم . بيروت ، دار الكتاب العربي ، بدون تاريخ .

* بديع القرآن ، لابن أبي الإصبع المصري . تحقيق : الدكتور حفني محمد شرف ، القاهرة - دار نهضة مصر ، الطبعة الثانية ، ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م .

* البرهان في توجيه متشابه القرآن ، للكرماني . تحقيق عبد القادر أحمد عطا . دار الكتب العلمية - بيروت ، الطبعة اللأولى ١٤٠٦ هـ .

* البرهان في علوم القرآن ، للزركشي . تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم . بيروت - دار المعرفة للطباعة والنشر ، الطبعة الثانية - بدون تاريخ .

* البسيط في شرح جمل الزجاجي ، لابن أبي الربيع ، تحقيق : الدكتور عياد الثبيتي ، دار الغرب الاسلامي - بيروت ، الطبعة الأولى - ١٤٠٧ هـ .

* بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبادي . تحقيق الأستاذ محمد علي النجار . بيروت - المكتبة العلمية ، بدون تاريخ .

* البيان في غريب إعراب القرآن ، لأبي البركات بن الأنباري . تحقيق : الدكتور طه عبد الحميد طه ومراجعة مصطفى السقا ، القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٤٠٠ هـ .

* تاج العروس من جواهر القاموس ، للزبيدي ، المطبعة الخيرية بمصر ، الطبعة الأولى ١٣٠٦ هـ .

* تأملات في سورة يس ، للدكتور حسن محمد باجودة ، القاهرة - دار الاعتصام، ١٣٩٤ هـ .

* تأويل مشكل القرآن ، لابن قتيبة ، شرحه ونشره السيد أحمد صقر . المدينة المنورة - المكتبة العلمية ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠١ هـ .

* التبصرة والتذكرة ، للصيمري ، تحقيق : الدكتور فتحي مصطفى علي الدين . مكة المكرمة - مركز البحث العلمي وإحياء التراث الاسلامي ، بجامعة أم القرى ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٢ هـ .

* التبيان في إعراب القرآن ، لأبي البقاء العكبري . تحقيق : علي محمد البجاوي. القاهرة - دار إحياء الكتب العربية ، بدون تاريخ .

* التبيان في أقسام القرآن ، لابن قيم الجوزية . بيروت - دار الكتب العلمية ، ١٩٨٢ م .

* تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ، لابن أبي الإصبع المصري . تحقيق : الدكتور حفني محمد شرف . القاهرة ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، ١٣٨٣ هـ .

* التحرير والتنوير ، للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، تونس - الدار التونسية للنشر ، ١٩٨٤ م .

* التسهيل لعلوم التنزيل ، لابن جزي الكلبي . دار الكتاب العربي - بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٣ هـ .

* تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد ، لابن مالك . تحقيق : الدكتور كامل بركات . بيروت - دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، ١٣٨٧ هـ .

* التعبير القرآني ، للدكتور فاضل صالح السامرائي . بغداد - جامعة بغداد ، بدون تاريخ .

* تفسير أبي السعود المسمى (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) ، لأبي السعود العمادي . بيروت - دار إحياء التراث العربي ، بدون تاريخ .

* تفسير البغوي المسمى (معالم التنزيل) ، للبغوي . تحقيق : خالد عبد الرحمن العك ومروان سوار . بيروت - دار المعرفة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦ هـ .

* التفسير البياني للقرآن الكريم ، للدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) . القاهرة - دار المعارف ، الطبعة السادسة ، بدون تاريخ .

* تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) ، للإمام البيضاوي . بيروت - دار الفكر ، ١٤٠٢ هـ .

* تفسير جزء تبارك ، للشيخ عبد القادر المغربي . تصحيح وتعليق علي محمد حسب الله . القاهرة - المطبعة الأميرية ، ١٣٦٨ هـ .

* تفسير الخازن (لباب التأويل في معاني التنزيل) ، لعلاء الدين الخازن : (ضمن مجمع التفاسير ، دار الدعوة - استانبول ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٤م) .

* تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) ، لابن جرير الطبري : حققه وعلق على حواشيه محمود محمد شاكر . وراجعه أحمد محمد شاكر ، القاهرة - دار المعارف ، بدون تاريخ .

وطبعة أخرى ببيروت - دار الفكر ، ١٣٩٨ هـ .

* تفسير القاسمي (محاسن التأويل) ، لمحمد جمال الدين القاسمي . تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، بيروت - دار الفكر ، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .

* تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير . بيروت - دار المعرفة للطباعة والنشر ، ١٣٨٨هـ .

* التفسير القرآني للقرآن ، للأستاذ عبد الكريم الخطيب . القاهرة - دار الفكر ، ١٣٩٠ هـ .

* تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ، للقرطبي . القاهرة - دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، (مصورة عن دار الكتب) ١٣٨٧ هـ .

* التفسير الكبير ، للإمام الفخر الرازي . بيروت - دار إحياء التراث العربي ، الطبعة الثالثة ، بدون تاريخ .

* تفسير النسفي (ضمن مجمع التفاسير ، دار الدعوة - استانبول ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٤ م) .

* التلخيص في علوم البلاغة ، للقزويني . ضبطه وشرحه : عبد الرحمن البرقوقي ، بيروت - دار الكتاب العربي ، بدون تاريخ .

* تنزيه القرآن عن المطاعن ، للقاضي عبد الجبار ، الشركة الشرقية ودار النهضة الحديثة - بيروت ، بدون تاريخ .

* تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ، للفيروز آبادي . (ضمن مجمع التفاسير ، دار الدعوة - استانبول ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٤ م) .

* تهذيب اللغة ، للأزهري . تحقيق : عبد السلام هارون ، الهيئة العامة للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م .

* التوطئة ، لأبي علي الشلوبين . تحقيق : يوسف أحمد المطوع ، دار التراث العربي - القاهرة .

* الجمل في النحو ، لأبي القاسم الزجاجي . تحقيق الدكتور علي توفيق الحمد . بيروت - مؤسسة الرسالة ودار الأمل ، الطبعة الأولى - ١٤٠٥ هـ .

* الجمل في النحو ، للخليل أحمد الفراهيدي . تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة . بيروت - مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥ هـ .

* الجنى الداني في حروف المعاني ، للمرادي ، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة والأستاذ محمد نديم فاضل ، بيروت - دار الآفاق الجديدة ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣هـ .

* حاشية السيلكوتي على المطول ، طبعة الحاج محرم أفندي في إستانبول - ١٣٠١ هـ .

* الحيوان ، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . تحقيق وشرح : عبد السلام هارون . بيروت - دار إحياء التراث العربي ، بدون تاريخ .

* خزانة الأدب وغاية الأرب ، لأبن حجة الحموي . شرح عصام شعيتو . بيروت - دار الهلال ، الطبعة الأولى ١٩٨٧ م .

* خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، لعبد القادر بن عمر البغدادي . تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون ، القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٩م .

* الخصائص ، لأبي الفتح عثمان بن جني . تحقيق : الأستاذ محمد علي النجار . بيروت - دار الكتاب العربي (نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية) ، بدون تاريخ .

* دراسات لأسلوب القرآن الكريم ، للشيخ محمد عبد الخالق عضيمة . القاهرة - مطبعة السعادة ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٩ هـ .

* درة التنزيل وغرة التأويل ، للخطيب الإسكافي . برواية ابن أبي الفرج الأردستاني . دار الآفاق الجديدة - بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٧ م .

* دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ، للشنقيطي . (ملحق بكتابه أضواء البيان - الجزء التاسع) . الطبعة الثانية ، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .

* دلائل الإعجاز ، للإمام عبد القاهر الجرجاني . قرأه وعلّق عليه الشيخ محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م .

* ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي ، تحقيق : محمد عبده عزام ، القاهرة - دار المعارف ، ١٩٦٤ م .

* ديوان امرىء القيس ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم . القاهرة ، دار المعارف - الطبعة الرابعة ، بدون تاريخ .

* ديوان زهير ، الدار القومية - القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٣٨٤ هـ .

* ديوان الشماخ ، تحقيق صلاح الدين الهادي ، دار المعارف ، الطبعة الأولى ، ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م .

* الرسالة العسجدية في المعاني المؤيدية ، لعباس بن علي الصنعاني . تحقيق : عبد المجيد الشرفي . ليبيا ، ١٣٩٦ هـ .

* رصف المباني في شرح حروف المعاني ، للمالقي . تحقيق أحمد محمد الخراط - دمشق - دار القلم ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٥ هـ .

* روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، لمحمود الألوسي . دار إحياء التراث العربي - بيروت - بدون تاريخ .

* زاد المسير في علم التفسير ، لابن الجوزي - بيروت - المكتب الاسلامي - الطبعة الثالثة ، ١٤٠٤ هـ .

* السبعة في القراءات ، لابن مجاهد . تحقيق الدكتور شوقي ضيف . القاهرة - دار المعارف ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٠ هـ .

* السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير ، للخطيب الشربيني ، بولاق ، ١٢٨٥ هـ .

* سر صناعة الإعراب ، لأبي الفتح عثمان بن جني ، تحقيق : حسن هنداوي . دمشق - دار القلم ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥ هـ .

* سنن ابن ماجه . تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي . دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٥٢ م .

* سنن أبي داود ، لسليمان السجستاني . مراجعة : محمد محي الدين عبد الحميد ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، الطبعة الأولى ، ١٣٧٢ هـ - ١٩٥٢ م .

* سنن الدارمي . مطبعة الاعتدال ، دمشق ، ١٣٤٩ هـ .

* شرح جمل الزجاجي ، لابن عصفور الإشبيلي ، تحقيق الدكتور صاحب أبو جناح ، بغداد - وزارة الأوقاف والشؤون الدينية ، ١٤٠٠ هـ .

* شرح السعد المسمى (مختصر المعاني في علوم البلاغة) . تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده ، القاهرة ، بدون تاريخ .

* شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان ، للسيوطي . القاهرة - مطبعة البابي الحلبي وأولاده ، ١٣٥٨ هـ .

* شرح الكافية الشافية ، لابن مالك - تحقيق : الدكتور عبد المنعم أحمد هريدي . مكة المكرمة - مركز البحث العلمي وإحياء التراث الاسلامي بجامعة أم القرى . الطبعة الأولى - بدون تاريخ .

* شرح كلا وبلى ونعم ، لمكي بن أبي طالب ، تحقيق الدكتور أحمد حسن فرحات. دمشق . دار المأمون للتراث ، الطبعة الأولى - ١٤٠٤ هـ .

* شرح المفصل ، لابن يعيش . القاهرة - مكتبة المثنى وبيروت - عالم الكتب ، بدون تاريخ .

* شروح التلخيص :

- مختصر التفتازاني على تلخيص المفتاح .
- ومواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي .
- وعروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكي .
- وكتاب الايضاح على تلخيص المفتاح للقزويني .
- وحاشية الدسوقي على شرح السعد .

القاهرة - مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر ، بدون تاريخ .

* شعر زهير بن أبي سلمى . صنعة الأعلم الشنتمري . تحقيق : الدكتور فخر الدين قباوة . بيروت ، دار الآفاق الجديدة ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .

* الصاحبي في فقه اللغة ، لابن فارس . تحقيق : أحمد صقر ، القاهرة - مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٩٧٧ م .

* صبح الأعشى ، للقلقشندي . القاهرة - المطبعة الأميرية ، ١٣١٩ هـ .

* الصحاح ، تاج اللغة وصحاح العربية . لإسماعيل بن حماد الجوهري . تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار . الطبعة الثانية - ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .

* صحيح البخاري (الجامع الصحيح) لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري . شرح وتصحيح وتحقيق : محبّ الدين الخطيب ، المطبعة السلفية ومكتبتها ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٠ هـ .

* صحيح الترمذي ، شرح الإمام ابن العربي . دار الكتاب العربي – بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٣١ م .

* صحيح مسلم بشرح النووي ، المطبعة المصرية بالأزهر . الطبعة الأولى ، ١٣٤٧ هـ – ١٩١٩ م .

* الطراز ، المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، للعلوي . بيروت – دار الكتب العلمية ، بدون تاريخ .

* علو م القرآن (مدخل إلى تفسير القرآن وبيان إعجازه) للدكتور عدنان محمد زرزور . بيروت ، المكتب الإسلامي – الطبعة الأولى ، ١٤٠١ هـ .

* العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، لابن رشيق . الطبعة الرابعة ، دار الجيل – بيروت ، ١٩٧٢ م .

* غرائب القرآن وعجائب الفرقان . للنيسابوري . (بهامش تفسير الطبري ، بيروت – دار الفكر ، ١٣٩٨ هـ) .

* فتح الباري (شرح صحيح البخاري) ، لابن حجر . مكتبة ومطبعة مصطفي البابي الحلبي وأولاده بمصر ، ١٣٧٨ هـ – ١٩٥٩ م .

* فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، للشوكاني . بيروت – دار إحياء التراث العربي ، بدون تاريخ .

* فوائد في مشكل القرآن ، لعز الدين بن عبد السلام . حققه : سيد الندوي ، جدة – دار الشروق ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٢ هـ .

* الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان ، لابن القيم ، بيروت - دار الكتب العلمية ، بدون تاريخ .

* في ظلال القرآن ، لسيد قطب . دار الشروق - بيروت ، الطبعة الثامنة ، ١٣٩٩هـ .

* قانون البلاغة في نقد النثر والشعر ، لابن حيدر البغدادي . تحقيق : الدكتور محسن غياض عجيل ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .

* الكافية في النحو ، لابن الحاجب ، بشرح رضي الدين الاستراباذي . بيروت - دار الكتب العلمية ، بدون تاريخ .

* كتاب سيبويه ، لأبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر . تحقيق عبد السلام محمد هارون . القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٧ م.

* الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، لمحمود بن عمر الزمخشري . بيروت - دار الفكر ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٧ هـ .

* اللامات ، لأبي الحسن الهروي . تحقيق : يحي علوان البلاوي . الكويت - مكتبة الفلاح ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٠هـ .

* اللامات ، لأبي القاسم الزجاجي . تحقيق : الدكتور مازن المبارك . دمشق - دار الفكر ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٥ هـ .

* لباب النقول في أسباب النزول ، لجلال الدين السيوطي . بيروت - دار إحياء العلوم ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٠ هـ .

* لسان العرب ، لابن منظور ، القاهرة - دار المعارف ، بدون تاريخ .

* لغات القرآن ، برواية ابن حسنون المسندة إلى ابن عباس . تحقيق : صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديد - بيروت ، ١٣٩٨ هـ .

* مجاز القرآن ، لأبي عبيدة معمر بن المثنى ، عارضه بأصوله وعلق عليه الدكتور فؤاد سزكين . بيروت - مؤسسة الرسالة ، بدون تاريخ .

* مجموع فتاوى شيخ الإسلام احمد بن تيمية ، جمعه عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدي الحنبلي وابنه محمد . (الجزء الثالث عشر) ، مصورة الطبعة الأولى ، ١٣٩٨ هـ .

* المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، لابن جني . تحقيق: على النجدي ناصف وآخران ، القاهرة - المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، ١٣٨٦ هـ .

* المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، لابن عطية . تحقيق الرحالي الفاروق وآخرون . مؤسسة دار العلوم ، الدوحة ، قطر - الطبعة الأولى ، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٧ م .

* مختصر السعد على تلخيص المفتاح ، لسعد الدين التفتازاني . القاهرة - مطبعة محمد علي صبيح وأولاده ، الطبعة الثانية ، ١٣٥٧ هـ .

* المخصص ، لابن سيده . بيروت - المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ، بدون تاريخ .

* المسائل البصريات ، لأبي علي الفارسي . تحقيق ودراسة الدكتور محمد الشاطر احمد محمد احمد . القاهرة - مطبعة المدني ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .

* المسائل العسكرية ، لأبي علي الفارسي · تحقيق ودراسة : الدكتور محمد الشاطر احمد محمد أحمد · القاهرة ، مطبعة المدني ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٢ م ·

* المسائل المشكلة المعروفة بالبغداديات ، لأبي علي الفارسي · دراسة وتحقيق صلاح الدين عبد الله السنكاوي - بغداد ، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية ، إحياء التراث الاسلامي ، بدون تاريخ ·

* المساعد على تسهيل الفوائد ، لابن عقيل · تحقيق الدكتور محمد كامل بركات · مكة المكرمة - مركز البحث العلمي وإحياء التراث الاسلامي بجامعة أم القرى ، الطبعة الأولى ·

* مشاهد القيامة في القرآن ، لسيد قطب · بيروت - دار الشروق ، بدون تاريخ ·

* مشكل إعراب القرآن ، لمكي بن أبي طالب القيسي · تحقيق : ياسين محمد السواس · مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م ·

* المصباح في المعاني والبيان والبديع ، لبدر الدين بن مالك الشهير بابن الناظم ، حققه وشرحه ووضع فهارسه : الدكتور حسني عبد الجليل يوسف · مكتبة اللآداب ، المطبعة النموذجية ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م ·

* المطول على التلخيص ، للتفتازاني ، مطبعة أحمد كامل - سلطان بايزيدده جادر جيلر قبوسي ، ١٣٣٠ هـ ·

* معاني الحروف ، للرماني · تحقيق : الدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي ، جدة - دار الشروق - الطبعة الثانية ، ١٤٠١ هـ ·

* معاني القرآن ، لأبي زكريا الفراء . تحقيق : أحمد يوسف نجاتي ، ومحمد علي النجار ، والدكتور عبد الفتاح اسماعيل شلبي . القاهرة - الهيئة العامة المصرية للكتاب ، ١٩٨٠ م .

* معاني القرآن ، للأخفش الأوسط . تحقيق الدكتور فائز فارس ، الطبعة الثانية ١٤٠١ هـ .

* معاني القرآن وإعرابه ، لأبي إسحاق الزجاج . تحقيق : الدكتور عبد الجليل عبده شلبي . عالم الكتب - بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨ هـ .

* معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ، للعباسي . حققه وعلق عليه : محمد محي الدين عبد الحميد ، عالم الكتب - بيروت .

* معترك الأقران في إعجاز القرآن ، للسيوطي . تحقيق علي محمد البجاوي ، القاهرة - دار الفكر العربي ، بدون تاريخ .

* معجزات قلب القرآن (سورة يس) ، لهاشم دفتردار المدني . جدة - دار الشروق ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٢ - ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٢ - ١٩٨٣ م .

* المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، وضعه محمد فؤاد عبد الباقي . دار الفكر - بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠١ هـ .

* معجم مقاييس اللغة ، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا . تحقيق وضبط : عبد السلام محمد هارون . القاهرة - شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر . الطبعة الثانية ، ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م .

* مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، لجمال الدين بن هشام الأنصاري . تحقيق : الدكتور مازن المبارك ، ومحمد علي حمد الله ، مراجعة : سعيد الأفغاني ، دار الفكر - الطبعة الثانية ، بدون تاريخ .

* مفتاح العلوم ، للسكاكي . ضبطه وشرحه : الاستاذ نعيم زرزور . بيروت - دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .

* المفردات في غريب القرآن ، للراغب الأصبهاني . أعده للنشر الدكتور محمد أحمد خلف الله . القاهرة - مكتبة الأنجلو المصرية ، بدون تاريخ .

* المفصل في علم العربية ، للزمخشري . بيروت - دار الجيل ، الطبعة الثانية ، بدون تاريخ .

* المقتضب ، لأبي العباس المبرد ، تحقيق : محمد عبد الخالق عضيمة . بيروت - عالم الكتب ، بدون تاريخ .

* المقتصد في شرح الإيضاح ، لعبد القاهر الجرجاني . تحقيق : الدكتور كاظم بحر المرجان . بغداد ، وزارة الثقافة والإعلام ، ١٩٨٢ م .

* المقرب ، لابن عصفور . تحقيق : عبد الستار الجواري وعبد الله الجبوري ، بغداد - مطبعة العاني ، الطبعة الأولى ،١٣٩٢ هـ .

* النبأ العظيم ، نظرة جديدة في القرآن ، للدكتور محمد عبد الله دراز . الكويت - دار القلم - الطبعة الثانية ، ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م .

* النشر في القراءات العشر ، لابن الجزري . أشرف على تصحيحه ومراجعته الشيخ علي محمد الضباع . بيروت - دار الكتب العلمية ، بدون تاريخ .

* نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، للبقاعي - الهند - حيدرآباد الدكن . دائرة المعارف العثمانية ، الطبعة الأولى .

* نقد الشعر ، لقدامة بن جعفر . تحقيق وتعليق : الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ، بيروت - دار الكتب العلمية ، بدون تاريخ .

* نكت الإعراب في غريب الإعراب في القرآن الكريم ، للزمخشري · تقديم وتحقيق : الدكتور محمد أبو الفتوح شريف ، القاهرة ، دار المعارف ، بدون تاريخ ·

* النكت في إعجاز القرآن ، للرماني (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن · تحقيق : محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام · القاهرة - دار المعارف ، الطبعة الثانية ، ١٣٨٧ هـ) ·

* نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، للإمام الفخر الرازي · تحقيق : الدكتور بكري شيخ امين ، بيروت - دار العلم للملايين ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٥م ·

* همع الهوامع في جمع الجوامع ، للسيوطي · تحقيق : عبد السلام هارون وعبد العال سالم مكرم · الكويت - دار البحوث العلمية ، ١٣٩٥ هـ ·

* الوحدة الموضوعية في سورة يوسف عليه السلام ، للدكتور حسن محمد باجودة · القاهرة - دار الكتب الحديثة ، بدون تاريخ ·

* اليمين والآثار المترتبة عليه ، لأبي اليقظان الجبوري ، بيروت - دار الندوة الجديدة ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٦ هـ ·

* * *

ثانيا: الرسائل العلمية :

* أساليب القسم والشرط في القرآن الكريم ، لأحمد بن عبد العزيز اللهيب · (رسالة دكتوراه ، بكلية اللغة العربية ، جامعة الأزهر ، القاهرة ، ١٣٩٥ هـ) ·

* القسم في القرآن الكريم ، لخالد سيف الله سيفي ٠(رسالة ماجستير ، بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ١٤٠٣هـ)٠

* * *

ثالثاً : الدوريات :

* صحيفة دار العلوم ، المجلد ٤٩ ، بحث بعنوان : (القسم بالمخلوقات في القرآن الكريم) للأستاذ عثمان أبو النصر ٠

* مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، المجلد ٤٨ ، الجزء الرابع (كتاب اللامات لابن فارس) ٠ ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م ٠

* مجلة المنهل ، العدد ٤٨٨ ، ذو الحجة ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م ، مقال بعنوان : (القسم بين القرآن والسنة) للدكتور إبراهيم عوض ٠

فهرس محتويات البحث

فهرس محتويات البحث

تابع فهرس محتويات البحث

الموضـــــــــوع — الصفحة